جون غرين

مكتبة ١٦١٢

بحثًا عن ألاسكا

ترجمة:
أسامة أسعد

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

بحثًا عن
ألاسكا

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

© جميع الحقوق محفوظة لشركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

الطبعة الأولى 2023
ISBN: 978-6144-58-568-9

تدقيق لغوي: إيلي عساكر
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش

Original Title: **Looking For Alaska**
Copyright © 2005 by John Green
Additional content for this edition © 2015 by John Green
This edition published by arrangement with Dutton Books, a division of Penguin Young Readers Group, a member of Penguin Group (USA) LLC, a Penguin Random House Company

إنّ الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

28 12 2023 مكتبة
t.me/soramnqraa

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 - 11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

جون غرين

مكتبة 1612

بحثًا عن ألاسكا

ترجمة:
أسامة أسعد

رواية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

إلى أفراد أسرتي: سيدني غرين، مايك غرين، وهانك غرين

« لقد حاولت جاهدًا إتقان ما أقوم به من عمل»

(كلمات الرئيس غروفر كليفلاند الأخيرة)

مقدّمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

إنّه لمنَ المُضحك أن أُقدّم لكتابٍ نشرتُه منذ عشرة أعوام. فعلى نحوٍ ما، لعلّني الشخص الأقلّ تأهيلًا لهذا العمل. من جهة، لأنّ الكُتّاب معروفون بضحالتهم في تقييم أعمالهم الشخصيّة، وما من شيءٍ يرعبُني ويُصيبُني بالقشعريرة، أكثر من سماع كاتبٍ صديقٍ يقول لي: «لقد أنهيتُ للتوّ أفضل عملٍ كتبتُه حتى اليوم»، ومن جهةٍ أخرى، تعودُ قراءتي الأخيرة لرواية «بحثًا عن ألاسكا»، إلى شهر كانون الثاني، عام 2005. لذا، من بين معظم الذين قرأوها، لا بدّ من أنّ ذكرياتي هي الأبعد.

بدأت قصّتي مع «بحثًا عن ألاسكا»، في شهر أيلول، عام 2001.

كنتُ أعملُ محرّرًا مساعدًا في مجلة «بوك ليست» Booklist Magazine، ومن حينٍ إلى آخر، أُراجع الكتب. كانت آيلين كوپر، كاتبة أدب الأطفال، تعمل محرّرةً في المجلّة، وهي التي شجّعتني على كتابة مقدِّمة قصّة أشبه بسيرةٍ ذاتيّة تدور أحداثها في إحدى المدارس الداخليّة، والتي كنتُ قد رويتُها لها بإيجاز منذ أعوام. حتى أنها وضعَت لي موعدًا نهائيًا لإنجازها في الأوّل من آذار، عام 2002.

ثمّ في الحادي عشر من أيلول، وقع الاعتداء على مركز التجارة العالميّ.

بعــد بضعة أيــام، تركتنــي صديقتي التــي كنتُ أعيــش معها منذ ســنتين. إثر ذلك، دخلتُ مرحلةً من الاكتئاب الشديد دفعتني في نهاية المطــاف إلى أخذ إجازة، والتغيُّب عن عملــي في المجلّة، بغية التمكّن مــن التركيز على صحّتي العقليّــة، وتقويم ما اعوجّ فيهــا. في آخر يوم عملٍ ســبق الإجازة، كتب لي الناشــرُ بيل أوت، مذكّرةً وجيزةً جاء فيها: «أتوقّــع رؤيتك هنا ثانيةً بعد أســبوعين. تغذّى، تعافى، والآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، شــاهِدْ هارڤي». كان بيل يصدعُ رأســي منذ أعوام بهذا الفيلم السينمائيّ.

جاء والدي بسيارته وعُدنا معًا إلى البيت في أورلاندو. هذا البيتُ الذي لم أعِش فيه حقًّا منذ ذهابي إلى المدرسة الداخليّة عندما بلغتُ الخامسة عشرة من العمر. قضيتُ أسبوعين كاملين في تلقّي جلسات علاجٍ يوميّة، متّبعًا نظامًا دوائيًا أسفرت عنه في النهاية نتائج جيدة. كما صرفتُ وقتًا طويلًا أمام شاشة التلفزيون، حيث كانت الأنباء ما تزال تتحدّث عن الحادي عشر من أيلول، ذلك اليوم الذي غيّر التاريخ، وسرعان ما بات الحديث يدور عن عالم ما قبل الحادي عشر، وعالم ما بعده. ذات مساء، بينما كنتُ أشاهد نشرةَ أخبار الكابل، سمعتُ طبيبًا نفسانيًا يقول إنّ الأميركيين، سوف ينظّمون ذكرياتهم وفقًا لذلك اليوم الرهيب، أي ما قبله وما بعده. عند ذاك، خطر لي، أنّنا كنّا دائمًا نقيس الزمن بالنسبة إلى الحدث الذي يعنينا أكثر من أيّ حدثٍ آخر، ففي التقويم المسيحيُّ نقيس الزمن منذ ولادة يسوع، وفي التقويم الإسلاميّ يقيسونه منذ الهجرة، أي رحلة طائفة المسلمين من مكّة إلى المدينة.

كانت القصّة التي أردتُ روايتها، والتي تستند بشكلٍ فضفاضٍ جدًا على ذكريات المدرسة، تتحدّث عن الشباب الذين تتحوّل بحدّة حياتهم

من خلال تجربةٍ، بحيث لا يستطيعون عيشها إلّا عبر تخيُّل الزمن بحدٍّ ذاته، وإعادة تكوينه.

ومن ثمّ حدث أنني وجدتُ بنيةً قد تصلح للرواية، لكنني لم أكن أملك الطاقة اللازمة لكتابتها فعلًا، إلى أن شاهدتُ «هارڤي». في الحقيقة، لست أؤمن بالتجلّيات الكبرى، ولكن كلّ ما في وسعي قوله، هو إنني استيقظتُ صباح اليوم التالي، وشعرتُ أنني أفضل حالًا، فمنذ سنين، لم أعِش قطّ حالةً بائسةً كالتي كنت أمرُّ بها قبل أن أشاهد «هارڤي». في غضون أسبوع عدت إلى شيكاغو. التحقتُ مجدّدًا بعملي في المجلّة، حيث لم تتوقّف آيلين عن ملاحقتي ومضايقتي بإلحاحها على إنهاء روايتي. أخيرًا، بدأتُ أكتبُ ليلًا، وفي عطلات نهاية الأسبوع.

في الأوّل من آذار، عام 2002، سلّمتُ آيلين، أربعين صفحة مُفرَدة. كانت خليطًا مشوّشًا ومُرتبكًا، لم ينجُ منه سوى بضعة مقاطع تضمّنتَها صيغةُ الكتاب النهائيّة. لكنّ آيلين، رأت فيها قوّةً كامنةً، وطوال العام التالي، عملَت معي يدًا بيد على مسوّدات عدّة، من ثمّ قدّمَتها بالنيابة عنّي إلى الناشرين. اشترتها دار «دوتون» للنشر، وفي نهاية المطاف، بعد أن طواها النسيان أشهرًا عدّة، أصبحت جولي ستروس غابل، ناشرتي.

كانت طريق الرواية ما تزال طويلةً، إذ لم يكن في المخطوطة الأولى التي قرأَتْها جولي متاهةَ عذاباتٍ، ولا ثمّة «ربما» عظيمة. كنتُ أريد كتابةَ روايةٍ تطرح موضوعات، مثل الحبّ والألم والغفران، رواية تُسمّى في علم الأديان «الأمل الجذريّ»، وهي الفكرة التي تؤكّد أنّ الأمل متاحٌ لنا جميعًا في كلّ العصور والأزمان، حتى في الموت، وما بعده. آمل في أنني وُفِّقتُ في ذلك. وعلى افتراض أنّ ما أردتُه قد تحقّق، فلا يعود الفضل لي بذلك، يعود الفضل لوالديّ اللذين رحّبا بي في المنزل، وأحاطاني

برعايتهما، ولـ«هارفي»، الذي صوّر المرض العقليّ كأمرٍ أكثر من شبه مأساويّ، ولآيلين، وجولي، اللّتين آمنَتا بعملي، وكرّستا له سنوات عدّة، وللقرّاء الذين استقبلوا الرواية بكرم، ونظروا إليها بعين التعاطف، وغفروا عيوبَها الكثيرة.

إذًا، تلك هي قصّتي عن الـ«ربما» العظيمة. وشكرًا لكونكم جزءًا منها.

جون غرين

2015

قَبْل

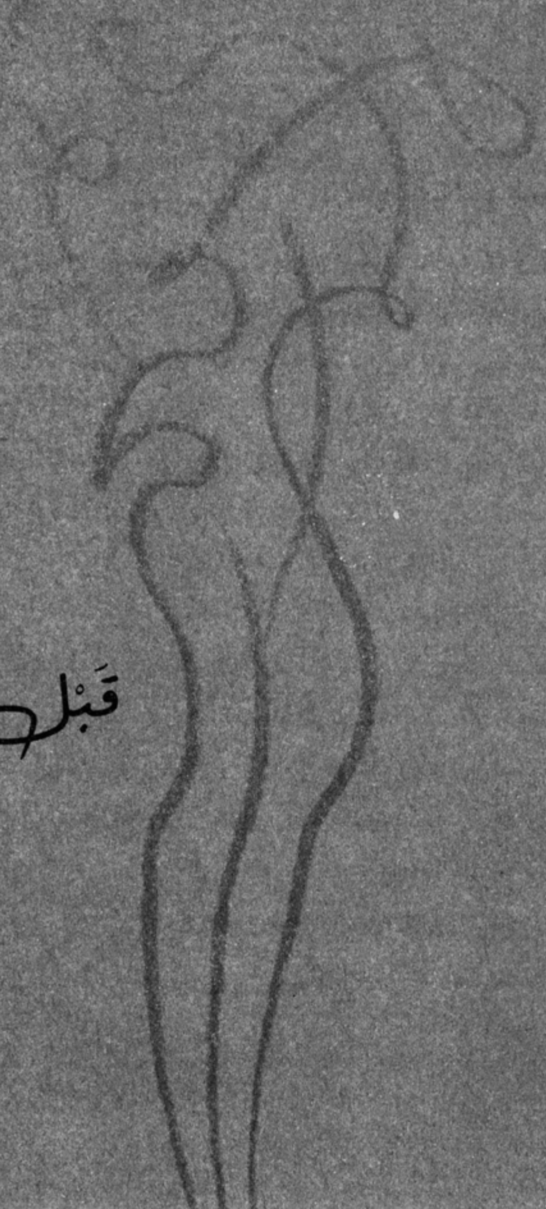

قبل مئة وستة وثلاثين يومًا

قبل أسبوع من مغادرتي فلوريدا، حيث تركتُ أُسرتي وحياتي التافهة لأرتاد المدرسة الداخليّة في ألاباما، أصرّت والدتي على أن تُقيم لي حفلة وداع. لو قلتُ إنّني لم أكن أتوقّع الكثير من تلك الحفلة، لكان حُكمًا مُخفّفًا إلى أبعد حدّ. فعلى الرغم من أنني كنتُ شبه مُرغمٍ على دعوة جميع «أصدقائي في المدرسة»، أي، زمرة رعاع دروس الفنّ المسرحيّ، ومهووسي اللغة الإنكليزية، الذين كنتُ أجالسهم في كافيتيريا المدرسة الكئيبة، لا رغبةً في ذلك، بل لضرورات العلاقات الاجتماعيّة، كنتُ أعرفُ جيدًا أنّهم لن يلبّوا الدعوة. مع ذلك، مضَت والدتي في عنادها، لقناعتها التامّة وتوهّمها، بأنني كنتُ طوال كلّ تلك السنين، أُخفي عليها سرّ شعبيّتي الكاسحة. إذًا، فقد حضّرَت كميّةً هائلةً من هريس الأرضي شوكي، وزيّنت غرفة الجلوس بنثار الورق الأخضر والأصفر، في إشارةٍ منها إلى لونيّ مدرستي الجديدة. اشترت أيضًا، دزينتين من مفرقعات الحفلات*، ووزّعتهما على حوافّ المنضدة.

عندما حلّ يوم الجمعة الأخير، وفرغت والدتي تقريبًا من حزم حقائب السفر، جلسنا نحن الثلاثة، أنا ووالدتي ووالدي على كنبة قاعة الجلوس في

---

* عبوات كرتونية على شكل زجاجات، عندما تنفجر ينطلق منها نثار أوراق ملوّنة.

تمام الساعة 4:56 من بعد الظهر، ورُحنا ننتظرُ وصول جيش المدعوّين الذي سيُشارك في حفلة وداع مايلز. اقتصر الجيش المذكور على عنصرين بالضبط: ماري لوسون، وهي فتاة شقراء نحيلة تضعُ على عينيها نظّارة مستطيلة الشكل، وصديقها الممتلئ (أقول ذلك من باب المجاملة)، ويل.

قالت ماري وهي تهمُّ بالجلوس: «مرحبًا، مايلز».

قلتُ: «مرحبًا».

سألني ويل: «كيف كانت عطلتُك الصيفية؟».

قلت: «لا بأس، وأنت؟».

قال ويل: «جيّدة. فقد قمنا بتقديم «يسوع المسيح نجمٌ استثنائيّ». ساعدتُ في تصميم الديكور، وماري تكفّلت بالإضاءة».

«هذا رائع». أومأتُ بإشارةٍ من رأسي، وبذلك، استُنفدت تقريبًا مواضيعُ حديثنا. ربما كان يجدُر بي أن أستفسر عمّا كان «يسوع المسيح نجمٌ استثنائيّ»، سوى أنني، أوّلًا، لم تكن لدي أدنى فكرة عن الموضوع، وثانيًا، لم أكن أكترث لمعرفة شيء عنه، وثالثًا، لم أكن بارعًا في الأحاديث الفارغة. أمّا والدتي، فبوسعها الحديث بمواضيع تافهة لساعات، لذلك أطالت أمد السماجة بسؤالها لهما كيف جرى التمرين على البروڤات، وكيف كان العرض، وهل كان ناجحًا؟

قالت ماري: «أظنُّ أنه كان ناجحًا»، وأظنُّ أنّ الكثير من الأشخاص قد حضروا». كانت ماري من النوع الذي يظنُّ كثيرًا.

أخيرًا، قال ويل: «حسنًا، لقد جئنا فقط لنقول وداعًا. عليّ أن أُعيد ماري إلى البيت بتمام الساعة السادسة. استمتع في المدرسة الداخلية، مايلز».

أجبتُ: «شكرًا» متنفسًا الصُّعداء. فثمّة ما هو أسوأ من حفلةٍ لا يحضرها أحد، وهو الحفلة التي لا يحضرها سوى أتفه شخصين على وجه البسيطة.

ذهبا، وبقيتُ جالسًا مع والديّ أُحدِّق إلى شاشة التلفزيون السوداء. أردتُ تشغيله لكنّني كنتُ أعرفُ أنّه من الأفضل ألّا أفعل. كنتُ أشعرُ بهما ينظران إليّ، وينتظران أن أنفجر في البكاء، أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، كما لو أنّني لم أكن أعرف بالضبط، أنّ الأمور ستجري على هذا النحو. لكنّني كنتُ أعرف. لا بدّ من أنّهما شعرا بالشفقة عليّ وهما يغمّسان رقائق التشيبس في هريس الأرضي شوكي المخصّص لأصدقائي الوهميين. لكنهما كانا أجدر منّي بالشفقة. لم أكن محبطًا. كانت توقُّعاتي في محلِّها.

سألَت والدتي: «ألهذا السبب تريد الرحيل، مايلز؟».

فكّرتُ لبرهةٍ قصيرة، وأنا أحرصُ على عدم النظر إليها. من ثمّ قلتُ: «أوه، لا».

سألَت: «حسنًا، لماذا إذًا؟»، لم تكن المرّة الأولى التي تطرحُ فيها هذا السؤال. ولم يكن خافيًا على أحد أنّ والدتي لم تكن مسرورةً بذهابي إلى المدرسة الداخلية.

سألني والدي: «بسببي أنا؟». فهو درس في كالڤر كريك، وهي المدرسة الداخلية نفسها التي كنتُ ذاهبًا إليها، كذلك فعل شقيقاه وأولادهما جميعًا. أعتقد أن فكرة السير على خطاه كانت تروق له. لقد روى لي عمّاي قصصًا عن شهرته في الحرَم لجَمْعه بين الشقاوة والتفوُّق على زملائه في جميع المواد. بدت تلك الحياة أفضل من التي كنت أعيشها في فلوريدا. ولكن لا، لم يكن والدي هو السبب. ليس تمامًا.

قلتُ: «مهلًا»، ومن ثمّ ذهبتُ إلى مكتب والدي حيث عثرتُ على سيرة فرانسوا رابليه الذاتية. كنتُ أهوى قراءة سِيَر الكُتّاب الذاتيّة، على الرغم من أنّني لم أقرأ شيئًا من أعمالهم قطّ، وهذا ينطبق على السيد رابليه أيضًا. رحتُ أقلِّب الصفحات الأخيرة حتى وجدتُ الاقتباس الذي كان بارزًا بلونٍ

فسفوري. كان والدي قد نبّهَني ألف مرّة، («لا تضَعْ ألوانًا على الجُمَل في كتُبي قطّ». ولكن هل من طريقةٍ أخرى تساعدُك على إيجاد ما تبحث عنه غير تلك؟).

وقفتُ بعتبة غرفة الجلوس وقلتُ: «قال هذا الرجُل، أي الشاعر فرانسوا رابليه، وهو يرقدُ على فراش الموت، «أذهبُ سعيًا وراء «ربما» عظيمة». هذا هو سببُ ذهابي، ولن أنتظر حتى تحين ساعة الموت لأبدأ بالسعي خلف «ربما» عظيمة».

هدّأ كلامي من روعهما، وتوقّفا عن طرح الأسئلة. كنتُ أسعى خلف «ربما» عظيمة، وكانا يعرفان بقدَر ما أعرف أنّني لن أجدَها في مخالطة أشباه ويل، وماري. استعدتُ مكاني على الكنبة، بين والدي ووالدتي، ومن ثمّ لفّني والدي بذراعه، وبقينا هكذا، جالسين معًا على الكنبة وقتًا طويلًا، لا ننبس ببنت شفة، إلى أن بدا أنّ لا أحد كان يعترضُ على تشغيل التلفزيون. بعد ذلك، أكلنا هريس الأرضي شوكي مع التشيبس على العشاء، وشاهدنا برنامج القناة التاريخية. في نهاية المطاف، لم تكن حفلة وداعي بالتأكيد، أسوأ حفلةٍ في تاريخ حفلات الوداع.

قبل مئة وثمانية وعشرين يومًا

لا ريب في أنّ الطقس كان حارًّا جدًا في فلوريدا، ورطبًا بمكان يجعلُ ملابسك تلتصقُ بجلدك مثل شريطٍ لاصق، والعرقُ يتصبّب نزولًا من جبينك إلى عينيك. ولكن في الخارج فقط، فعمومًا، لم أكُن أمشي، إلّا للانتقال من مكانٍ مبرّد إلى آخر مبرّد أيضًا.

لم يهيِّئني ذلك لنوعِ الحرارة الفريدة التي سأشعر بها في مدرسة كالڤر كريك التحضيرية، التي تبعُدُ خمسة وعشرين كيلومترًا جنوب برمنغهام، ألاباما.

توقّفَت سيارةُ الأسرة ذات الدفع الرباعي فوق العشب على بعد بضعة أقدامٍ خارج الغرفة الثالثة والأربعين، في مدرستي الجديدة. كنتُ كلّما قطعت بضع خطواتٍ من وإلى السيارة لتفريغ ما بدا لي الآن الكثير من المتاع، تعضُّ الشمسُ جلدي بوحشيّةٍ جعلتني حقًّا أتهيّبُ نار جهنّم.

بتضافر جهودنا نحن الثلاثة، أنا ووالدي ووالدتي، لم يستغرقْ تفريغُ حمولة السيارة أكثر من بضع دقائق، لكنّ حرارة غرفتي التي لم تكُن مكيّفة، كانت بالكاد أخفّ من حرارة الخارج، على الرغم من عدم تعرُّضِها، والحمدُ للَّه، إلى أشعّة الشمسِ مباشرةً. خيّبَت الغرفةُ كلّ آمالي. كنتُ أتصوّرُها بأرضيّةٍ مفروشةٍ بالموكيت السميك، وجدرانٍ مكسوّةٍ بالخشب الفاخر، وأثاثٍ على الطراز الفيكتوري. باستثناء رفاهيةٍ وحيدة، أي غرفة الحمّام الشخصيّة، كنت على وشك الإقامة في شيء أشبه بالصندوق. كانت تغطّي قوالب الجدران الإسمنتيّة طبقاتٌ عدّة من الطلاء الأبيض، والأرضيّةُ مفروشةٌ بمشمّعٍ ذي مربعات بيضٍ وخضرٍ على شكل لوحة شطرنج. بدا المكان أشبه بغرفة مستشفى، منه بغرفة أحلامي. أمّا الأثاث فكان يقتصر على سريرٍ بطابقين من الخشب الخام، وُضع لصقَ النافذة المطلّة على الفناء الخلفي، وفراشَين من الڤينيل. أمّا المكاتب والخزانات والرفوف، فكانت كلّها مثبّتةً على الجدران، ما يجعلُ أيّ محاولة إعادة تصميمٍ خلاّقة، أمرًا مستحيلًا. بالطبع لم يكن في الغرفة مكيّف للهواء.

جلستُ على السرير السُّفليّ بينما راحت والدتي تفتحُ الحقائب، وتُخرج كتُب السِّيَر الذاتيّة التي قبِلَ والدي التخلّي عنها، لتصُفَّها على الرفوف.

قلتُ: «ماما، أستطيعُ ترتيب حاجيّاتي بنفسي»، ومن ثمّ نهض والدي متأهِّبًا للرحيل.

قالت والدتي: «دعني أرتِّب السرير على الأقل».

- لا، حقًّا. أستطيع القيام بذلك. لا عليكِ.

لا يمكنُكَ إطالة أمد هذه الأشياء إلى الأبد. في لحظةٍ ما، يكفيكَ أن تنزعَ الضماد، ولو آلمَك ذلك، لكنّه لن يطول، وستشعرُ بعدها بالراحة.

فجأةً، قالت والدتي: «يا إلهي، سوف نفتقدُك كثيرًا»، وهي تجتاز أرض الغرفة المزروعة بالحقائب متجهةً نحو السرير. نهضتُ وعانقتُها. ومن ثمّ انضمّ والدي إلينا، وشكّلنا ما يشبه كومةً متراصّة. كانت الحرارةُ مرتفعةً جدًا، ولم تكُن أجسادُنا المبلّلةُ بالعرق تسمحُ بإطالة أمد ذلك العناق إلى ما لا نهاية. كنتُ أعرفُ أنّه كان عليّ أن أبكي، لكنّني كنتُ قد عشتُ ستّة عشر عامًا مع والديّ، وبدا أن تجربةَ الفراق جاءت متأخِّرة.

قلتُ مبتسمًا: «لا داعي للقلق، لن يمضي وقتٌ طويل حتى أتعلّم لكنة أهل الجنوب». ضحكَت والدتي.

قال والدي: «كُن عاقلًا ولا ترتكبْ أيّ حماقات».

- حاضر.

- لا مخدّرات، لا كحول، لا سجائر.

لكنّه هو، عندما كان طالبًا في كالڤر كريك، ارتكبَ الكثير من الحماقات التي لم يرِدْني منها إلّا الحفلات السريّة، والركض عاريًا في الحقول (لم تكن المدرسةُ مختلطةً في ذلك الحين، ولم يكن يتوقّف عن التذمُّر من ذلك)، وتعاطي المخدّرات، والكحول، والسجائر. لقد احتاج إلى وقتٍ طويل لكي يتمكّن من الإقلاع عن عادة التدخين، لكنّ أيّامَ شقاوتِه وطيشِه كانت خلفَه الآن.

«أحبُّك»، أفلتَت هذه العبارة منهما معًا. كان يجبُ أن تُقال، لكن هذه الكلمات أشعرَتني بضيقٍ وحرجٍ فظيعَيْن، كما لو أنك تفاجئُ جدّك وهو يقبِّلُ جدّتك.

«أحبُّكما أيضًا. سأتّصِل بكما كلّ يوم أحد». لم تكن غرفُنا مزوّدةً بخطٍّ هاتفيّ، لكنّ والديّ طلبا أن تكون غرفتي قريبة من أحد الهواتف العموميّة الخمسة في كالڤر كريك.

عانقاني ثانيةً، والدتي أوّلًا، ثمّ والدي، وكانت النهاية. رحتُ أراقبُهما من النافذة الخلفيّة وهما يجتازان بسيارتهما الطريقَ المتعرّجة التي تُفضي إلى خارج الحرَم. قد تكون مشاعرُ حزنٍ لصيقٍ غمرتني آنذاك، ربما. لكنّني لم أكن أرغب إلّا ببعض البرودة، فالتقطتُ كرسيًّا، وجلستُ في الظلّ تحت إفريز باب الغرفة الخارجيّ، منتظرًا هبوبَ نسمةٍ لم تأتِ قط. كان الهواء في الخارج ساكنًا وخانقًا كهواء الداخل. حدّقتُ في ما سيكون من الآن فصاعدًا بيتي الجديد؛ ستةُ مبانٍ بطابقٍ أرضيٍّ وحيد، يتألّفُ كلٌّ منها من ست عشرة غرفة، وتتوزّع على شكل نجمةٍ سداسيّةٍ حول دائرةٍ فسيحةٍ مُعشِبة. بدَت أشبه بموتيل قديمٍ، ولكن أكبر من المعتاد. أينما نظرت، كان هناك صبيةٌ وفتياتٌ يتعانقون ويبتسمون ويسيرون معًا. تمنّيتُ من دون قناعةٍ حقيقيّةٍ لو يأتي أحدُهم ويكلّمني، فتخيّلتُ المحادثةَ:

- مرحبًا. أهي سنتُك الأولى؟

- نعم. نعم. أنا من فلوريدا.

- جميل. إذًا فأنت معتادٌ على الحرّ.

ولربما أجبتُ مازحًا: «حتى لو كنتُ أعيشُ في الجحيم، لما كنتُ معتادًا على هذا الحرّ»، وأعطيتُ انطباعًا أوليًّا جيدًا.

- ياه، إنه ظريف. هذا الفتى مايلز، مشاغب ومرح.

بالطبع، لم يحدُث ذلك. لم تكن الأمورُ تجري كما كنتُ أتخيّلُها قط.

ضجِرًا، عدتُ إلى الغرفة، حيث نزعتُ قميصي، واستلقيتُ مغمضًا عينيّ على السرير السفليِّ فوق فراش الڤينيل الحارق. لم يسبق لي أن عشتُ حالةً من الكَشف الروحيِّ، لأولدَ من جديد شخصًا آخر، مع المعموديّة والدموع وكلّ ما يرافقُهما، غير أنّ ذلك لم يكن أسوأ من ولادةٍ ثانية في جلد شخصٍ بلا ماضٍ معروفٍ. فكّرتُ في أولئك الأشخاص الذين قرأتُ عنهم: جون فيتزجرالد كينيدي، وجيمس جويس، وهمفري بوغارت، الذين ذهبوا إلى مدارس داخلية، ورحتُ أتأمّلُ في تجاربهم. كينيدي على سبيل المثال، كان يعشقُ المقالب. فكّرتُ في السعي خلف الـ«ربما» العظيمة، وفي الأمور التي قد تحدثُ، والأشخاصِ الذين قد ألتقيهم، وفي شريك غرفتي، تشيپ مارتن. كنتُ قد تلقّيتُ رسالةً قبل عدّةِ أسابيع تُعلِمُني باسمه فقط، من دون أيّ معلومات أخرى. لم يكن يهمُّني، أيّ شخصٍ كان تشيپ مارتن؟ كلُّ ما كنتُ أتمنّاه، هو أن يجلب معه أسطولًا من المراوح العملاقة، التي لم يكن بين متاعي أيّ منها. كنتُ أشعرُ ببُرك العرق وهي تتشكّل تحتي على الفراش، فأصابني القرف وتوقّفتُ عن التفكير، لأسارع في النهوض بحثًا عن منشفةٍ لمسحِها. ومن ثمّ قلتُ في نفسي، حسنًا، قبل أن تبدأ المغامرة، ينبغي إفراغ الحقائب أوّلًا.

علقتُ خريطة العالم على أحد الحيطان، ورتّبتُ ثيابي في الأدراج، قبل أن ألاحظ أنّ الحيطان نفسها كانت تتعرّقُ جرّاء الحرارة ورطوبة الهواء، ومن ثمّ قرّرتُ أنّ اللحظة لم تكن ملائمةً لأعمال التنظيف اليدويّة، بل لدُشٍّ باردٍ ومنعش.

كانت خلف بابٍ غرفة الحمّام، مرآةٌ هائلة الحجم بالطول الكامل، وبينما كنت أنحني لفتح صنبور الماء لم أستطِع تفادي رؤية انعكاسي فيها عاريًا تمامًا. لطالما أدهشني نحولي. لم يكن باديًا أنّ ذراعيّ النحيلتين كانتا أغلظ عندما كنتُ أُقلِّصُ عضلاتهما، ولم يكن في صدري ذرّة شحمٍ أو عضَل، فشعرتُ بالحرَج، وتساءلتُ، أما من شيء يمكن فعلُه للتخلُّص من تلك المرآة. ومن ثمّ سحبتُ ستارةَ الدشِّ البيضاء وانزلقتُ داخله.

لسوء الحظ، بدا أن الدُشّ كان مصمّمًا لقزمٍ لا يتجاوز 110 سنتيمترات، فضرب رشاشُ الماء أسفل قفصي الصدريّ. ولكي أُرطِّب وجهي المتصبِّب عرقًا، اضطررتُ إلى أن أُباعدَ بين ساقيّ، وأجلس القرفصاء، فعلًا. لا شكّ في أنّ جون إف. كينيدي، الذي كان طولُه 182 سنتيمترًا بحسب سيرَته الشخصيّة، أي بمثل طولي تمامًا، لم يضطرّ إلى أن يجلس القرفصاء للاستحمام في مدرسته الداخليّة. لا، هنا كان الأمرُ مختلفًا كليًّا، وبينما كان رشَاشُ الماء يسيلُ على جسدي، رحتُ أتساءل، أيُعقلُ أن أجد في هذا المكان، الـ«ربما» العظيمة التي جئتُ سعيًا خلفها، أم أنّني ارتكبتُ خطأً فادحًا في الحسابات.

عندما فتحتُ باب الحمّام، وخرجتُ عاريًا إلّا من منشفةٍ ملفوفةٍ حول خصري، رأيتُ فتىً قصير القامة مفتول العضلات، يُغطّي رأسه شعرٌ كثيفٌ كستنائيُّ اللون. كان يجرُّ كيسَ بحّارةٍ ضخمًا عبر الباب إلى داخل غرفتي. لم تكن قامتُه تتجاوزُ 150 سنتيمترًا إلّا قليلًا، لكنّه كان متين البنية، أشبه بنموذجٍ مُصغّرٍ للإله أدونيس، ترافقُه رائحةُ تبغٍ بارد. يا للروعة، قلتُ في نفسي. في أوّل لقاءٍ بيننا، يجدُني شريكُ غرفتي عاريًا تمامًا. جرّ كيسه حتى وسط الغرفة، ومن ثمّ أغلق الباب واتّجه نحوي.

أعلن بصوتٍ رخيم: «أنا تشيپ مارتن»، كصوت مقدِّم برنامجٍ إذاعيّ موسيقيّ. وقبل أن يتسنّى لي الوقت للإجابة، أضاف، «وددتُ مصافحتَك

ولكنني أعتقد أنّه ينبغي لك الإمساك جيدًا بهذه المنشفة ريثما ترتدي شيئًا ما».

ضحكتُ وأومأتُ له برأسي قائلًا: «أنا مايلز هالتر. سعيد بمعرفتك».

سألني: «مايلز مثل أميال* ، ينبغي أن أجتازها قبل الخلود إلى النوم؟».

- ماذا؟

- إنها قصيدة لروبرت فروست. ألم تقرأ له أبدًا؟

هززتُ رأسي بالنفي.

قال مبتسمًا: «اعتبِرْ نفسَك محظوظًا».

التقطتُ سروالًا داخليًا نظيفًا، وشورت كرة قدم أديداس، وتي شرت أبيض، ومن ثمّ قلتُ بما يشبه الهمهمة، سأعود في خلال ثوانٍ، ولجأتُ إلى غرفة الحمام. يا له من انطباعٍ أوّليٍّ رائع، قلتُ في نفسي.

سألتُه من غرفة الحمّام: «أين والداك؟».

- والداي؟ الوالد في كاليفورنيا حاليًا. قد يكون الآن مسترخيًا في كنَبَته الوثيرة، أو خلف مقود شاحنته. ولكنّ الأكيد، هو أنّه يشرَبُ في الحالتين، أمّا والدتي، فأُرجِّحُ أنّها تغادرُ الحرمَ الآن.

«أوه»، قلتُ، وكنتُ قد ارتديتُ ملابسي. لم أعرف ما الذي كان بوسعي قوله جوابًا عن هذا السيل من الشؤون الشخصية. كان أولى بي أن أصمت وألّا أسأل، ما دمتُ لا أَنشدُ معرفة شيءٍ مُحدّد.

أخرج تشيپ بعض الأغطية ورماها على السرير العُلويّ. «أفضّلُ السريرَ العُلويّ، هل لديك من مانع؟».

- أوه، لا عليك. لا فرق عندي.

---

* مايلز تعني أميال بالإنكليزية.

قال: «أرى أنك قد بدأتَ بتزيين الغرفة»، وهو يشير إلى خارطة العالم معبِّرًا عن إعجابه.

ومن ثمّ راح يُسمّي البلدان. كان صوته من الرتابة بحيث تخالُ أنّه فعل ذلك آلاف المرات.

أفغانستان.

ألبانيا.

أرمينيا.

أذربيجان.

أندورا.

وهلمّ جرّا، إلى أن استنفد تقريبًا كلّ البلدان التي يبدأ اسمها بحرف الألف، قبل أن ينتبه إلى نظرتي الذاهلة.

- أستطيعُ عدّ الباقي، لكن ذلك قد يصيبُك بالضجر. لقد تعلّمتُ ذلك في أثناء العطل الصيفيّة. يا إلهي، لا يمكنك أن تتخيّل كم هو مُملٌّ قضاء الصيف في نيو هوب، ألاباما، فالنشاط الوحيد الذي يمكنك القيام به، هو مراقبةُ نباتات الفاصولياء وهي تنمو. بالمناسبة، من أين أنت؟

- فلوريدا.

- لم أذهب إليها قط.

- إنّ تسميتَك للبلدان بهذه السهولة أمرٌ هائل.

- نعم، لكلٍّ موهبتُه. أستطيع حِفظَ الأشياء. وأنت ما هي موهبتُك؟

- أوه، أحفظُ الكلمات الأخيرة التي قالها عددٌ كبيرٌ من المشاهير. هذه هي نقطة ضعفي، تعلُّمُ الكلمات الأخيرة. لدى الآخرين، قد تكون الشوكولاتة، أو أيّ شيء آخر، أمّا أنا، فقد كانت الكلمات الأخيرة التي تُقال قبل الموت.

- مثال؟

- أُحبُّ كلمات هنريك إبسن الأخيرة. كان كاتبًا مسرحيًا.

أعرف عنه الكثير، لكنني لم أقرأ أيًّا من أعماله. لم أكن أُحبُّ قراءةَ المسرحيات. أُحبُّ قراءة السِّير الذاتيّة.

قال تشيپ: «نعم، أعرف من هو إبسن».

- حسنًا، كان مريضًا منذ مدّةٍ طويلة، وذات يوم، قالت له ممرِّضته، «تبدو بصحةٍ أفضل هذا الصباح»، فما كان من إبسن إلّا أن نظر إليها وقال، «بل على العكس»، ومن ثمّ مات.

ضحك تشيپ، وقال: «هذا مروِّع، لكنّه يعجبني».

أخبرني أنها كانت سنته الثالثة في كالڤر كريك. بدأ في هذه المدرسة من الصف التاسع، والآن، صار مثلي في الصف الحادي عشر. ومن ثمّ أضاف أنه يتمتّع بمنحةٍ دراسيّةٍ كاملة. كان قد سمع أنها أفضل مدرسةٍ في ألاباما، لذلك، كتب في طلب قبوله أنه كان يرغب في قراءة كتبٍ ضخمة. فالمشكلة، قال موضِّحًا، إنّ والدَه كان على الدوام يضربه بالكتب، لذلك فضّل تشيپ اقتناء الكتب الصغيرة الحجم، وطبعات الجيب، حفاظًا على سلامته الشخصية. كان في الصف العاشر عندما انفصل والداه. قال إنه يحبُّ «الكريك»، هكذا يسمّي المدرسة، ولكن هنا، «عليكَ توخّي الحذر في علاقتك بالطلاب والأساتذة، على الرغم من أنّني أكره توخّي الحذر». قال ذلك وقد ارتسمَت على وجهه ابتسامةٌ ساخرة. أنا أيضًا، كنتُ أكرَهُ توخّي الحذر، أو على الأقلّ، لم أكُن أرغبُ في ذلك.

أخبرني بذلك كلِّه وهو يُخرجُ ثيابه من الكيس، ويرميها في الأدراج كيفما اتفق. لم يكن يعتقدُ تشيپ بفكرة تخصيص درجٍ للجوارب وآخر

للقمصان. كان يعتقدُ أنّ الأدراجَ خُلقَت سواسية، فراح يملأها بكلّ ما يمكن حشرُه فيها. ولو رأت والدتي ذلك، لأصابتها سكتةٌ قلبيّة.

ما إن انتهى من «ترتيبه»، لم يُربِّت على ظهري، بل صفعَهُ بخشونة، وقال: «آمل في أن تكون أقوى مما يظهر من هيئتك»، ومن ثمّ مشى باتجاه الباب، وخرجَ من دون أن يغلقَه. بعد ثوانٍ، مدّ رأسه، فرآني لا أزالُ مزروعًا في مكاني. «حسنًا، هيا بنا، مايلز هالتر. ثمّة حماقاتٌ كثيرة تنتظرُنا».

ذهبنا إلى قاعة التلفزيون التي كانت بحسب تشيپ، الوحيدة المجهزة بقنوات الكابل في الحرَم المدرسيّ. في خلال الصيف، كانت هذه القاعة تُستعمل أيضًا كوحدة تخزينٍ لقطع الأثاث. لذلك، كانت تعجُّ بالكنبات، والثلاجات، والسجاجيد الملفوفة، التي تصلُ حتى السقف. في هذه الفوضى العارمة، حاول عدد من الطلّاب استخراج أغراضهم الشخصيّة ونقلها إلى غرفهم. حيّى تشيپ بضعة أشخاص، لكنّه لم يُقدِّمني. ومن ثمّ راح يتسكّع في تلك المتاهة، بينما بقيتُ واقفًا في المدخل، أبذلُ قصارى جهدي لكي لا أعترض طريق الذين كانوا يحاولون تمرير قطع الأثاث، عبْر باب القاعة الضيِّق.

احتاج تشيپ إلى عشر دقائق ليجد أغراضه، واحتجنا إلى ساعة إضافيّة لنقلها، حيث قمنا بأربع رحلاتٍ ذهابًا وإيابًا عبر الدائرة المعشبة، التي تفصل بين قاعة التلفزيون والغرفة رقم 43. وبعد أن انتهينا، لم أكن أرغبُ إلّا في الانزلاق داخل ثلاجته الصغيرة، لأنام ألف عام، غير أنّ تشيپ، بدا ذا مناعةٍ طبيعيةٍ ضدّ التعب وضربات الشمس. ومن ثمّ ارتميتُ على كنبته.

قال وهو يضعُ جهاز البلاي ستيشن 2: «لقد وجدتُ هذه الكنبة منذ سنوات عدّة ملقاةً على الرصيف بجانب المنزل»، الذي أحضرتُه معي،

على صندوق أمتعته أسفل السرير. ومن ثمّ تابع: «أعرف أنّ الجلد ممزّقٌ قليلًا، لكنّها كنبةٌ جميلةٌ جدًا». كان جلد الكنبة أكثر من ممزّقٍ قليلًا، فثلاثون بالمئة منها فقط، كانت مغطّاةً بجلد اصطناعيٍّ أزرق اللون، والباقي من الإسفنج الخام، لكنّها على أي حال، بدَت لي لطيفةً جدًا.

قال تشيپ: «حسنًا، لقد انتهينا تقريبًا». ومن ثمّ مشى نحو مكتبه، وأخرج من أحد أدراجه لفافة شريطٍ لاصق كالذي يُستعملُ للأمتعة. «لا ينقصُنا سوى صندوق أمتعتك».

نهضتُ وسحبتُ الصندوق من تحت السرير، فوضعه تشيپ بين الكنبة والبلاي ستيشن 2، ومن ثمّ راح يقصُّ أشرطةً صغيرةً من اللفافة، ويلصقها على الصندوق، بحيث شكّلت عبارة «منضدة القهوة».

قال: «لقد أصبحَت جاهزة»، ومن ثمّ وضع قدميه على، ما بات، «منضدة القهوة».

جلستُ بجانبه، فنظر إليّ وقال فجأةً: «اسمعْ، لا تُعوِّل عليّ في تقديمك إلى حياة كالڤر كريك الاجتماعية».

قلتُ: «أوه، لا بأس»، لكنني شعرتُ بغصّة تلك الكلمات في حنجرتي. لقد ساعدتُ لتوّي هذا الفتى على حمْل كنبته تحت أشعّة الشمسِ اللاهبة، وإذا به الآن لا يتقبّلني؟

شرح لي، وهو يتكلّم بإلحاحٍ متزايد: «مبدئيًّا، توجد هنا مجموعتان من الطلاب، مجموعة النظاميين، الذين يقيمون هنا طوال الوقت، أي مثلي، ومجموعة الأسبوعيين الذين يقيمون هنا أيام العمل فقط، وفي عطلة نهاية الأسبوع، يذهبون إلى قصورهم المكيّفة، فجميعهم أبناء أُسَرٍ غنيّة تعيش في برمنغهام. هؤلاء هم النخبة. لا أحبهم ولا يحبونني، لذلك، في حال كنتَ في مدرسة رسمية، قبل مجيئك إلى كالڤر كريك، طالبًا

شعبيًا مغرورًا، فسوف تكون هنا طالبًا شعبيًا مغرورًا أيضًا، ويُفضّل ألّا تظهر بصحبتي. لقد كنتَ في مدرسةٍ رسمية، أليس كذلك؟».

قلتُ: «أوه...»، ومن ثمّ رحتُ بشكلٍ آليٍّ أتحسّسُ تمزُّقات جلد الكنبة، وأغوص بأصابعي في البياض الإسفنجي.

- لا شك في الأمر، فلو كنتَ في مدرسة خاصة، لكان هذا الشورت الفظيع على مقاسك.

ومن ثمّ غرق في الضحك.

أُحبُّ ارتداء الشورت تحت الورك، أجدُ ذلك رائعًا. ومن ثمّ قلتُ أخيرًا: «صحيح، كنتُ في مدرسة خاصة. لكنّني يا تشيپ، لم أكن طالبًا شعبيًا مغرورًا، بل طالبًا عاديًّا فقط».

«حسنًا، هذا جيد، ولكن توقّف عن مخاطبتي باسمي، لا تناديني تشيپ، بل كولونيل». أطلقتُ ضحكةً وقلتُ:

- كولونيل؟

- نعم. كولونيل. وأنت سنُلقِّبُك بالبدين.

- ماذا؟

قال الكولونيل: «البدين، لأنّك هزيل. هذا ما يُسمّى بالسخرية، يا بدين. ألم تسمعْ بشيءٍ اسمه السخرية؟ ولكن دعنا من هذا الآن، هيّا بنا نشتري بعض السجائر للاحتفاء بالعام على نحوٍ لائق».

مشى خارج الغرفة، مفترِضًا من جديد أنني سأتبعه، وقد تبعتُه هذه المرّة. لحسن الحظ، كانت الشمس تنحدرُ في الأفق. مشينا مسافة خمسة أبوابٍ فقط من غرفتنا حتى وصلنا أمام باب الغرفة 48، الذي ثُبِّت عليه لوحٌ صغيرٌ بوساطة شريطٍ لاصقٍ عريض، وكُتب عليه: غرفةُ ألاسكا الشخصيّة!

راح الكولونيل يشرح لي أنّه، أوّلًا، هذه الغرفة كانت غرفة ألاسكا. ثانيًا، إذا كانت تتمتّعُ بغرفةٍ شخصيّة، فلأنّ شريكتها في الغرفة، طُرِدَت نهاية العام الفائت. ثالثًا، كانت ألاسكا تبيع السجائر، على الرغم من أنّ الكولونيل أهمل سؤالي، إن كنتُ رابعًا، أُدخّن، خامسًا، في حين أنني لم أكُن.

دقّ الباب دقّةً قويةً واحدة، فجاء من الداخل صوتُ صراخ: «يا إلهي، أدخُلْ أيها القزم، لديّ قصّة هائلةٌ أُريدُك أن تسمعها».

دخلنا. استدرتُ لأغلق الباب خلفي، لكنّ الكولونيل هزّ رأسه وقال: «بعد السابعة مساءً، عليكَ أن تترك الباب مفتوحًا إذا كنتَ في غرفةٍ للبنات»، غير أنّني بالكاد سمعتُه، فقد كنتُ وجهًا لوجه أمام فتاةٍ بلا شك، هي الأكثر إثارة في تاريخ الإنسانية، ترتدي شورت جينز، وقميصًا بلا أكمام بلون الدرّاق. كانت تُكلِّم الكولونيل بسرعة وبصوتٍ مرتفع.

«إذًا، فقد حدث ذلك في اليوم الأوّل من العطلة الصيفيّة، كنتُ في «غراند أولد ڤاين ستيشن»، رفقة هذا الفتى الذي يُدعى جاستن، نجلس في منزله على الكنبة، ونشاهد التلفزيون - أُذكِّرك بأنني أواعد جايك - وفي الواقع، ما زلتُ، ولو بدا ذلك أعجوبة، لكنّ جاستن صديقٌ قديم منذ الطفولة. إذًا، كنّا نشاهد التلفزيون، ونتحدّث عن طلبات القبول في الجامعة وأشياء من هذا القبيل، وإذا بجاستن يضع ذراعه حول كتفيّ، فأقول في نفسي، أوه، لا بأس، نحن أصدقاء طفولة، وما من مشكلة في ذلك. كنتُ أتكلّم عن معادلة الشهادات أو أشياء أخرى، لم أعُد أذكُر بالضبط، عندما قبض جاستن على ثديي كالصقر وراح يعجنه، يعجنه بقوة مدّة ثانيتين أو ثلاث على الأقل. كان أوّل شيء فكرت فيه، «كيف أُحرِّرُ ثديي من هذه الملزمة قبل أن تترك عليه آثارًا لا تُمحى؟» والشيء

الثاني كان، «رباه، لا أقوى على الانتظار حتى أخبر تاكومي، والكولونيل بذلك».

غرق الكولونيل في الضحك. أما أنا، فرحتُ أحدِّق إليهما مبهورًا بهذا الصوت الجهوريّ الصادر من حنجرة تلك الفتاة الصغيرة (ولكن ربّاه، كم كانت انحناءاتها بديعة)، وبأكداس الكتب العملاقة المصفوفة على الرفوف في غرفتها. لم تكن الرفوف تتّسع لمكتبتها، وفي كل مكان من الغرفة، كانت أكوام الكتب التي تصل حتى الخصر، تستند إلى الجدران بشكلٍ عشوائيّ، فقلت في نفسي، لو تحرّك كتابٌ واحد، لابتلعنا مفعول أحجار الدومينو نحن الثلاثة، تحت طنٍّ من الأدب الخانق.

سألَت: «من هو هذا الفتى الذي لا تُضحِكه قصّتي الطريفة؟».

- أوه، معك حق ألاسكا، أُعرِّفكِ إلى البدين. إنه يحفظ الكلمات الأخيرة التي قالها العظماء عن ظهر قلب. يا بدين، أعرِّفُكَ إلى ألاسكا، التي عُجن صدرُها في خلال الصيف.

مشت نحوي مادّةً يدها، ومن ثمّ في اللحظة الأخيرة، خفضَتها وشدّت الشورت الذي كنتُ أرتديه إلى أسفل.

- هذا أكبر شورت في ولاية ألاباما برمتها!

قلتُ مرتبكًا: «أحبُّ الشورتات الواسعة»، ومن ثمّ رفعتُ الشورت الذي كان الجميع يجده جميلًا في مسقط رأسي فلوريدا.

صرّح الكولونيل برباطة جأش مدهشة: «أودُّ أن أُعلمَك يا بدين، أنني لا أعرفك إلّا منذ ساعات، وعلى الرغم من ذلك، فقد رأيت كامل ساقيك النحيلتين كسيقان الدجاج، أكثر مما ينبغي، حسنًا ألاسكا. لقد جئنا لنشتري منكِ بعض السجائر». ومن ثمّ تمكّن بطريقةٍ ما، من إقناعي بدفع خمسة دولارات ثمن علبة سجائر مارلبورو خفيفة، لم تكن لديّ أي

نيّة في تدخينها. طلب من ألاسكا الانضمام إلينا، لكنّها قالت: «يجب أن أجد تاكومي، وأخبره بقصة العجين». ومن ثمّ استدارت نحوي وسألتني، «هل رأيتهُ؟» لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أرى تاكومي، ما دمتُ أجهلُ تمامًا من هو. اكتفيتُ بهزّة نفيٍ من رأسي.

- حسنًا، إذًا في هذه الحالة، موعدنا عند البحيرة بعد بضع دقائق.

وافق الكولونيل بإيماءةٍ من رأسه.

على ضفة البحيرة، تمامًا قبل شاطئٍ رمليٍّ، أخبرني الكولونيل بأنه اصطناعي، جلسنا على إحدى الأراجيح. أجبَرتُ نفسي على المزاح وقلتُ: «لا تعجن ثديي»، فأجبر الكولونيل نفسه على الضحك من باب المجاملة، وسأل: «هل تريد سيجارة؟» لم أكن قد دخّنتُ قبل ذلك قط، ولكن في مدينة العور، ضع يدك على عينك.

- هل المكان آمن؟

أجاب: «ليس تمامًا»، ومن ثمّ أشعل سيجارةً ومدّها لي، فأخذتها. تنشّقتُ. سعلتُ. اختنقتُ. بحثتُ عن هواءٍ أتنفّسه. فكّرتُ في التقيؤ. تمسّكتُ بمقعد الأرجوحة، كان رأسي يدور، فرميتُ السيجارة وسحقتُها بقدمي، مدركًا وعلى قناعةٍ تامة، أنّ السيجارة ليست بالضرورة من مستلزمات الـ«ربما» العظيمة التي جئتُ أسعى خلفها.

سخر مني ضاحكًا: «هل تدخّنُ منذ وقتٍ طويل؟»، ومن ثمّ أشار بإصبعه إلى بقعة بيضاء على سطح البحيرة، وقال:

- هل ترى ذلك الشيء؟

- نعم، وما هذا؟ أهو طائر؟

- إنها البجعة.

- ياه، مدرسةٌ فيها بجعة. هائل.

- هذه البجعة تنتمي إلى سلالة الشيطان. إياك أن تقترب منها أكثر مما نحن عليه الآن.

- لماذا؟

- لقد عانت من بعض المتاعب مع البشر. ربما أنهم عاملوها بقسوة أو ما يشبه ذلك. يمكنها أن تمزِّقك إربًا. لقد وضعها النسر هنا لكي تردعنا عن المجيء إلى البحيرة للتدخين خلسةً.

- النسر؟

- السيد ستارنز، الملقّب بالنسر، والمشرف على الطلاب. معظم الأساتذة يسكنون في الحرَم، جميعهم يراقبونك، ولا بدّ من أن يأتي يوم وتقع في قبضة أحدهم. لكنّ النسر، هو الوحيد الذي يسكن على مقربة من دائرة مباني الطلاب، ويمكنه رؤية كلّ شيء. بوسعه أن يشتمّ رائحة التبغ من مسافة عشرة كيلومترات.

سألتُ مشيرًا إليه بإصبعي: «أليس ذلك منزله؟». كنتُ أستطيع رؤية المنزل بوضوح على الرغم من الظلام، وبالتالي، استنتجتُ أنّ المشرف أيضًا كان بوسعه رؤيتنا.

قال الكولونيل بشيء من اللامبالاة: «نعم، لكنّه الآن ليس في حالة حرب حقًا ما دامت الدروس لم تبدأ بعد».

- يا إلهي، سيقتلني والداي، إذا أثرتُ المتاعب.

- أعتقدُ أنك تبالغ. ولكن اسمعْ، عاجلًا أم آجلًا ستدركك المتاعب. وفي خمسة وتسعين بالمئة من الحالات، لن يعرف والداك شيئًا. فالمدرسة لا ترغب في أن يحمّلاها مسؤولية فشلك، ولا أنت ترغب في أن يعتبراك فاشلًا.

ومن ثمّ نفث بقوة سحابةً رفيعةً من الدخان باتجاه البحيرة. عليّ أن أُقرّ بأنه كان مثيرًا للإعجاب، فطريقته في التدخين جعلته على نحوٍ ما يبدو أطول قامةً.

- على أي حال، عندما تتعرّض لمشكلةٍ ما، لا تُخبِرْ أحدًا بذلك. ما أريد قوله، هو إنني أكره هؤلاء الأغنياء المتعجرفين كرهًا لا أكنُّ مثيله عادةً إلّا لزيارات طبيب الأسنان، ولوالدي، ولكن مع ذلك، هذا لا يعني أنني سأشي بهم. إن الشيء الأهم الذي عليك الالتزام به، هو عدم الوشاية مهما حدث.

قلتُ: «حسنًا»، غير أنّ ذلك لم يمنعني من التساؤل: إذا وجّه لي أحدُهم لكمةً على الوجه، عليّ أن أُصرّ بأنني اصطدمتُ بأحد الأبواب بينما كنتُ أركض؟ بدا ذلك غبيًا بعض الشيء. إذ كيف تتعامل مع الأشرار والأوغاد إن كنتَ لا تستطيع المطالبة بمعاقبتهم؟ لكنني لم أطرح السؤال على تشيپ.

- حسنًا يا بدين، لقد حان وقت ذهابي للبحث عن صديقتي. لذا، هات بعض السجائر التي لن تدخنها قط، وإلى اللقاء.

قرّرتُ البقاء جالسًا على الأرجوحة لبعض الوقت، فالحرارة خفّت أخيرًا، وباتت لطيفة، ولو تخطّت الثلاثين درجة، وكنتُ أعتقد أنّ ألاسكا لن تلبث أن تظهر. ولكن ما إن غادر الكولونيل، حتى أسرعت أعدادٌ هائلةٌ من البعوض في الظهور، وحفيفُ أجنحتها الصغيرة الواهية يصمُّ الآذان. فقرّرتُ التدخين.

إذًا، كنتُ أعتقدُ أنّ الدخان قد يُبعد أسراب البعوض. إلى حدٍّ ما، لم أكُن مخطئًا. قد أكون كاذبًا، لو ادّعيتُ أنني أصبحتُ مدخنًا، فقط لإبعاد تلك الحشرات، والانحاء باللائمة عليها. لقد أصبحتُ مدخنًا، أوّلًا، لأنني

كنت وحيدًا على الأرجوحة، وثانيًا، كان بحوزتي سجائر، وثالثًا، إذا كان الجميع يستطيعون التدخين من دون سعال، فأنا أيضًا أستطيع. باختصار، ما من سببٍ حقيقيٍّ خلف ذلك. إذًا، فلنعتبرْ أنّ رابعًا، كان البعوض هو المسؤول.

أخذتُ ثلاثة أنفاسٍ قبل أن أشعر بالغثيان والدوار، مع إحساسٍ لذيذٍ بالخدَر. نهضتُ، وكنتُ أهمُّ بالذهاب، عندما سمعت صوتًا من الخلف: «إذًا، أنت حقًّا تحفظ كلمات المشاهير الأخيرة عن ظهر قلب؟» قالت ألاسكا وهي تُمسكني من كتفي، وتدفعني إلى الخلف لتجبرَني على الجلوس.

قلتُ: «نعم»، ومن ثمّ بنبرةٍ متردِّدة، أضفتُ: «هل ترغبين في اختباري؟».

- جون فيتزجرالد كينيدي.

- هذا بديهي.

- وهل تنتظر القيامة لتُجيب؟

- لا، كانت تلك كلماته الأخيرة. فقد قال أحدهم: «سيدي الرئيس، لا يمكنُك الإنكار أنّ دالاس تحبُّك»، فأجاب كينيدي: «هذا بديهي»، ومن ثمّ اغتيل بِعد ذلك.

ضحكت ألاسكا وقالت: «يا إلهي، هذا فظيع. ربما عليّ ألّا أضحك، لكنني سأفعل»، ومن ثمّ ضحكت ثانيةً: «حسنًا يا اختصاصيّ الكلمات الأخيرة. اسمعْ». ومن ثمّ راحت تبحثُ في حقيبة الظهر المليئة التي كانت تحملها، وأخرجت منها كتابًا. وتابعَت: «غبرييل غارسيا ماركيز، الجنرال في متاهته. إنها إحدى رواياتي المفضّلة، وتتحدّث عن سيمون بوليڤار». لم أكُن أعرف سيمون بوليڤار، لكنّها لم تُتِح لي الوقت للسؤال.

«إنها روايةٌ تاريخيّة، لذلك، لا أجزمُ بصحّتها، ولكن في الكتاب، تردُ كلمات بوليڤار الأخيرة، هل تعرفها؟ لا، لا تعرفها. لكنّني سأقرأها لك، أيها Senior، صاحبُ كلمات الوداع الأخيرة».

أشعلت سيجارة، ومجّتها طويلًا حتى خِلتُ أنّها ستحترق بأكملها دفعةً واحدة وبنفَسٍ واحد. ومن ثمّ نفثَت الدخان، وبدأت القراءة بصوتٍ مرتفع:

- تلك اللحظة، كان سيمون بوليڤار، مصدومًا بالاكتشاف المرير، أنّ السباق الطائش بين مصائبه وأحلامه قد بلغ نهايته، ولم يبقَ غير الظلام. قال: «اللعنة»، وندّت عنه تنهيدةٌ عميقة، ومن ثمّ أردف، «كيف أخرجُ من هذه المتاهة؟».

كنتُ عمومًا أُدركُ كنهَ العبقريّة الكامنة في الكلمات الأخيرة لشخصٍ ما عندما أسمعها، فقطعتُ على نفسي عهدًا بالحصول على السيرة الذاتية لهذا المدعو سيمون بوليڤار. كانت كلماته الأخيرة تلك بديعةً، لكنّني لم أفهمها. سألتُها: «ما هي تلك المتاهة؟».

كانت اللحظة لا تقلُّ مثاليّةً عن أية لحظةٍ أخرى للقول بأنّ ألاسكا كانت صبيّةً فاتنة. جالسةً بجانبي في الظلام، كان جسدُها يفوح بشذا الرطوبة والشمس والفانيليا، وفي ضوء الهلال الضئيل، كنتُ بالكاد أرى ملامحها المظلّلة، إلّا عندما تمسحُ شعلة سيجارتها المحترقة وجهَها بضوءٍ أحمر شاحب. ولكن حتى في الظلام، كنتُ أرى عينيها، زمرُّدتان وحشيّتان. كانت عيناها من النوع الذي يجعلك تتبعها كالأعمى مهما فعلت وأينما حلّت. لم تكن جميلة فحسب، بل مثيرة، بصدرها الذي يشدُّ على قميصها القطنيّ، وانحناءة ساقيها النوّاستين ذهابًا وإيابًا تحت الأرجوحة، وزحّافتاها اللتان تتدلّيان من أصابع قدميها، وأظافرها المطليّة

بأزرق كهربائي. تمامًا، بعد اللحظة التي فصلت بين سؤالي عن المتاهة وإجابتها، أدركتُ أهميّة آلاف المنحنيات التي يمرُّ بها الجسدُ الأنثويُّ من مكانٍ إلى آخر، من قوس قدمها إلى كاحلها، إلى ساقها، إلى وركها، إلى خصرها، إلى نهديها، إلى عنقها، إلى انحدار أنفها المستقيم، إلى جبينها، وكتفها، وظهرها، وردفيها... بالطبع، كنتُ قد لاحظتُ المنحنيات الأنثوية من قبل، لكنّني لم أفهم حتى تلك اللحظة بالذات ما الذي كانت تعنيه بالضبط.

كان ثغرها قريبًا جدًا منّي، فشعرتُ بأنفاسها التي كانت أكثر دفئًا من حرارة الهواء، عندما قالت: «هنا يكمن السرُّ، أليس كذلك؟ هل المتاهة هي الحياة أم الموت؟ ممّ يحاول الهرب، من العالم أم من نهايته؟» انتظرتُ حتى تُكملَ كلامها، ولكن بعد برهة، بدا بديهيًّا أنها كانت تنتظر جوابًا.

قلتُ أخيرًا: «لا أعرف. هل قرأتِ حقًّا كلّ تلك الكتب التي تحتفظين بها في غرفتك؟».

قالت ضاحكةً: «يا إلهي، لا. ربما أنني قرأتُ ثلثَها. لكنّني أنوي قراءتها كلّها. أسمّيها مكتبة حياتي. كلّ صيف، مذ كنتُ طفلةً صغيرة، كنتُ أرتادُ مبيعات الأشياء القديمة التي لم يعُد الناس يحتاجون إليها، وأشتري كلّ الكتب التي تبدو مثيرةً للاهتمام. لذلك، لديّ دائمًا مادّة للقراءة. ولكن، ثمّة أشياء كثيرة تشغلُنا في الحياة، كتدخين السجائر، وممارسة الحب، والأراجيح التي يجب أرجحتها. عندما أصبحُ عجوزًا مُملّة، سيكون لديّ المتّسع من الوقت للقراءة».

قالت إنّني كنتُ أُذكِّرُها بالكولونيل عندما جاء إلى كالڤر كريك. كانا معًا في العام الأول، وكلاهما حاصل على منحةٍ دراسيّة. بحسَب

كلماتها، كانا يتقاسمان الشغف بالكحول والمقالب. عندما سمعتُ هاتين المفردتين؛ «الكحول» و«المقالب»، تساءلتُ بشيءٍ من القلق إن لم يكونا، أي الكولونيل وألاسكا، ما تُطلق عليه والدتي اسم «العِشرة السيئة»، ولكن كعِشرة سيّئة، كانا رائعَين. أشعلَت سيجارة جديدة من عقب سيجارتها السابقة، وقالت إن الكولونيل على الرغم من ذكائه، كان ساذجًا لا يعرف شيئًا عن الحياة عندما وصلَ إلى كالڤر كريك.

قالت مبتسمةً: «تخلّصتُ من المشكلة على وجه السرعة. ففي شهر تشرين الثاني/نوفمبر، وجدتُ للكولونيل صديقته الأولى، فتاة لطيفة وجميلة، اسمها جانيس. لكنّه تركَها بعد شهرٍ واحدٍ فقط، بحجة أنّها أسبوعيّة وثريّة جدًا مقارنةً بالفقر الذي يجري مع الدم في عروقه، ولكن دعنا من هذا الهراء. تلك السنة، رتّبنا مقلبَنا الأوّل، فقد فرشنا أرض قاعة الصف رقم 4 بطبقةٍ من كرات البِلي الصغيرة، لكننا بالطبع، أحرزنا تقدُّمًا لا بأس به منذ ذلك الحين». ومن ثمّ غرقت في الضحك. هكذا حصل تشيپ على لقب الكولونيل، بصفته المخطِّط الاستراتيجي لمقالبهما، وألاسكا كانت دائمًا نفسها، القوة الخلاقة الملهمة لشراكتهما.

قالت: «أنت ذكيٌّ مثله، سوى أنّك أكثر هدوءًا، أقلّ ثرثرةً، وأكثر وسامةً منه، ولكن دعك من هذا الكلام، فأنا مغرمةٌ بصديقي».

قلتُ: «نعم، أنت أيضًا لا بأس بك»، وقد غمرَتني مجاملتُها. «لكنني لم أقل هذا الكلام، لأنني مغرمٌ بصديقتي. أوه، مهلًا، ليس عندي صديقة».

ضحكَت ومن ثمّ قالت: «لا عليك يا بدين. إنّ أسهل ما يمكنُني فعله من أجلك، هو إيجاد الصديقة. فلنعقد اتفاقًا: تحاولُ أنت اكتشاف ماهيّة المتاهة وكيفيّة الخروج منها، وأنا أتدبّرُ أمرَ غراميّاتك».

«موافق». ومن ثمّ تصافحنا.

بعد ذلك، مشينا جنبًا إلى جنب حتى دائرة مساكن الطلاب. كانت الزيزان الليلية تغني لحنها الرتيب، كما في فلوريدا تمامًا. وبينما كنّا نتلمّس طريقنا في الظلام، التفتت ألاسكا نحوي وسألتني: «عندما تسير ليلًا، ألا يحدثُ لك أن تشعر بالفزع، وكل ما تتمناه هو الركض حتى تصل إلى البيت، ولو كان ذلك سخيفًا ومُخجِلًا؟».

بدا الاعترافُ بهذا الشعور أمام شخصٍ غريبٍ تمامًا مسألةً شخصيّةً وحميمةً جدًا، لكنّني أجبتُها: «نعم، بكلّ تأكيد».

ظلّت هادئةً لبرهة من الزمن، ومن ثمّ فجأةً، أمسكَت بيدي وهمسَت، «أركض، أركض، أركض»، وانطلقت تجرُّني خلفها.

قبل مئةٍ وسبعة وعشرين يومًا

في وقتٍ مبكّرٍ من بعد ظهر اليوم التالي، ألصقتُ خلف الباب صورة لوحةٍ لفان غوغ، فيما كنتُ أقلِّص جفنيّ لطرد العرق المتسرِّب إلى عينيّ. وبينما كنت جالسًا على الكنبة، كان الكولونيل يقيِّم استواء المُلصق، ويجيبُ عن سيل أسئلتي بشأن ألاسكا. ما هي قصتها؟ «إنها من مدينةٍ صغيرةٍ تُدعى ڤاين ستيشن. يمكنُك المرور من أمامها من دون أن تلحظ وجودها، وبحسب ما فهمته، فهذا خيرٌ لك. عندها صديقٌ في جامعة ڤاندربيلت، يتمتّع بمنحة دراسية، ويعزف على الغيتار في إحدى الفرق الموسيقية. لا أعرف الكثير عن أُسرتها». وهل تحبُّه حقًا؟ «أفترض ذلك، فهي لم تخُنه قط، وهذا بحدّ ذاته يُعتبر سابقةً». وهكذا دواليك، طوال بعد الظهر، لم أكن قادرًا على الاهتمام بأي شيءٍ آخر، لا بمُلصق فان غوغ، ولا بألعاب الفيديو، ولا ببرنامجي الدراسيّ الذي جلبه النسر ذلك الصباح، وقدّم نفسه مستغلًا المناسبة:

«سيد هالتر، أهلًا بك في كالڤر كريك، حيث يمكنك التمتُّع بقدرٍ كبير من الحرية، ولكن إذا تجاوزت الحدود، سيؤسفني جدًا أن أقول لك وداعًا».

ومن ثمّ حدّق إليّ بطريقةٍ لم أتبيّن إن كانت جديّة أو ماكرة على نحو جدّي. إن ألاسكا تصفُ نظرتَه تلك بنظرة الهلاك. قال الكولونيل، بعد ذهاب النسر: «وعندما تراها ثانيةً، اعتبرْ نفسَك مطرودًا من المدرسة».

بينما كنتُ أبتعدُ عن الملصَق الذي لم يكن مستويًا تمامًا قال الكولونيل: «حسنًا يا بدين، كفى حديثًا عن ألاسكا في الوقت الحاضر. وفق حساباتي، هنالك اثنتان وتسعون فتاةً في هذه المدرسة، وكلُّ واحدةٍ منهنّ أقلّ جنونًا منها، وبالمناسبة، أذكّرُك بأنّ لديها حبيبًا. أنا ذاهب لتناول الغداء، فوجبة اليوم، بوفريدو». خرج من الغرفة وترك الباب مفتوحًا. وجدتُ نفسي كالأحمق، ونهضتُ لكي أغلق الباب. كان الكولونيل قد اجتاز نصف مساحة العشب الدائريةّ عندما استدار صائحًا: «يا إلهي، أتأتي أم ماذا؟».

بإمكانك قول أشياء كثيرة سيئة عن ألاباما، ولكن لا يمكنُك القول إنّ أهلَها يخشون المأكولات المقليّة. في خلال ذلك الأسبوع الأوّل في كريك، قدّمت الكافتيريا، دجاجًا مقليًّا، ولحم بقر مقلي، وفطائر مقليّة محشوّة بالبامياء، التي أرّخَت لرحلتي الأولى في عالم الخضار المقليّة اللذيذ. ولو أنّ الكافتيريا قدّمت أوراق الخسّ مقليّةً، لما فاجأني ذلك. ولكن لا شيء كان يضاهي البوفريدو، وهو من ابتداع مورين، طباخةُ كالڤر كريك، البدينة طبعًا. يتألّف الطبقُ من رقائق دقيق الذرة المقليّة المحشوّة بالفاصولياء، التي تثبتُ بالدليل القاطع أنّ كلّ غذاءٍ يُغطّسُ في الزيت المغلي يكبرُ حجمُه. كنتُ أجلس في الكافيتيريا إلى طاولة مستديرة مع

الكولونيل وخمسة فتيةٍ آخرين لا أعرفهم، ولكن عندما عضضتُ رقيقة البوفريدو المقرمشة، وتذوّقتُ لقمتي الأولى منها، دخلتُ في حالةٍ من النشوة القصوى. كانت والدتي طباخةً جيدة، لكنّني أردتُ على الفور دعوة مورين إلى البيت في عيد الشكر.

قدّمني الكولونيل إلى الفتية الجالسين معنا حول الطاولة الخشبية المتصدِّعة قائلًا، إليكم «البدين»، وقدّمهم إليّ، لكنّني لم أحفظ سوى اسم تاكومي الذي ذكرَته ألاسكا يوم أمس. فتىً ياباني نحيل، أطول من الكولونيل ببضع سنتيمترات، ويتكلّم وهو يمضغ الطعام، عكسي تمامًا، فقد كنتُ أتذوّق عل مهل كلّ لقمةٍ من فطيرة الفاصولياء المقرمشة.

قال تاكومي: «يا إلهي، لا شيء يضاهي مشاهدة فتىً يأكل البوفريدو للمرّة الأولى».

لم أشارك في الحديث إلّا قليلًا، والسبب من جهة، هو أنّ أحدًا لم يوجّه لي أيّ سؤال، ومن جهةٍ أخرى، لأنني لم أكن أرغب في شيءٍ سوى التهام كلّ ما أستطيع التهامه من فطائر. لكنّ تاكومي، لم يكن بمثل تحفُّظي، كان يستطيع العضّ والمضغ والابتلاع، وهو يتكلّم. وقد أثبت ذلك.

دار حديث الغداء حول قصة الفتاة التي تقاسمَت الغرفة مع ألاسكا، ماريا، وحبيبها پول، الذي كان أسبوعيًّا. علمتُ أنهما طُردا من المدرسة في الأسبوع الأخير من السنة الدراسية الفائتة، بسبب ما كان الكولونيل يُسمّيه «الثلاثية القاتلة». لقد قُبض عليهما متلبّسَين بثلاث من المخالفات دفعةً واحدة، وكلّ مخالفةٍ منها عقوبتها الطرد من كالڤر كريك. فعندما داهمَهما النسر، كانا معًا في السرير عاريين تمامًا («ممارسة الجنس»، مخالفة رقم 1)، كانا ثمِلَين («تعاطي الكحول»، رقم 2)، وكانا يدخنان

سيجارة حشيش («تعاطي المخدرات»، رقم 3). ثمّة إشاعة تقول إنّ أحدهم وشى بهما، وبدا أن تاكومي كان مصمِّمًا على اكتشاف الواشي، إلى الدرجة التي جعلته يصرخُ وفمه مليء بالبوفريدو.

قال الكولونيل: «كان پول فتىً أحمق، لم أكن لأشي بهما، لكنّ الفتاة التي تنام مع أسبوعيٍّ مثل پول، يتبختر في سيارة جاغوار، تستحقّ ما يحدث لها».

أجاب تاكومي على نحوٍ شبه مفهوم بفمه المحشو بالطعام: «يا رجُل، ثديقتُك أيزًا»، ومن ثمّ ابتلع لقمته، وأكمل، «أسبوعيّة».

عقّب الكولونيل ضاحكًا: «صحيح. لسوء حظي، لا أستطيع الإنكار، لكنها أقلّ حماقةً من بول».

قال تاكومي مع ابتسامة ماكرة: «ليس تمامًا». ضحك الكولونيل ثانيةً، واستغربتُ عدم دفاعه عن صديقته. فلم يكن يهمُّني أن تكون صديقتي عوراء بلحية، تقود سيارة جاغوار، ولكنتُ لها ممتنًا ما دامت تسمح لي بتقبيلها ومداعبتها.

ذلك المساء، عندما جاء الكولونيل إلى الغرفة رقم 43، ليأخذ السجائر، ناسيًا أنها تقنيًا كانت سجائري، لم أنزعج من عدم دعوته إلي لمرافقته. ففي مدرستي السابقة، عرفتُ الكثيرين ممّن اعتادوا على كره هذه الفئة أو تلك من الأشخاص، فالكسالى كانوا يكرهون المجتهدين، والعكس بالعكس، وكنت أعتبر ذلك مضيعةً للوقت. لم يخبرني الكولونيل أين قضى فترة بعد الظهر، ولا أين سيقضي المساء. لكنّه عندما خرج، أغلقَ الباب خلفَه، فاستنتجتُ أنه لم يكن مرحّبًا بحضوري معه.

بالمحصِّلة، لم يكن ذلك سيئًا، فقد أمضيتُ الليل في تصفُّح مواقع الإنترنت، (لا مواقع إباحية، أُقسمُ على ذلك) وفي قراءة الأيام الأخيرة، كتابٌ يتحدّثُ عن ريتشارد نيكسون وفضيحة ووترغيت. ولوجبة العشاء، قمتُ بتسخين فطيرة بوفريدو أخرجها الكولونيل خلسةً من الكافتيريا. ذكّرني ذلك بليالي فلوريدا، سوى أنّ الطعام هنا أفضل، والحرارة أسوأ بغياب التكييف. كما أنّ الاستلقاء على السرير والقراءة، منحاني شعورًا لذيذًا بالأُلفة.

قرّرتُ العمل وفق ما كنت واثقًا في أنّ والدتي قد تنصحُ به، أي الحصول على قدرٍ وافٍ من النوم قبل بدء يوم دراستي الأوّل. كانت حصة اللغة الفرنسية تبدأ في تمام الثامنة وعشر دقائق، وبما أنّني لم أكن بحاجة إلى أكثر من ثماني دقائق لارتداء ملابسي والسّير حتى قاعة الصف، ضبطت جرس المنبِّه على الساعة الثامنة ودقيقتين. أخذتُ دشًّا، وآويتُ إلى الفراش بانتظار أن يخلِّصَني النوم من حرارة الجو. عند حوالى الساعة الحادية عشرة، تبيّن لي أنّ المروحة الصغيرة المثبّتة على سريري قد تكون أكثر فاعليّة لو نزعتُ قميصي، وهكذا، نمتُ أخيرًا من دون غطاء، وبسروالي الداخلي فقط.

كان قرارًا ندمتُ على اتخاذه بعد بضع ساعات فقط، عندما أيقظتني يدان سميكتان كانتا تهزّانني بعنف. استيقظتُ على الفور، وانتصبتُ مذعورًا كالألِف في سريري، غير قادرٍ على فهم الأصوات التي كنتُ أسمعها من حولي، ولا سبب وجودها أصلًا. كم كانت الساعة بحق الجحيم؟ أخيرًا، كان ذهني صاحيًا بما يكفي بحيث سمعتُ: «هيا أيها الفتى. لا تُجبرْنا على ضربك، انهضْ». ومن ثمّ سمعتُ أحدهم من السرير العُلويّ: «اللعنة، انهضْ يا بدين». إذًا، فقد نهضتُ واستطعتُ أن أُميِّز بإبهام أشكال أشخاصٍ ثلاثة، لم أكن قد رأيتهم من قبل. أمسك بي اثنان

منهم من ذراعيّ وجرّاني خارج الغرفة. في أثناء ذلك، سمعتُ الكولونيل يهمهم: «أتمنى لك وقتًا ممتعًا. لا تقسو عليه كثيرًا يا كيڤن».

قادوني خلف المبنى بوتيرة متسارعة أقرب إلى الجري، ومن ثمّ عبَرنا ملعب كرة القدم. كنتُ أشعرُ بالعشب تحت قدميّ الحافيتين، ولكن بالحصى أيضًا، فتساءلت لماذا لم يُبدِ أحدهم الحدّ الأدنى من الكياسة، وينصحني بارتداء حذاء، ولماذا كنتُ في الخارج بسروالي الداخليّ فقط، وساقاي النحيلتان كسيقان الدجاج، معروضتان أمام العالم أجمع؟ عبرَت ذهني مئات الإهانات، على سبيل المثال: أُعرّفكم إلى الطالب الجديد، مايلز هالتر، المقيّد إلى عارضة مرمى كرة القدم، لا يرتدي غير سروالٍ داخليّ. تخيّلتهم يقودونني إلى الغابة، التي بدا أنّنا كنّا الآن نتّجه نحوها، حيث ينهالون عليّ ضربًا، لكي أبدو رائعًا في يومي الدراسيّ الأول. كنتُ معظم الوقت أُحدِّقُ إلى قدميّ، لسببين: الأوّل أنني لم أكن أريد رؤية الأشرار الثلاثة، والثاني أنني لم أكن أملك أدنى رغبةٍ في السقوط، لذا رحتُ أُراقب خطواتي محاولًا تجنُّب الأحجار الكبيرة. كان ذهني مشتتًا ويجتاحني الشعور بردّة الفعل الطبيعية في حالة الخطر، القتال أو الهرب، لكنّني كنتُ أعرف أنّ الخيارين لم ينفعا معي في السابق. داروا بي على طريق تؤدّي إلى الشاطئ الاصطناعي، عند ذاك، عرفتُ أنّ ما كان ينتظرني، مغطسٌ جيدٌ على الطراز القديم في البحيرة، فهدّأتُ من روعي. كنتُ قادرًا على تحمُّل ذلك.

عندما وصلنا إلى الشاطئ، أمَروني بوضع ذراعيّ مُسبَلتين على جانبيّ، وانحنى أشدُّهم بأسًا لالتقاط لفتي شريطٍ لاصقٍ كانتا على الرمل. لفّوني كالمومياء، بذراعيّ المُسبلَتين مثل جنديٍّ في وقفة استعداد، من كتفيّ حتى معصميّ. بعد ذلك، طرحوني أرضًا، لكنّ نعومة الرمل خفّفت من شدّة السّقطة على الرغم من ارتطام رأسي بالأرض. أمسكني اثنان من

ساقيّ المضمومتَين، بينما قرّب الثالثُ، الذي أعتقد أنه كان المدعو كيڤن، وجهه المربّع بفكّيه القويّين من وجهي، إلى الحدّ الذي جعلني أشعر بوخز ذوائب شعره المطليّ بمادةٍ مُقَسِّية، وقال: «هذه هدية للكولونيل. كان عليك ألّا تصادق هذا الوغد». ومن ثمّ لفّوا ساقيّ بالشريط اللاصق من الكاحل حتى أعلى الفخذ. كنتُ أشبه بمومياء محنّطة فضيّة اللون. قلتُ لهم: «يا شباب، أرجوكم لا تفعلوا ذلك»، قبل أن يكمّوا فمي لمنعي من الكلام، ومن ثمّ رفعوني عن الأرض ورموني في البحيرة.

رحتُ أغرق، وأغرق، ولكن بدلًا من الشعور بالذعر أو أي شيء آخر، كنتُ أقول في نفسي إنّ جُملة «يا شباب، أرجوكم لا تفعلوا ذلك»، ستكون كلمات أخيرة رهيبة. لم تلبث معجزة النوع البشري أن تحقّقت، وهي قدرتنا على العوم، وشعرت بجسدي يصعَدُ ليطفو على صفحة الماء، تلوّيتُ وتقلّبتُ باذلًا قصارى جهدي بحيث يستطيع أنفي تنشُّق هواء الليل الساخن، وتنفّستُ. لم أكن ميتًا ولا على وشك الموت.

حسنًا، قلتُ في نفسي، لم يكن ذلك بتلك الفظاعة.

مع ذلك، بقي عليّ التعامل مع تفصيلٍ صغير، وهو الوصول إلى الضفة قبل شروق الشمس. في البداية، كان عليّ أن أُحدِّد موقعي بالنسبة إلى الشاطئ. كنتُ عندما أُحني رأسي كثيرًا، أشعرُ بجسدي يكاد ينقلب، ومن بين الميتات المزعجة الكثيرة، كان الموت «مقلوبًا على بطني، رأسي إلى الأسفل، وبالسروال الداخلي الأبيض المبلّل» يتصدّر رأس القائمة. إذًا، فقد رفعتُ رأسي نحو السماء، ورحتُ أمطُّ عنقي نحو الخلف، إلى أن باتت عيناي مغمورتَين بالماء تقريبًا، عندما تمكّنتُ من رؤية تلك الضفة التي كانت خلف رأسي تمامًا، على مسافةٍ لا تتجاوز الثلاثة أمتار. بدأت أسبح مثل حوريةٍ فضيةٍ مقطوعة الذراعين، مستخدمًا وركيّ فقط حتى

شعرتُ بمؤخرتي تصطدم بقعر البحيرة الموحل. دُرت على نفسي ثلاث دورات مستعينًا بحوضي وصدري إلى أن وصلتُ إلى الضفة حيث كانت تنتظرني منشفة خضراء مهترئة. كانوا قد تركوا لي منشفة. يا للّفتة الطيبة.

تسرّب الماء تحت الشريط اللاصق ففقد من انكماشه على جلدي، لكنّه كان ملفوفًا على ثلاث طبقات في بعض الأماكن، ما اضطرّني إلى التلوّي مثل سمكة خارج الماء. أخيرًا ارتخى بما يكفي في مكان لكي أتمكّن من تحرير يدي اليسرى ونزع الشريط بالكامل.

عقدتُ المنشفة الملوثة بالرمل حول خصري. لم أكن أرغب في العودة إلى الغرفة ورؤية تشيپ، فلم تكن لديّ أدنى فكرة عمّا كان يعنيه كيڤن. فلنفترض أنهم كانوا ينتظرونني هناك بغية تسوية وضعي بشكل نهائي. لذا، ربما كنت أحتاج إلى أن أُثبت لهم، أنّني فهمتُ الرسالة، وأنّه شريكي في الغرفة، وليس صديقي. على كل حال، لم أكن أشعر بأي ودٍّ نحو الكولونيل. «أتمنّى لك وقتًا ممتعًا»، هذا ما قاله. نعم، قلتُ في نفسي: «معك حق»، لقد كانت متعةً حقيقية.

إذًا، فقد فضّلتُ الذهاب إلى غرفة ألاسكا. لم أكن أعرف كم كانت الساعة، لكنّني رأيتُ خيط ضوءٍ ضعيف يتسرّب من تحت بابها، فطرقتُه بنعومة.

أجابت: «نعم»، ودخلتُ إلى الغرفة مبلّلًا وملوّثًا بالرمل، أرتدي منشفةً وسروالًا داخليًا مبلّلًا أيضًا. بالطبع، لم تكن الحالة المثاليّة لمقابلة أكثر الفتيات إثارةً على هذا الكوكب، لكنّني تصوّرتُ أنّها قد تستطيع شرح ما حدث للتوّ.

وضعت كتابها جانبًا، ونهضت خارج السرير، تلفُّ غطاءً حول كتفيها. لوهلة، بدَت لي قلقةً. بدَت الفتاة التي التقيتها بالأمس، تلك

الفتاة التي قالت إنني كنتُ وسـيمًا وأفيـض حيويّةً وعبثيّةً وذكاءً. ومن ثمّ ضحكَت.

«أعتقدُ أنك ذهبت للسباحة في البحيرة، أليس كذلك؟» قالت ذلك بمكرٍ عفويٍّ ترك لديّ انطباعًا بأنّ الجميع كانوا يعرفون، وتساءلتُ لماذا اتفقت المدرسة بأكملها مسبقًا على إغراق مايلز هالتر. لكنّ ألاسكا كانت تحبّ الكولونيل كثيرًا، وفي غمرة الارتباك، اكتفيتُ بالنظر إليها بعينٍ خاوية، من دون أن أعرف حتى، عن أيّ شيءٍ أسألُها.

قالت: «كُفّ عنّي بربّك، دعني أقول لك شيئًا، هنالك أشخاص لديهم مشاكل حقيقيّة. أنا مثلًا، لديّ مشاكل حقيقيّة. لستُ أمّك، لذا، تمالكْ نفسَك يا صغيري».

تركتُها من دون أن أنبس بكلمةٍ واحدة، وذهبتُ إلى غرفتي. دخلتُ وصفقتُ الباب خلفي موقِظًا الكولونيل، ومن ثمّ اتجهت إلى غرفة الحمام مباشرة. كنتُ أريد الاستحمام للتخلُّص من الأعشاب البحرية ورائحة البحيرة العالقة في جسدي، لكنّ خيط الماء الضئيل الذي كان يخرج من مقبض الدشّ، جعلَني أخفقُ في مساعيّ بشكلٍ استعراضيّ. ومن ثمّ رحتُ أتساءل، لماذا تكرهني ألاسكا، ويكرهني كيڤن، والفتية الآخرون؟ بعد الاستحمام، جفّفتُ نفسي، وعدتُ إلى الغرفة لأجد شيئًا أرتديه.

قال: «ماذا دهاك؟ لماذا تأخرت؟ هل تهتَ في طريقك إلى العودة؟»

قلت: «لقد قالوا إنّك كنتَ السبب»، وخانتني نبرة صوتي المستاءة. «قالوا إنّ عليّ الابتعاد عنك وعدم مصادقتك».

قال الكولونيل: «ماذا؟ لا أُصدِّق، فهذا يحدث للجميع، حتى أنا، حدث لي ذلك. لقد رموك في البحيرة. حسنًا، يكفيك أن تسبح للخروج من الماء، وتعود إلى البيت».

قلتُ بهدوء، وأنا أرتدي سروالًا قصيرًا من الجينز تحت منشفتي: «لم أكن أستطيع السباحة للخروج من الماء، لقد قيّدوني بشريط لاصق. لم أكن أستطيع التحرُّك حتى، حقيقةً».

قال وهو يقفز خارج سريره محملقًا فيّ عبر الظلام: «مهلًا، مهلًا، قيّدوك بشريطٍ لاصق؟ كيف ذلك؟» رحتُ أصفُ له ما فعلوا. وقفتُ كالمومياء، بقدميّ المضمومتين ويديّ المسبلَتين، وشرحتُ له كيف لفّوا الشريط حولي، ومن ثمّ تهالكتُ على الكنبة.

قال صارخًا: «اللعنة، كان من المحتمل أن تغرق! لم يكن يُفترض بهم سوى أن يرموك في الماء بسروالك الداخلي ويلوذوا بالفرار! تبًا، ما الذي دهاهم؟ من هما الآخران، غير كيڤن ريتشمان؟ هل تتذكّر وجهيهما؟».

- نعم، أعتقد ذلك.

- لماذا تصرّفوا هكذا بحق الجحيم؟

- هل فعلتَ شيئًا أساء لهم؟

- أبدًا، لكنني أعدُك بأنني الآن سأفعل. لن يُفلتوا بهذه البساطة.

- لم يكن الأمر مأساويًا إلى هذا الحدّ، والدليل أنّني الآن بخير.

- كان من المحتمل أن تموت.

- من المحتمل، أعتقد، لكنّني لم أمُت.

- حسنًا، ما رأيك في أن أذهب إلى النسر غدًا، وأخبره بما حدث؟

أجاب: «إيّاك»، وهو ينحني ليلتقط عن الأرض شورته المجعّد، ويخرج من أحد جيوبه علبة سجائر. أشعل سيجارتين ومدّ لي إحداهما. دخّنتُها كاملةً. ومن ثمّ تابع: «لن تذهب إلى النسر، فهنا، لا تُحَلّ المشاكل بهذه الطريقة، وعلاوةً على ذلك، لا أعتقد أنك ترغب حقًا في أن يذيع الصيت

بأنك أحد الوشاة. لكننا سنهتمّ بأمر هؤلاء الأوغاد، أعدُك بذلك يا بدين. سوف يندمون على فعلتهم وتعرُّضهم لأحد أصدقائي».

وإذا كان الكولونيل يظنُّ أنّ وصْفَه لي كأحد أصدقائه سيجعلُني أساندُه وأقفُ إلى جانبه، فقد كان على حق. قلتُ: «لم تكن ألاسكا لطيفةً معي الليلة». ومن ثمّ انحنيت على أحد الأدراج الفارغة، وفتحتُه لأستعملَه كمنفضة سجائر.

- لقد نبّهتُك. إنها مزاجيّة.

تلك الليلة، آويتُ إلى الفراش بقميصي وشورتي وجوربي. لم تكن تهمُّني الحرارة الخانقة، فقد قرّرتُ النوم بكامل ملابسي ما دمتُ في كالڤر كريك، ولأول مرةٍ في حياتي، أدركتُ ماهية الشعور بالخوف والقلق الذي ينتابُ المرءَ عندما يعيشُ في مكانٍ حيث لا يدري ما الذي يمكن أن يحدث له ومتى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

قبل مئة وستة وعشرين يومًا

صاح الكولونيل صباح اليوم التالي: «هذه المرّة، إنها الحرب»، مِلتُ ونظرتُ إلى ساعة المنبِّه، 7:52. كانت اللغة الفرنسية حصتي الدراسيّة الأولى في كالڤر كريك، وتبدأ بعد ثماني عشرة دقيقة. رمشت مرّات عدّة قبل أن أرى الكولونيل، الذي كان واقفًا بين الكنبة ومنضدة القهوة، ويمسكُ من الشريط حذاءه الرياضي المستهلك الذي كان ذات يوم أبيض اللون. حدّقنا ببعضنا مطوّلًا، ومن ثمّ شيئًا فشيئًا، أخذت تزحفُ على وجهه ابتسامةٌ صفراء.

- لقد كان ما فعلوه ذكيًا، عليّ أن أُقرّ بذلك.

- وماذا فعلوا؟

- قبل أن يوقظوك ليلة أمس، أظنُّ أنهم بالوا في حذائي.

قلتُ محاولًا كتم ضحكتي: «هل أنت متأكد من ذلك؟».

قال وهو يمدُّ حذاءه نحوي: «هل تريد أن تتأكّد بنفسك؟ تصوّر أنني شممتُه، ونعم، أنا متأكد. ثمّة شيءٌ أعرفه جيدًا ولا أشكُّ في صحته أبدًا، وهو عندما تدوس قدمي بول رجلٍ آخر. فكما تقول والدتي دائمًا: «تظنّ أنك مشيتَ على الماء، ولكنّ الحقيقة، هي أنّ حذاءك ممتلئ بالبول». ومن ثمّ أضاف، أشّر على هؤلاء الأوغاد إذا رأيتَهم اليوم. يجب أن أعرف لماذا يحقدون عليّ إلى هذا الحدّ. بعد ذلك، يجب أن نبدأ بالتفكير في كيفيّة تدمير حياتهم الصغيرة البائسة».

عندما استلمتُ نظام المدرسة الداخليّ هذا الصيف، ولاحظتُ أنّ الفقرة المتعلّقة بالهندام لم تكن تحتوي إلّا على كلمتين، متواضع وغير متكلِّف، لم يخطر لي أنّ الفتيات قد يحضرن إلى الصف نصف نائمات، بشورتات النوم القطنية والزحّافات. سيكون ذلك، بلا شكّ، متواضعًا، وغير متكلِّف.

كان لدى الفتيات اللواتي حضرن بثياب النوم (على الرغم من تواضعهن)، شيء لا أعرف كنهه بالضبط، باستطاعته أن يجعل حصّة اللغة الفرنسية في الساعة الثامنة وعشر دقائق قابلةً للتحمُّل، لو لم أكن أجهل تمامًا ما الذي كانت تقوله مدام أومالي. كيف تقول «يا إلهي، لم أكن مؤهّلًا للانتقال إلى المستوى الثاني». باللغة الفرنسية؟ فالمستوى الأوّل الذي درستُه في فلوريدا، لم يُحضّرني بما يكفي لمتابعة دروس مدام أومالي، التي انتقلَت بلا مقدِّمات من المجاملات على غرار «كيف كانت عطلتكم الصيفية؟» إلى الغوص مباشرةً في ما يُسمّى «الماضي المركّب»، وهو على ما يبدو، أحد أزمنة تصريف الفعل. كانت ألاسكا تجلس قبالتي تمامًا في أحد المقاعد التي جرى توزيعها على شكل دائرة، لكنها لم

ترمقني بنظرةٍ واحدةٍ طوال الحصة، وذلك على الرغم من عدم اكتراثي لأي شيءٍ آخر سواها. لعلّها كانت ما تزال غاضبة، ولكن، يا لذكاء طريقتها في الكلام عن المتاهة مساء أمس. ويا لجمال ثغرها الذي لم تتوقّف عن رفع زاويته اليمنى، كما لو كانت تتحضّرُ للابتسام، أو كما لو كانت قد أتقنَت تقليد النصف الأيمن من ابتسامة الموناليزا الفريدة.

من غرفتي، بدا جمهور الطلاب طيِّعًا ليِّن العريكة، لكنّه كان يسحقُني في منطقة الصفوف الأربعة عشر، التي تطلُّ جميعها على البحيرة، وتتوزّع في مبنىً واحدٍ طويل يقع خلف دائرة مباني السكن. كان الرصيف الذي يمتدُّ على طول المبنى يعجُّ بالفتية والفتيات من الطلاب، (على الرغم من عدم امتلاكي لحسِّ الاتجاه، لم أجد صعوبةً في الانتقال من قاعة اللغة الفرنسية رقم 3، إلى قاعة الرياضيات رقم 12) مع ذلك، طوال النهار، لم يبارحني الشعورُ بالضيق. لم أكن أعرف أحدًا، ولم أكن قادرًا حتى على تصوُّر الأشخاص الذين ينبغي لي أن أحاول التعرُّف إليهم، هذا بالإضافة إلى صعوبة الدروس منذ اليوم الأول. لقد حذّرني والدي قائلًا إن عليّ أن أجتهد، وقد أدركتُ الآن أنه كان على حق. كان الأساتذة جدّيين وأذكياء، ومعظمهم يحملُ شهادة الدكتوراه في اختصاصٍ ما، لذلك، شعرتُ بارتياحٍ عظيم، عندما رنّ الجرسُ معلنًا موعد الدرس الأخير قبل الغداء: ديانات العالم، وهو مَعلَمٌ بقيَ من الفترة التي كانت فيها كالڤر كريك مدرسةً مسيحيةً للذكور فقط، ومادّةً إلزاميّةً من البرنامج الدراسيّ لصفيّ الحادي عشر والبكالوريا. لا أعرف لماذا بدا لي درس تاريخ الأديان مادّةً سهلةً يمكنُني أن أنال فيها الدرجة العليا من دون عناءٍ يُذكر.

كانت تلك الحصة الوحيدة التي لم تكن فيها طاولاتُ الطلابِ موزّعةً على شكل مربّعٍ أو دائرة. ولكي لا أظهر بمظهر الطالب المجتهد، جلستُ

في الصف الثالث بتمام الساعة 11:03، أي قبل بدء الدرس بسبع دقائق، وذلك لأنني كنتُ أحرصُ على الالتزام بدقة المواعيد من جهة، ومن جهة أخرى، لم أكن أعرف أحدًا أثرثرُ معه في الممرّ. بعد وقتٍ قصير، جاء الكولونيل رفقة تاكومي، وجلسا بجانبي.

قال تاكومي: «لقد سمعتُ بما حدث لك ليلة أمس». ومن ثمّ أضاف: «ألاسكا غاضبةٌ جدًا».

قلتُ مُستغربًا: «عجيب، نظرًا لبشاعة التصرُّف الذي صدر عنها ليلة أمس».

هزّ تاكومي رأسه. «صحيح، لكنّها لم تكن تعرف القصة بأكملها. والناس مزاجيون يا صديقي. عليك أن تتكيّف مع ذلك. فقد كان من المحتمل أن تقع على أصدقاء أسوأ من ـــــ».

قاطعه الكولونيل قائلًا: «كفاك تحليلات نفسية تعيسة دكتور فيل ماكغرو. دعنا نتكلّم عن خطة الهجوم المعاكس». كان الطلاب قد بدأوا يدخلون إلى قاعة الصف، فانحنى الكولونيل، وهمس لي: «إذا رأيتَ أيًّا منهم هنا، أخبرني بذلك، حسنًا؟ كل ما عليك فعله، هو أن تضع علامة X على أماكن جلوسهم». ومن ثمّ نزع من دفتره ورقةً، ورسم عليها مربعًا لكلّ طاولة.

راح الطلاب يتوافدون إلى القاعة، فرأيتُ الطويل، كيڤن، بشعره المنتصب على رأسه كالفرشاة. رمق الكولونيل بنظرة ازدراءٍ وهو يمرُّ من أمامه، لكنّه نسي أين كان يضع قدمه، فارتطم وركُه بإحدى الطاولات، فضحك الكولونيل. في أعقاب كيڤن، دخل الثاني الذي إمّا كان بدينًا وإمّا كان يمارس رياضة كمال الأجسام، مرتديًا سروالًا كاكيًّا وقميص بولو أسود اللون. ما إن جلسا حتى وضعتُ علامتيّ X على مكانيهما وأعدتُ الورقة إلى الكولونيل. في تلك اللحظة دخل العجوز.

كان يتنفّس ببطء ومشقة فاغرًا فمه على اتساعه. ومن ثمّ بدأ التقدُّم نحو منبره بخطىً صغيرة بحيث لم يكن عقبه يتجاوز أصابع قدمه. لكزني الكولونيل وأشار إلى دفتره حيث كتب: لا يملك العجوز إلّا رئة واحدة. لم أشكّك في ذلك. كانت أنفاسه المسموعة، شبه اليائسة، تُذكِّرُني بجدّي قبل وفاته بسرطان الرئة، وخُيِّل إليّ أنّه قد يسقط ميتًا قبل أن يصل إلى المنصّة.

قال بما يشبه الإعلان: «أنا دكتور هايد. بالطبع أنني أحمل اسمًا أوّل. ولكن بما يخصُّكم، فهذا الاسم، هو دكتور. يدفع ذووكم مبلغًا كبيرًا من المال، لكي تتمكّنوا من تحصيل العلم في هذه المدرسة، وأنتظر منكم مقابل هذا الاستثمار، أن تقرأوا ما أطلب منكم قراءته، وأن تواظبوا على الحضور. أمّا في خلال الدرس، فستصغون إلى ما أقول». بدا واضحًا أنّ الحصول على درجة A لن يكون سهلًا.

ومن ثمّ تابع: «هذه السنة، سندرس تقاليد ثلاثة أديان: الإسلام، والمسيحية، والبوذية. وفي السنة القادمة، سندرس ثلاثةً أخرى. في حصصي، أتكلّمُ معظم الوقت، وأنتم، تصغون معظم الوقت. قد تكونون أذكياء، لكنني ذكي منذ وقت أطول كثيرًا. أعرف جيدًا أن بعضكم لا يحب الدروس النظرية، ولكن لعلّكم لاحظتم، أنني لم أعُد شابًا. لو لم يكن حضوري معكم قصير الأمد، لأسعدَني أن أكرّس ما تبقّى لي من أنفاس في مناقشتكم بأدقّ مراحل تطور التاريخ الإسلامي. لذلك، يجب أن أتكلّم، ويجب أن تستمعوا لما أقول، فالغاية الأساسية من دراسة تاريخ الأديان، هي إدراك المعنى. ما معنى أن نكون بشرًا؟ وما هي أفضل طريقةٍ لتحقيق إنسانيتنا؟ لماذا جئنا إلى هذا العالم، وماذا سيحلُّ بنا عندما نغادره؟ باختصار، ما هي قوانين هذه اللعبة، وكيف نلعبها على أفضل نحوٍ ممكن؟».

دوّنتُ على دفتري هذه الجملة: «ما هي طبيعة المتاهة، وكيف نخرجُ منها؟» أدهشتني مقدرةُ هذا الأستاذ، فلم أكُن أُحبِّذُ النقاشات في أثناء الدرس، وأكرهُ الكلام والاستماع إلى الآخرين، وهم يتلعثمون محاولين صياغة أفكارِهم بطريقةٍ غامضة، لكي لا يظهروا بمظهر الأغبياء. كما كنتُ أكرهُ تلك اللعبة التي تتلخّصُ في محاولة تصوُّر ما يريد الأستاذُ سماعَه، وقوله له. أنا تلميذٌ هنا، إذًا، علِّمْني. وقد فعل. ففي الخمسين دقيقةٍ التي استغرقها الدرس، نجح العجوزُ في إثارة اهتمامي بالدين وأخذه على محمَل الجدّ. لم أكن متديِّنًا، ولكن وفق ما قاله الأستاذ، لا يهمّ أن تكون مؤمنًا أو ملحدًا، ما يهمُّ هو الدين نفسه، وهذا ينطبق على الأحداث التاريخية، إذ تبقى مهمّةً، عشتها شخصيًّا أم لم تعشْها. ومن ثمّ طلب منّا للغد، قراءة خمسين صفحة من كتابٍ عنوانه دراسات دينية.

بعد ظهر ذلك اليوم، أنهيتُ برنامجي بدرسين واستراحتين. كان برنامجنا اليوميُّ يضمُّ تسع حصص دراسية مدّة كلّ منها خمسين دقيقة للحصة الواحدة، ما يعني أنّ كلًّا منا كانت لديه ثلاث «فترات دراسية» يوميًا (ما عدا الكولونيل، الذي كان لديه حصة رياضيات إضافية، فقد كان عبقريًا في هذه المادة). كنتُ أنا والكولونيل نحضر درس العلوم الطبيعية معًا، حيث أشرت إليه الفتى الثالث الذي قيّدني بالشريط اللاصق الليلة الماضية. أخذ الكولونيل دفتره، وكتب في أعلى زاوية إحدى الصفحات، لونغويل تشيس، أسبوعيٌّ في صف البكالوريا، من أصدقاء سارة. غريب الأطوار. احتجتُ إلى دقيقةٍ كاملةٍ لكي أتذكّر أنّ سارة، كانت صديقة الكولونيل.

كنتُ أقضي أوقات فراغي في غرفتي محاولًا القراءة عن الدين. واكتشفتُ أنّ الأسطورة، لا تعني كذبة، بل تعني قصةً تقليدية تروي لك شيئًا يُضفي بعض الضوء على حياة الشعوب ومقدّساتها ونظرتها إلى

العالم. كان ذلك مثيرًا للاهتمام. كما تبيّن لي، نظرًا لأحداث الليلة الفائتة، أنني كنت متعبًا لدرجةٍ لا تسمح لي بإجهاد نفسي في الأساطير أو في أيّ شيءٍ آخر، فنمتُ على الأغطية معظم بعد الظهر، إلى أن أيقظني صوتُ ألاسكا التي كانت تغنّي في أذني اليسرى: «استيقظ، أيها البديييييييين الصغير!» ضممتُ كتاب الأديان على صدري مثل دبدوبٍ صغير، وقلتُ: «كان ذلك فظيعًا، ما الذي يجب عليّ فعله لكي لا يحدث ثانيةً؟».

قالت بصوتها الجهوريّ: «لا شيء! أنا فتاةٌ مزاجيّة. ولكن قُل لي، ألا تكره السيد هايد؟ إنه شخصٌ مُتعالٍ ومدّعٍ جدًا».

جلستُ وقلتُ: «أعتقد أنه عبقريّ»، أوّلًا، لأنّ ذلك كان صحيحًا، وثانيًا، كنتُ أريدُ مخالفتَها الرأي.

جلست على السرير وقالت: «أتنام دائمًا بكامل أناقتك؟».

- نعم.

قالت: «غريب، لم تكُن ترتدي الكثير من الملابس ليلة أمس». فاكتفيت بالتحديق إليها.

وأكملت: «لا تغضب يا بدين، أنا أمزح. عليك أن تكون قويًا هنا. لم أكن أعلم بفظاعة ما حدث، وأنا آسفة. سوف يندمون على ما فعلوا، ولكن عليك أن تكون قويًّا». ومن ثمّ ذهبَت. كانت تلك الكلمات تلخّص رأيها في الموضوع. إنها جميلة، قلتُ في نفسي، ولكن ما حاجتُك لفتاةٍ تنظر إليك كصبيٍّ في العاشرة من العمر، ما دامت أمّك تؤدّي هذا الدور.

قبل مئة واثنين وعشرين يومًا

بعد درسي الأخير من أسبوعي الأوّل في كالفر كريك، عدتُ إلى الغرفة رقم 43 لأقع على مشهدٍ غير متوقّع؛ رأيت الكولونيل المُصغّر

عاري الصدر مُنحنيًا على طاولة كيِّ الملابس، يتصارعُ مع قميصٍ ورديّ اللون. كان جبينُه وصدره يتصبّبان عرقًا وهو يكوي بهمّة عالية، ممرِّرًا المكواة على طول القميص، وباذلًا طاقةً كبيرةً جعلَت من تنفُّسه نسخةً طبق الأصل عن تنفُّس الدكتور هايد.

قال: «عندي موعد، هذه حالةٌ طارئة». ومن ثمّ توقّف لكي يلتقط أنفاسَه، وأردف لاهثًا، «هل تُجيد الكيّ؟».

تقدّمتُ باتجاه القميص الورديّ. كان مجعّدًا مثل عجوزٍ قضت شبابَها كلّه في التشمُّس. فقط لو أنّ الكولونيل لم يكن يكوِّر أشياءه كلّها ويرصُّها في أوّل درجٍ يقع في متناول يده! قلتُ: «أعتقدُ أنّه يكفي أن تُحمّي المكواة وتمرّرها على القميص، أليس كذلك؟». ومن ثمّ أضفتُ: «لم أكن أعرف أنّ عندنا مكواة».

- ليست مكواتنا. إنها مكواة تاكومي، لكنّه لا يجيد استخدامها هو الآخر. وعندما طلبتُ من ألاسكا، راحت تصيح وتصرخ: «لا أُصدِّق، هل تحاول أن تفرض عليّ نموذجك الذكوريّ؟» يا إلهي، أرغبُ في سيجارة، يجب أن أدخّن، ولكنني لا أستطيع السماحَ لنفسي بأن تفوح منّي رائحةُ التبغ أمام والديّ سارة. تبًّا، فليذهبا إلى الجحيم. هيّا بنا نفتح صنبور الماء الساخن وندخّن في غرفة الحمّام، فبخارُ الماء يزيل الثنيات، أليس كذلك؟»

قال وكنت أتبعُه إلى غرفة الحمّام: «بالمناسبة، إذا كنتَ تريدُ التدخين في أثناء النهار، افتحْ صنبورَ الماء الساخن، فالدخان يتلاشى مع البخار عبر فتحة التهوية».

على الرغم من عدم وجود دليلٍ علميٍّ على صحة هذه الفرضيّة، فقد كانت وسيلةً ناجعة. كان ضعفُ منسوب الماء ومقبضُ الدشّ المنخفض قد جعلا من غرفة الحمّام مكانًا غير صالحٍ للاستحمام، ولكنه كان مثاليًّا للتدخين خلسةً.

لسوء الحظ، كانت نتيجة تأثير بخار الماء في التجاعيد بائسةً. وحاول الكولونيل كيّ القميص مرة أخرى («سأضغط عليه بقوّة وسنرى، قد يساعد ذلك في تمليسه») لكنّه في نهاية المطاف، ارتداه كما كان، مجعّدًا، ومن ثمّ وضع ربطة عنقٍ ملائمة زرقاء اللون، ومزركشةً بصفوفٍ أفقيّةٍ من طيور الفلامينغو الوردية.

صرّح الكولونيل: «إنّ الشيء الوحيد الذي علّمني إيّاه والدي التافه»، ويداه تدوران برشاقة لتصنعا عقدةً مثاليّة، «هو عقدُ ربطات العنق، لكنّ الغريب في الأمر، هو أنني أعجز عن تخيُّل مناسبةٍ واحدة جعلتهُ يرتدي إحداها».

في تلك اللحظة، طرقَت سارة على الباب. كنتُ قد رأيتُها مرةً أو اثنتين، لكنّ الكولونيل لم يقدِّمني إليها قط، ولم يكن ليفعل ذلك تلك الليلة.

سألَتهُ وكان واقفًا أمام طاولة كيّ الملابس: «يا إلهي، ألا تستطيع كيّ قميصِك على الأقلّ؟ سنخرجُ مع والديّ». بدت ساحرةً في ثوبها الصيفيّ الأزرق. كانت ترفعُ شعرها الأشقر الطويل، وتعقصُه على رأسها تاركةً خصلتين تتدلّيان على جانبيّ وجهها، فبدَت مثل نجمةٍ سينمائية، من النوع الشرير.

- اسمعي، لقد بذلتُ قصارى جهدي. ليس تحت تصرفنا جميعًا خادمات تتكفّلن بكيّ الملابس.

- تشيپ، هذه الخرقة على كتفيك تزيدُ من قِصَرك، وتجعلك تبدو كالقزم.

- تبًّا، ألا نستطيع الخروج من هذا الباب من دون شجار؟

- أنا أقولُ وحسب، إننا ذاهبون إلى دار الأوبرا، وهي مناسبة مهمّةٌ جدًا بالنسبة إلى والديّ. ولكن دعنا من ذلك، هيّا بنا.

كنتُ على وشك الانسحاب، غير أنّ الاختباء في غرفة الحمّام بدا فكرةً غبيّة، كما أنّ سارة كانت تقف في المدخل، تضع يدًا على وركها، وتعبثُ بمفاتيح السيارة باليد الأخرى، كأنها تقول، لقد حان وقت الذهاب.

صرخ بها الكولونيل: «حتى لو ارتديتُ بذلة سموكنغ، لن يخفِّف ذلك من كره والدَيك لي!».

«وما ذنبي، إن كنتَ لا تتوقّف عن استفزازهما واستعدائهما؟» ومن ثمّ رفعَت مفاتيح السيارة في وجهه مهدِّدةً. «اسمَعْ، إن لم نذهب في الحال، فلن نذهب أبدًا».

قال الكولونيل: «اللعنة. لن أذهب معك إلى أيّ مكان».

«كما تشاء. طاب مساؤك». ومن ثمّ صفقَت الباب خلفها. كانت صفقتها من الشدة بحيث أسقطَت عن الرف سيرةً ذاتيةً ضخمة لتولستوي، الذي كانت كلماته الأخيرة، «الحقيقة... أحبّ كثيرًا... كيف...».

صرخ الكولونيل: «آآآآآآآآآآآآآآآآه!!!!!!».

- هذه سارة، أليس كذلك؟

- نعم.

- تبدو لطيفةً.

ضحك الكولونيل، ومن ثمّ جثا على ركبته ليُخرج من الثلاجة زجاجة حليب ويفتحها. أخذ جرعةً وقطّب جبينه، ومن ثمّ كتم سعالًا وجلس على الكنبة واضعًا الزجاجة محشورةً بين فخذيه.

- هل فسد الحليبُ أو شيء من هذا القبيل؟

- أوه، كان ينبغي أن أعلمَك أنّه ليس حليبًا. إنّه مزيجٌ من خمسة مقادير من الحليب ومقدارٍ من الفودكا. أُسمّيه النكتار. شراب الآلهة. من

الصعب جدًا أن تشتمّ رائحة الفودكا الممزوجة في الحليب، لذلك، لا يستطيع النسرُ القبض عليّ متلبسًا بالجرم المشهود، إلّا إذا احتسى جرعةً منه. عيبُه الوحيد، هو أنّ طعمَه كطعم الحليب الفاسد وكحول التعقيم، غير أنّ هذا المساءَ مساء جمعةٍ يا بدين، وصديقتي عاهرة. إذًا، لا وقت للدلال والتذمُّر. هل ترغبُ في جرعة؟

- أعتقدُ أنني سأرفض الدعوة.

باستثناء بضع جرعاتٍ من الشمبانيا بمناسبة أعياد رأس السنة بحضور والديّ وتحت رقابتهما، فأنا لم أشرب الكحول قط، كما أنّ ذلك النكتار، لم يبدُ لي الشراب المثاليّ لبدء مغامرةٍ كحوليّة.

سمعتُ رنين الهاتف العمومي في الخارج. كنتُ أستغربُ ندرة رنينه، خصوصًا أنّ 190 طالبًا كانوا يتقاسمون خمسة هواتف عموميّة فقط. من حيث المبدأ، كانت الهواتف الخليوية محظورةً، لكنّني لاحظتُ أنّ بعض الأسبوعيين يستخدمونها سرًا، ومعظم النظاميين أمثالي يستخدمون الهاتف العمومي للاتصال بذويهم على نحو منتظم. لذا، لم يكن الأهالي يتّصلون إلّا عندما ينسى الأبناء مكالمتهم.

سألني الكولونيل: «ألن تردّ؟». لم أكن أستسيغ طريقته في توجيه أوامره لي، لكنني في الوقت نفسه، لم أكن أرغب في الشجار معه.

في ظلمة الشفق الزاحف على الممر، مشيتُ حتى الهاتف العمومي المعلّق على الجدار بين الغرفتين 44، و45. على جانبيّ الهاتف، كانت توجد عشرات الأرقام والملاحظات المبهمة (205.555.1584؛ تومي في المطار 4:20. 773.573.6521؛ دجاي دجي-كافز؟) كان الاتصال على ذلك الهاتف من الخارج يستدعي قدرًا كبيرًا من الصبر. رفعتُ السماعة بعد الرنّة التاسعة.

كانت سارة، فسألتي: «هل يمكنك أن تنادي تشيپ؟». بدا أنها كانت تتّصل من هاتفٍ خليويّ.

- نعم، ابقي على الخط.

استدرتُ، فوجدته خلفي، كما لو أنّه كان يعلم أنها ستتّصل. أعطيتُه السمّاعة وعدتُ إلى الغرفة.

بعد دقيقة، مع أوّل هبوط لليل، حمل هواءُ ألاباما السميك إلى غرفتنا هذه الكلمات الثلاث، «تبًّا لكِ أيضًا!» كان الكولونيل يصرخ.

عاد إلى الغرفة حاملًا نكتاره، ومن ثمّ جلس وقال: «تتّهمني بأنني وشيتُ بماريا وبول. هذا ما يقوله الأسبوعيون على الأقل. يعتقدون أنني الواشي. أنا! لذلك، بالوا في حذائي، وكادوا يقتلونك لأنك تقاسمني الغرفة، ولأنني واشٍ بالنسبة إليهم».

حاولتُ أن أتذكّر من هما ماريا وبول. كان اسماهما مألوفَين، لكنني سمعتُ الكثير من الأسماء في خلال الأسبوع المنصرم، ولم يكن لماريا وپول وجهان أضعهما على اسميهما. ومن ثمّ تذكّرت لماذا لم أرهما قط. لقد طُردا من المدرسة العام الفائت، بسبب ارتكابهما جرم الثلاثية القاتلة.

- منذ متى تخرجُ معها؟

- تسعة أشهر، لم ننسجم فيها يومًا واحدًا. أقصدُ أنني لم أشعر نحوها بأي عاطفة، ولو لخمس دقائق. لم تكن علاقتنا تشبه في شيء علاقة والدي بوالدتي. كان عندما يغضب، كان يبرحها ضربًا. لكنّه بعد ذلك، كان يلاطفها ويبدآن ما يشبه شهر عسلٍ جديد. أمّا مع سارة، فلم أعش دقيقة عسلٍ واحدة. يا إلهي، كيف يمكنها اتّهامي بالوشاية؟ لا أعرف لماذا لا ننفصل؟ مرّر أصابعه في شعره، ومن ثمّ شدّ عليه بقبضته وقال: «أظنّ أنني لا أتركها لأنها لا تتركني. ليس ذلك بالأمر السهل. فلا أنا

الحبيب المثالي، ولا هي الحبيبة المثالية. كلانا سيئ، ويستحقُّ واحدُنا الآخر».

- ولكن.

- لا أصدّق أنهم يعتقدون ذلك.

قال ذلك وهو يتجه إلى رف الكتب ويأخذ عنه كتاب أطلس. تناول جرعةً كبيرةً من نكتاره وأضاف: «اللعنة على هؤلاء الأسبوعيين الأوغاد. لا ريب أنّ أحدهم هو الذي وشى بماريا وبول، ويُغطّون على ذلك باتّهامي. على أي حال، إنها ليلة طيّبة للبقاء في البيت مع البدين والنكتار».

قلتُ: «لكنّني ما زلتُ». وكنتُ أريد القول إنني لا أفهم كيف بوسعك أن تقبِّل شخصًا يعتقدُ أنك واشٍ، ما دامت الوشاية أحقر فعلٍ على هذه الأرض، لكنّ الكولونيل قاطعني قبل أن أُكمل.

- كفى، لا أريدُ سماعَ كلمةٍ واحدةٍ في هذا الموضوع. هل تعرف عاصمة سيراليون؟

- لا.

قال: «ولا أنا، لكنني سأجدها»، ومن ثمّ راح يبحث في الأطلس.

كانت المحادثة قد انتهت.

قبل مئة وعشرة أيام

تبيّن أنّ متابعة الدروس كانت أسهل ممّا كنتُ أتوقّع. وقد منحني مَيلي الطبيعيُّ إلى البقاء في الداخل لأقرأ، أفضليّةً جليّةً على متوسط الطلاب العاديين في كالڤر كريك. ففي نهاية الأسبوع الثالث، كان الكثيرون قد أصيبوا بحروق شمسيّة جعلتهم أشبه بفطائر البوفريدو

المقليّة، وذلك جرّاء البقاء خارجًا للدردشة في أثناء أوقات الفراغ. بينما أنا، فبالكاد اصطبغت بشرتي بلونٍ ورديّ. فقد كنتُ أدرُس.

كنتُ أُصغي أيضًا، ولكن صباح ذلك الأربعاء، عندما بدأ دكتور هايد الكلام عن البوذيين، وإيمانهم بأنّ الأشياء كلّها تترابط في ما بينها، وجدتُ نفسي شارد الذهن أحدِّق إلى الخارج، وأتأمّلُ عبر النافذة سفْحَ الهضبة الحرجيّة الواقعة على الجانب الآخر من البحيرة. من غرفة الصف، بدَت الأشياء كلّها مشبوكةً بعضها ببعض؛ الهضبة التي تكتسي بالأشجار كما لو كانت ثوبًا، والخيط القطنيُّ الدقيق في القميص البرتقالي الضيّق الذي كانت ترتديه ألاسكا ذلك اليوم، والذي لم أكن لألاحظَه قط، وعدم قدرتي على تمييز أشجار الغابة. بدَت تلك الأشياء كما لو كانت نسيجًا واحدًا يجعل التفكير في شجرةٍ مستقلةٍ عن الهضبة، أمرًا عبثيًا بلا معنى. ومن ثمّ سمعتُ صوتًا يناديني باسمي، فأدركتُ أنني كنتُ في ورطة.

قال العجوز: «سيد هالتر، ها أنا أُنهكُ رئتيّ في تعليمكم. مع ذلك، يبدو أنّ ثمّة شيئًا في الخارج، تمكّن من التغلّب عليّ في نيل اهتمامك. حبّذا لو تحدِّثنا عنه؟».

الآن، جاء دوري في التنفُّس بصعوبة. كان الجميع ينظرون إليّ شاكرين السماء لأنهم لم يكونوا في مكاني. فقد سبق للدكتور هايد أن طرد من الصف ثلاثة طلاب في ثلاث مناسبات مختلفة بسبب قلّة الانتباه أو تمرير المذكرات.

- امممم، كنتُ أنظرُ إلى، امممم، إلى الهضبة وأفكِّرُ في، امممم، في الأشجار والغابة، كما كنتَ تقولُ قبل قليل، بشأن الطريقة...

من الواضح أنّ الرجل العجوز لم يكن يطيق التأتأةَ ولا الأفكار المشتّتة، فقاطعني: «سأطلب منك أن تغادر القاعة يا سيد هالتر، بحيث

يمكنك الخروج واكتشاف العلاقة بين امممممم، الأشجار وامممممم، الغابة. وغدًا عندما تأتي مستعدًا لأخذ الدرس على محمل الجدّ، سأرحّب بك مجدّدًا».

بقيتُ صامتًا لا أُحرِّك ساكنًا، أمسكُ القلم بيدي أمام دفتري المفتوح، محمَرّ الوجه وفكّي الناتئ يعضُّ على شفتي العليا، وهي حيلةٌ قديمةٌ كنتُ ألجأُ إليها في مثل هذا الموقف لإخفاء مشاعر الحزن أو الخوف. من الصفّ الثالث خلفي، سمعتُ صوت كرسيٍّ يتحرك، فاستدرتُ لأرى ألاسكا واقفةً تُلقي بحقيبتها على كتفها.

قالت ألاسكا: «آسفة، لا أحتملُ هذا الهراء، لا يمكنُكَ أن تطرده خارج القاعة بهذه البساطة»، ومن ثمّ أضافت: «أنت تصدع رؤوسنا بلا انقطاع لساعةٍ كاملةٍ يوميًا، ونحن، ألا يحقُّ لنا مجرّد إلقاء نظرة خارج النافذة؟».

حملق الرجل العجوز في ألاسكا كما يحملقُ الثورُ في مصارع الثيران، ومن ثمّ رفع يده إلى وجهه الرخو، وراح يفرك ببطءٍ شعرَ لحيته الخفيفة البيضاء.

- أنتم تخضعون لقوانيني مدّة خمسين دقيقة يوميًا، إن امتثلتُم لها نجحتُم، وإن رفضتموها رسَبتُم. القرار قراركم. والآن، اخرُجا من القاعة.

دسستُ دفتري في حقيبتي، وخرجتُ مُهانًا. سمعتُ صوت الباب يُغلَقُ خلفي، وشعرتُ بيدٍ تربِّتُ على كتفي الأيسر. استدرتُ لكنني لم أرَ أحدًا، ومن ثمّ استدرتُ في الاتجاه الآخر، فوجدتُ ألاسكا تبتسم لي وفي زاويتيّ عينيها شمسان. قالت: «إنها أقدم حيلةٍ في التاريخ، لكنها تنطلي على الجميع».

حاولتُ الابتسام، لكنني لم أكن أستطيع الامتناع عن التفكير في الدكتور هايد. كان ذلك أسوأ من حادثة البحيرة، إذ كنتُ أعرفُ أنّ جميع

أمثال كيڤن ريتشمان في هذا العالم يكرهونني، أمّا أساتذتي، فكانوا جميعهم يحبونني.

قالت: «ألم أقل لك إنه أحمق؟».

- ما زلتُ أعتقدُ أنّه عبقري. معه حق. لم أكن أُصغي.

- صحيح، ولكن ما كان عليه أن يتشنّج إلى هذا الحد. هل يحتاج حقًا إلى إهانتك لكي يُثبت سُلطته؟! العباقرة الحقيقيون هم الفنانون، أمثال ييتس، وبيكاسو وغارسيا ماركيز، أمّا الدكتور هايد، فهو عجوزٌ لئيم.

ومن ثمّ اقترحَت قضاء الوقت المتبقي على انتهاء الدرس في البحث عن أعشاب برسيم رباعية الأوراق، وبعد ذلك، الذهاب للتدخين رفقة الكولونيل وتاكومي، اللذين وصفَتهما بالوغدين لأنّهما لم يغادرا القاعة معنا على الفور.

حين تجلس ألاسكا يونغ متربعةً على بساطٍ طريٍّ من البرسيم الأخضر، ومن ثمّ تنحني إلى أمام وتظهرُ بشرتُها الشاحبةُ بشكلٍ واضحٍ تحت قميصها المفتوح بسخاء، تُصبح مساعدتُها في البحث أمرًا مستحيلًا بحسب قوانين علم النفس البشرية. هذا بالإضافة إلى ارتباكي وشعوري بالحرج بسبب اختلاسي النظر إلى حيث لا ينبغي، ولكن...

بعد أن أمضت حوالي دقيقتين في البحث بأظافرها الطويلة المتسخة، قطفَت ألاسكا عشبة برسيم بثلاث أوراق كاملة، وورقة رابعة قزمة غير مكتملة. رفعت رأسها ونظرت إليّ من دون أن تترك لي أو بالكاد الوقت الكافي لتحويل نظري.

قالت بنبرةٍ ساخرة: «على الرغم من أنك لا تشارك في البحث أيها المنحرف، فإنني سأعطيك عشبة البرسيم هذه. سوى أنّ الحظ لا يحالفُ

إلّا الأوغاد». ومن ثمّ قرصَت الورقة القزمة بين ظفريّ إبهامها وإصبعها الأوسط، وانتزعتها قائلةً: «هكذا، لن تكوني مسخًا وراثيًّا بعد الآن، بل عشبةٌ برسيمٍ طبيعيّة».

قلتُ بشيء من الارتباك: «أوه، شكرًا».

عندما رنّ الجرس معلِنًا انتهاء الدرس، كان تاكومي والكولونيل أوّل الخارجين. ولمّا اقتربا، راحت ألاسكا تحدِّق إليهما بنظرةٍ طويلةٍ عاتبة.

سألها الكولونيل: «ماذا؟»، لكنّها أشاحت بوجهها عنه وبدأَت تبتعد. تبعناها بصمت عبر دائرة المباني السكنية وملعب كرة القدم إلى أن دخلنا الغابة، حيث سلكنا ممرًّا ضيقًا يلتفّ حول البحيرة، ما لبث أن تحوّل إلى دربٍ ترابية. ركض الكولونيل وانضمّ إلى ألاسكا، ومن ثمّ راحا يتشاجران بصوتٍ خافت. لم أكن أستطيع سماعهما، لكنني كنتُ قادرًا على تمييز انزعاجهما المتبادَل. أخيرًا، قرّرتُ أن أسأل تاكومي عن وُجهتنا.

فقال: «هذه دربٌ مسدودةٌ تؤدّي إلى الإسطبل، لذلك، قد يكون الإسطبل وُجهتَنا. ولكن من المحتمل أيضًا أن نذهب إلى ركن التدخين. سنرى ذلك بعد قليل».

من هنا، بدت الغابةُ مخلوقًا مختلفًا كليًا عن الذي نراه من قاعة الصف. فالأرض تغطّيها طبقةٌ سميكةٌ من الأغصان الميتة، وإبر الصنوبر المتفسِّخة، وشجيرات العلّيق الخضراء. والدرب تتلوّى بين أشجار الصنوبر الفتيّة بإبرها الجديدة التي تنتشر مثل مظلّةٍ تقي من أشعة الشمس اللاهبة. أمّا أشجار السنديان والدلب، فلم تكن مرئيّةً من قاعة الصف، إذ إنها تتوارى خلف أشجار الصنوبر الباسقة، لكنّها كانت تُظهِر علامات خريفٍ غير متوقع الحلول في ظلّ هذا الطقس الحار، وبدأت أوراقُها التي ما تزل خضراء بالتساقط.

وصلنا إلى جسرٍ خشبي متداعٍ لم يكن في الواقع سوى لوحٍ من الخشب المُقوّى ملقىً على أساساتٍ إسمنتيةٍ ترتفع على جانبيّ كالڤر كريك، الجدولُ الذي يجري متعرّجًا بلا انقطاع في جوار الحرم المدرسيّ. في الجانب الآخر من الجسر، كانت تمتدّ دربٌ شديدة الانحدار. لم تكن دربًا بقَدر ما كانت سلسلةً من الدلائل التي تشير إلى أنّ أحدهم سبقنا إليها؛ غصنٌ مكسورٌ هنا، وعشبٌ يحمل آثار أقدامٍ هناك. بما أننا كنّا نهبط المنحدر في رتلٍ بعضنا خلف بعض؛ ألاسكا في المقدمة، يليها الكولونيل، ومن ثمّ تاكومي، وأنا في المؤخرة، كان كلٌّ منا يزيحُ غصنًا غليظًا من الدلب بحيث يتيح المرور للآخر خلفه حتى وصل الدور إليّ، فمررتُ وتركتُه يعودُ إلى مكانه وهو يجلدُ الهواء خلفي. أسفل الجسر، كانت توجد حصيرةٌ إسمنتيّة بطول ثلاثة أمتار وعرض متر واحد، مجهّزة بكراسٍ بلاستيكية زرقاء اللون سُرقَت من إحدى قاعات المدرسة. للمرة الأولى، ومنذ أسابيع عدّة، لم أشعر بوطأة القيظ. كان ظلُّ الجسر ورطوبة الجدول ينشران من حولنا برودةً لذيذة.

وزّع الكولونيل السجائر، فرفض تاكومي، وأشعلنا سجائرنا نحن الثلاثة.

وضّحت ألاسكا مستأنفةً حديثها مع الكولونيل: «لا يحقُّ له معاملتنا بطريقة مهينة، هذا جُلُّ ما أقوله، على الرغم من أن البدين مخطئ بسبب عدم انتباهه، وأنا مخطئة بسبب استنكاري، لكنني ما زلتُ مُصِرّةً على أنّه أستاذٌ فظيع، ولن تستطيع إقناعي بعكس ذلك».

قال الكولونيل: «عظيم، ولكن توقّفي عن إثارة المشاكل. تبًّا، كدتِ تُجهزين على هذا العجوز اللعين».

قال تاكومي: «بصراحة، لن تكلّلي سنَتكِ الدراسيّة بالنجاح إذا أغضبت الدكتور هايد، سيلتهمُك حيّةً، ومن ثمّ يتبرّزُكِ، ويبولُ على برازه.

وبالمناسبة، هذا ما يجب علينا فعله بالذي وشى بماريا. هل سمع أحدكم شيئًا بهذا الشأن؟».

قالت ألاسكا: «لا بدّ من أنه أحد الأسبوعيين، ولكن يبدو أنهم يعتقدون أن الكولونيل هو الواشي. بالمحصلة، لا أحد يعلم، ربما كان النسر محظوظًا وضبطها عن طريق الصدفة. لقد كانت غبيةً، وقعَت في الفخ فطُردَت وانتهى الأمر. هذا ما يحدث لك عندما تقع نتيجة غبائك». ومن ثمّ دوّرت شفتيها، وراحت تحرّك فمها مثل سمكةٍ صغيرةٍ تلتهم طعامها، محاولةً من دون جدوى أن تنفث دخان سيجارتها على شكل حلقات.

قال تاكومي: «ياه، إذا حدث وطُردتُ من المدرسة، ذكّريني بالدفاع عن نفسي، إذ يبدو أنني لا أستطيع الاعتماد عليكِ».

أجابت: «لا تكن سخيفًا»، ولم تكن غاضبةً بقدر ما كانت لا مبالية. «لا أفهم سببَ هوسِك في إيجاد تفسيرٍ لكلّ الأشياء التي تحدث هنا، كما لو كان علينا أن نكتشف كلّ الأسرار. اسمع يا تاكومي، لقد انتهى الأمر. يجب أن تكُفّ عن التدخل في مشكلات الآخرين، وتبحث عن مشكلات تخصُّك». أراد تاكومي التعقيب على كلامها، لكنّها رفعَت يدها لتفهمَه بأن المحادثة قد انتهت.

لم أكن أعرف ماريا، لذلك، لم أقُل شيئًا، وعلى أي حال، عمومًا، كانت استراتيجيتي الاجتماعية تتلخّص في «الإصغاء بصمت».

قالت لي ألاسكا: «على أي حال، أعتقد أنّ الطريقةَ التي عاملك بها كانت فظيعةً. لقد شعرتُ برغبةٍ في البكاء، ووَددتُ تقبيلَك لمواساتك والتخفيف عنك».

أجبتُها: «لسوء الحظ، لم تفعلي»، وغرق الجميع في الضحك.

قالت: «أنت جذاب»، وشعرتُ بسطوة عينيها، فأشحت بوجهي

مرتبكًا. ومن ثمّ أضافت: «لكنّني لسوء الحظ مغرمةٌ بحبيبي جايك». رحتُ أحدِّق إلى جذور الأشجار المتشابكة على ضفة كالقْر كريك، محاولًا عدم الظهور بمظهر مَن وُصِف لتوّه بالجذاب.

تاكومي أيضًا، لم يُصَدّق ما سمعته أذناه، فتقدّم منّي وبعثرَ شعري بيده، ومن ثمّ استدار نحو ألاسكا وراح يرتجل أغنية راب. «صحيح أنّ البدين وسيم وجذاب/لكنّكِ تحبّين الشقاء والعذاب/لذا، تجدين عند جايك الجواب/ذاك الفتى الذي لا يطيق العتاب».

ضحكَت ألاسكا وقالت: «لم أعُد غاضبةً منك بعد الآن. الراب مثير جدًا. يا بدين، هل تعلم أنك في حضرة زعيم الراب الأكثر جنونًا في ولاية ألاباما بأسرها؟».

- لا، لم أكن أعلم.

قال تاكومي: «يا كولونيل السوء*، هات الإيقاع»، فأضحكتني الفكرة. لم أكن أتخيّل أنّ فتىً بقِصَر الكولونيل وغبائه يستحقُّ لقبَ مُغنّي راب. وضع الكولونيل يديه حول فمه على شكل بوق، وراح يُطلق أصواتًا سخيفةً أفترضُ أنّها كانت الإيقاع. بو-تشي. بو-بو-تشي، فانفجر تاكومي في الضحك.

«هنا، على ضفة النهر، أقول ارتجالا/لو كان تبغُكم خمرًا، لشربتهُ حتى الثمالة/مثل موت بائعٍ متجوِّلٍ**، إيقاعات الكولونيل حزينة/يا قوافيّ، كوني صدى الأسلاف، كوني أمينة/عيّروني وقالوا فتىً مُدّعٍ مغرورْ/ فما رددتُ وما اكترثتُ لقول حاقدٍ موتورْ».

---

* إشارة إلى Colonel Catastrophe بطل روايات وليم أندرسون.

** «موتُ بائع متجوّل». مسرحية لآرثر ميلر.

صمت وتنفّس بعمق. ومن ثمّ أردف: «مثل إميلي ديكنسون/ لا أهاب اعوجاج القوافي/أنظم الشعر طَرًّا/ ونَظمي من الكَلِمِ الخِفافِ».

لم أكن أعرف الفرق بين قافيةٍ عوجاء وأخرى مستقيمة، لكنني كنت مبهورًا. صفّقنا جميعًا لتاكومي، وأنهت ألاسكا سيجارتها، ومن ثمّ رمتها لتسقط في الجدول.

سألتُها: «لماذا تدخّنين بهذه السرعة؟».

نظرَت إليّ وابتسمَت ابتسامةً عريضة، ولولا خضرة عينيها الساحرة، لجعلَت تلك الابتسامة وجهها الصغير باهتًا. ابتسمَت بعذوبة مثلما يبتسمُ طفلٌ صبيحة عيد الميلاد وقالت، «أنت تدخّن لتستمتع. أنا أدخّن لأموت».

قبل مئة وتسعة أيام

مساء اليوم التالي، كان العشاء في الكافتيريا خبزًا باللحم، وهو أحد الأطباق التي لم تكن مقليّة، لذلك، لا ريب في أنّه كان أسوأ طبقٍ تحضِّره مورين. لم يشبه الخبز في شيء، وليس له مذاق اللحم وحسب، بل شيئًا ليفيًّا يسبح في المرَق. ذلك المساء، اكتشفتُ أنّ لدى ألاسكا سيارة، فقد عرضَت علينا، أنا والكولونيل الذهاب بسيارتها إلى الماكدونالدز. لكنّ الكولونيل كان مفلسًا، ولم أكن أفضل منه حالًا، وذلك نتيجة تبذير نقودي في تمويل نفقات إدمانه الباهظة على التدخين.

بدلًا من ذلك، اكتفيتُ أنا والكولونيل بتسخين بعض فطائر البوفريدو البائتة منذ يومين. خلافًا للبطاطس المقليّة، لم تكن تلك الفطائر تفقد شيئًا من قوامِها المقرمِش أو طعمِها عندما تُسخّن في الميكروويف. بعد العشاء، ألحّ الكولونيل على حضور المباراة الأولى من موسم كرة السلّة في كالڤر كريك.

سألتُ الكولونيل مستغربًا: «كرة السلّة في الخريف؟ لا أعرف الكثير عن عالم الرياضة، ولكن أليس الخريف موسم كرة القدم؟».

- مدارسُنا صغيرةٌ جدًا ليكون لديها فرق كرة قدم، لذلك نلعب كرة السلّة في الخريف. مع ذلك، يا صاحبي، لو كان لدينا فريق كرة قدمٍ في كالڤر كريك، لكان ذلك رائعًا، ولكنتَ بلا شك حكمَ تماس، بفضل هذه المؤخرة الهزيلة التي تجرّها خلفك. ومهما يكن، تبقى مبارياتُ كرة السلّة ممتعةً ومشوِّقة.

كنتُ أكره الرياضة، والرياضيين، والمشجّعين، وأكره الذين لا يكرهون الرياضيين ومشجّعيهم. عندما كنتُ في صفِّ الثالث، وهي السنة الأخيرة التي يلعب فيها الصغار الـ (T Ball)، أي كرة السلّة للأطفال. أرادت والدتي أن يكون لي أصدقاء، فسجّلَتني رغمًا عني في فريق (Orlando Pirates). صحيحٌ أنني تمكّنتُ من التعرّف على أصدقاء، وأيّ أصدقاء! زمرةٌ من أطفال الحضانة الذين لم يقدّموا أي مساهمةٍ في رفع منزلتي الاجتماعية بين زملائي في الصف. كنتُ أطول من جميع اللاعبين، وكدتُ أنجح في الانضمام إلى فريق (All Stars) تلك السنة. لكنّ كلاي فيرتزل، الولد الذي فاز عليّ وقُبلَ في الفريق، كان بذراعٍ واحدة. كنتُ طويلًا جدًا مقارنةً بأقراني، وأملك ذراعين. مع ذلك، فاز عليّ ولدٌ في الحضانة. لم يختاروه بدافع الشفقة نحو طفلٍ تنقصه ذراع، لا، بل لأنّه كان لاعبًا فائق البراعة، بينما كنتُ أحيانًا أفشلُ في تسجيل أسهل النقاط، حتى عندما كانت الكرة تجلس على حافة السلّة. إنّ أحد الأسباب التي أغرَتني ودفعَتني إلى اختيار الدراسة في كالڤر كريك، كان تأكيدُ والدي لي، بأنّ الالتحاق بها لا يحتاج إلى أيّ تأهيلٍ رياضيّ.

قال الكولونيل: «ثمّة حالةٌ وحيدةٌ أضعُ فيها حقدي على الأسبوعيين، وعلى ناديهم الرياضيّ اللعين جانبًا، وهي اليوم الذي يجري فيه تشغيلُ

الهواء المكيّف في النادي الرياضي لاستقبال مباراةٍ صغيرةٍ في كرة السلة، لذلك يا صديقي، لا يمكنك تفويت مباراة الموسم الأولى».

بينما كنا نسير باتجاه النادي الرياضي الذي كنتُ قد رأيتُه قبل ذلك، ولم أفكّر في الاقتراب منه حتى، أطلعَني الكولونيل على كافة التفاصيل التي تحيط بفريقنا لكرة السلّة. لم يكن الفريق قويًا. كان نجمُ الفريق طالبًا في صف البكالوريا يُدعى هانك وولستن، وهو يلعبُ مهاجمًا أماميًا على الرغم من أنّ طوله لا يتجاوز المئة وسبعين سنتيمترًا. كنتُ أعرفُ أنّ شهرتَه في حرَم المدرسة، تعودُ في المقام الأول إلى حيازته على الحشيش بشكل دائم. إلى ذلك، أضاف الكولونيل أنه في خلال سنواته الأربع، لم يلعب مباراةً واحدةً وهو صاحٍ.

ومن ثمّ أضاف الكولونيل: «إنّ حُبّه للحشيش كحُبِّ ألاسكا للجنس، هذا رجلٌ صنعَ ذات مرّةٍ غليونًا لتدخين الحشيش، من لا شيء، سوى سبطانة بندقيةِ هواءٍ مضغوط، وإجاصة ناضجة، وصورة فوتوغرافية لآنّا كورنيكوفا قياس 20×25 سنتيمترًا. بالطبع، لم يكن ذلك الغليون ثامن أعاجيب الدنيا، لكن هذا التفاني يثير الإعجاب حقًا».

أخبرني الكولونيل أنّ الفريق أشبه بجبلٍ من عدم الكفاءة، يقف هانك على قمته، وفي أسفله لاعبُ الوسط ويلسون كاربود. ومن ثمّ أضاف: «فريقنا سيئٌ وضعيف. ليس لدينا دمية جالبة للحظّ حتى. أنا أسمّي الفريق: أصفار كالڤر كريك».

سألتُه: «هل هم زمرة من العاجزين إذًا؟». لم أكُن أرى أية فائدةٍ في أن يشاهد المرء فريقًا تافهًا يُمَزّقُ إربًا، على الرغم من أن الهواء المكيّف كان سببًا كافيًا في ما يخصّني.

أجاب الكولونيل: «نعم، هم كذلك، لكننا نهزم مدرسة ألاباما للصُّمِّ والمكفوفين». من الواضح أنّ كرة السلة لم تكن على سلّم أولويّات

مدرسة ألاباما للصُّمِّ والمكفوفين. لذلك، اعتاد فريقنا على أن ينهي الموسم بانتصارٍ وحيد.

عندما وصلنا، كان معظم طلاب كالڤر كريك يحتشدون في النادي الرياضي، فحتى الفتيات القوطيّات الثلاث كنّ هناك في الصف العلويّ من المدرّج تضعن الكحل على أعينهنّ. لم يكن قد سبق لي أن حضرت مباراة كرة سلّةٍ مدرسيّةٍ في مسقط رأسي فلوريدا، لكنني أشكُّ في أنّ الجمهور هناك كان بمثل هذا التنوُّع. مع ذلك، فوجئت عندما وجدتُ كيڤن ريتشمان شخصيًا يجلس في المدرّج أمامي مباشرةً، فيما راحت مشجِّعات الفريق المنافس يُلهبنَ جمهورهنّ القليل في الصالة. لسوء حظِّهن، كنّ يرتدين لباسًا موحدًا بألوان مدرستهن؛ بنيّ قاتم وأصفر بلون البول الجافّ. استدار كيڤن ورمق الكولونيل بنظرة تحدٍّ.

على غرار الأسبوعيين الآخرين، جاء كيڤن بثياب أنيقة فاخرة، فبدا أشبه بمحامٍ مستقبليٍّ من هواة الغولف. كان شعره الأشقر قصيرًا على صدغيه، بينما ينتصب كالفرشاة كثيفًا على قمة رأسه، وكان كيڤن يُشبِعُه بكميةٍ كبيرةٍ من مادةٍ مُقَسِّية تجعله يبدو مبللًا على الدوام. لم أكن أكره كيڤن بقدر ما كان الكولونيل يكرهه، فكراهية الكولونيل له قضية مبدأ، وهي أقوى بكثير من تلك التي تنتج عن حادثة كحادثة البحيرة. مع ذلك، حاولت أن أبادله نظرة التحدي التي رمق بها الكولونيل. ذلك على الرغم من مشاعر العار التي كانت تتنازعني، فهذا الفتى قد رآني عاريًا إلّا من سروالٍ داخليّ منذ ما لا يزيد عن أسبوعين.

اقترح كيڤن على الكولونيل: «لقد وشيتَ بماريا وبول، ونلتَ جزاءك. واحدة بواحدة. إن شئت نعقد صلحًا؟».

ردّ الكولونيل: «لم أشِ بهما، وبالتأكيد، لم يشِ بهما البدين هو الآخر، لكنك أقحمته في لعبتك القذرة، فعن أيّ صلحٍ تتحدّث؟ ولكن حسنًا،

دعني أستشيره في الأمر». كانت المشجّعات قد توقّفن عن الرقص، وضممنَ كراتهنّ الورقية المنفوشة إلى صدورهنّ كما لو كنّ يُصلّين. «هل سمعت يا بدين، ما رأيك في أن نعقد صلحًا؟».

قلتُ: «هذا يُذكّرني بمعركة الأردين، عندما طلب الألمان من الأميركيين الاستسلام، أعتقد أنني سأجيب كما أجاب الجنرال ماك أوليف: نجوم السماء أقرب».

- لماذا حاولتَ قتل هذا الفتى يا كيڤن؟ إنه عبقري. نجوم السماء أقرب لك من الصلح.

- اهدأ يا رجل. أعلم أنك وشيتَ بهما، وعلينا أن ندافع عن أصدقائنا، دعنا لا نلتفت إلى الماضي، ولنفتح صفحةً جديدة.

بدا صادقًا جدًا، وقد يعود ذلك إلى خشيته من الألاعيب التي اشتُهِر بها الكولونيل.

- سأعرض عليك صفقةً. أعطني اسم رئيسٍ أميركيٍّ راحل من اختيارك. إن لم يعرف البدينُ كلماته الأخيرة، نُصالح. ولكن إن عرفها، سوف تقضي ما تبقى لك من الحياة نادمًا على تبوّلك في حذائي.

- هراء.

- في هذه الحالة، لا صلح.

قال كيڤن: «حسنًا. ميلارد فيلمور». ومن ثمّ نظر إليّ الكولونيل ذاهلًا، وعيناه تقولان: هل كان هذا الرجل رئيسًا؟ فاكتفيتُ بالابتسام.

- في الساعات الأخيرة التي سبقَت وفاته، كان فيلمور يتضوّر جوعًا. لكنّ طبيبه كان يفرض عليه صيامًا بهدف تخفيض حرارته أو أي شيء آخر من هذا القبيل. مع ذلك، لم يتوقّف فيلمور عن الإلحاح في طلب الطعام، إلى أن سمح له الطبيب بتناول ملعقة صغيرة من الحساء. وبسخريته

المعهودة، قال فيلمور، «مستساغ، لا ينقصه شيء». ومن ثمّ مات. لن نُصالح.

رفع كيڤن عينيه نحو السماء وذهب، وأدركتُ أنني لو نسَبتُ إلى ميلارد فيلمور أيّ كلماتٍ أخيرةٍ أخرى، مُستخدمًا في ترديدها تلك النبرة الواثقة في صوت الكولونيل عندما عرضَ صفقته، لصدّقَني كيڤن.

قال الكولونيل ضاحكًا: «هذه كانت معركتك الحاسمة الأولى! ولكن أعترفْ بأنّني وضعتُ لك هدفًا سهلًا. مع ذلك. أحسنت».

لسوء حظٍّ أصفار كالڤر كريك، لم نكن نلعب ضدّ فريق مدرسة ألاباما للصُّمِّ والمكفوفين، بل ضدّ إحدى المدارس المسيحية من وسط مدينة برمنغهام. كان الفريق المنافس مؤلّفًا من عمالقةٍ أشدّاء مفتولي العضلات، بلحىً كثيفةٍ، يضمرون نفورًا واضحًا من إدارة الخدّ الآخر.

في نهاية الربع الأول من المباراة، كانت النتيجة: 4-20 لصالحهم.

عندها بدأنا نستمتع بالمباراة، فقد تولّى الكولونيل مهمّة قيادة المشجِّعين.

هتف: «خبز ذرة!».

أجابه الحشد: «بالدجاج!».

- أرُزّ!

- بالفاصولياء!

ومن ثمّ جميعًا: «نحن الأفضل».

فهتف الكولونيل: «هيب، هيب، هيب، هورا! ذات يوم، ستكونون عبيدًا لنا!».

حاول مشجّعو الفريق المنافس التصدّي لهتافاتنا، فراحوا يهتفون: «البيت، البيت، البيت يحترق! إن استسلمت، فمصيرك الجحيم». لكنّنا كنّا نستطيع أن نردّ لهم الصّاع صاعَين.

«اشترِ!».

«بِع!».

«تاجر!».

«اتفقنا!».

«أنتم الأقوى، لكننا الأذكى!».

في أرجاء البلاد كافة، عندما يحصل الفريق الضيف على ضربةٍ حرّة، يعلو الضجيج في صفوف مشجّعي الفريق المحلّي، فيروحون يصرخون ويضربون الأرض بأقدامهم. لكنّ ذلك لا ينفع، فاللاعبون اعتادوا على الضجيج، وتعلّموا كيف يتجاهلونه. في كالڤر كريك، اتّبعنا استراتيجيةً مختلفةً أفضل كثيرًا من ذلك. في البداية، يبدأ الجميع بالصراخ كما في أي مباراة عادية، ومن ثمّ فجأة، يردّدون، «هُسّ!» فيخيّم على الصالة صمتٌ مُطبِق. ولكن عندما ينتهي اللاعب الخصم من تحضير نفسه ويتأهّب للرمي، يهبّ الكولونيل واقفًا، ويصرخ بشيءٍ من قبيل: «بحق السماء، أحلُقْ شعر ظهرك!» أو، «أريد لروحي السلام، هلّا استمَعتَ إلى اعترافي بعد رميتك؟!».

في نهاية الربع الثالث، طلب مدرِّب الفريق الخصم وقتًا مستقطَعًا، واشتكى للحكَم من الكولونيل، مشيرًا إليه بغضب. كانت النتيجة 13-56 لصالحهم. فوقف الكولونيل وصاح: «ماذا؟! لديك مشكلة معي!؟».

ردّ المدرّب صارخًا: «أنت تزعج لاعبيّ!».

عقّب الكولونيل صارخًا: «ذلك هو الهدف، يا سيد شرلوك هولمز!». عندها، تقدّم منه الحكَم، وطرده خارج الصالة، فتبعتُه.

قال لي: «لقد طُردتُ من سبع وثلاثين مباراة على التوالي».

- اللعنة.

- نعم. فقد حدث لي أن فعلتُ أشياء حمقاء حقًّا، مرّة أو اثنتين. كأن أقتحم الملعب، وأسرق الكرة من الفريق الخصم قبل انتهاء المباراة بإحدى عشرة ثانية. لم يكن ذلك فعلًا جميلًا، أتفق معك في ذلك، ولكن كما تعلم، يجب أن أدافع عن صيتي.

راح الكولونيل يركض أمامي مبتهجًا بطرده من المباراة، وركضتُ في أعقابه. كنتُ أريدُ أن أكون أحد أولئك الفتيان من ذوي الصِّيت الذي يحرق الأخضر واليابس. ولكن في الوقت الراهن، كنتُ على الأقل أعرف بعضهم، وكانوا يحتاجون إليّ، كما تحتاج النجوم المذنّبةُ إلى ذيولها.

قبل مئة وثمانية أيام

في اليوم التالي، طلب مني الدكتور هايد أن أبقى بعد انتهاء الدرس. عندما وقفت أمامه، أدركتُ للمرة الأولى كم كان محنيّ الظهر، وفجأة بدا حزينًا وعجوزًا. سألني: «أنت تحبُّ درسي، أليس كذلك؟».

- أجل يا سيدي.

- أمامك الحياة بأكملها لتتفكّر مليًا في مفهوم البوذية حول ترابط الأشياء كلها بعضها ببعض.

كان يتكلم، كما لو أنه دوّن ما يقوله ويردِّده عن ظهر قلب: «ولكن عندما كنتَ تنظر عبْر النافذة، فاتتك فرصة اكتشاف معتقَدٍ بوذيٍّ آخر،

لا يقلّ أهميةً، وهو أن تكون حاضرًا في كلّ جانبٍ من جوانب الحياة اليومية، حاضرًا حقًّا. كن حاضرًا في الصف، وعندما ينتهي الدرس، كن حاضرًا هناك». قال وهو يشير برأسه إلى البحيرة وأبعَد.

- حاضر يا سيدي.

قبل مئة يومٍ ويوم

في الصباح الأول من شهر تشرين الأول، أدركتُ أنّ ثمّة خطب ما، عندما أوقفتُ جرس المنبّه. لم يكن للسرير الرائحة نفسها. ولم أكن أشعر كالمعتاد. بقيت ذاهلًا لدقيقةٍ كاملة قبل أن أدرك أنني كنت أشعر بالبرد، أو على الأقل، أنّ المروحة المثبّتة على سريري لم تعُد ضرورية فجأةً. صحتُ: «أشعر بالبرد!».

ومن ثمّ سمعتُ صوتًا آتيًا من فوقي: «يا إلهي، كم الساعة الآن؟».

أجبتُ: «الثامنة وأربع دقائق».

لم يكن الكولونيل يملك منبِّهًا، لكنّه كان دائمًا يستيقظ قبل أن يرنّ منبّهي ليستحم. ترك ساقيه القصيرتين تتدليان من سريره العُلويّ، ومن ثمّ قفز إلى الأرض واندفع نحوِ خزانته. قال وهو يرتدي سروالًا قصيرًا وقميصًا قطنيًا أخضر، يحمل شعار فريق كالقر كريك لكرة السلّة. «أعتقد أن وقت الاستحمام قد فاتني، لا بأس، أستطيع الاستحمام غدًا، والطقس ليس باردًا، قد تكون درجة الحرارة 26 مئوية».

لحسن الحظ، نمتُ مرتديًا ملابسي. انتعلتُ حذاءً، ورحتُ أركضُ مع الكولونيل إلى الصف. انزلقتُ في مقعدي قبل بدء الدرس بعشرين ثانية. في منتصف الحصّة، استدارت مدام أومالي لتكتب على اللوح شيئًا ما باللغة الفرنسية، فاستغلّت ألاسكا الفرصة لتُمرّرَ لي ورقةً كتبَت

عليها: جميل جدًا، شعرُك المنفوش. المذاكرة في الماكدونالدز وقت الغداء؟

كان أول امتحان مهم في علم المثلثات بعد يومين فقط، لذلك، جمعَت ألاسكا ستة من الطلاب غير الأسبوعيين المعنيين بهذا الامتحان، وكدّسَتهم في سيارتها الصغيرة الزرقاء. لحسن الحظ، شاءت الصدفة، أن تجلس على ركبتيّ فتاةٌ جميلةٌ في السنة الأولى، اسمها لارا. وُلدَت لارا في روسيا أو في بلدٍ أجنبيٍّ ما، لذلك، كانت تتكلّم لغتنا بلهجةٍ خفيفة. لم تكن تفصل بيني وبينها سوى أربع طبقات من الملابس، فانتهزتُ الفرصة وقدّمتُ نفسي.

قالت مبتسمةً: «أعرفُ من أنت، أنت صديق ألاسكا القادم من فلوريدا».

فأجبتُ: «نعم، وتوقّعي الكثير من الأسئلة الغبية، فأنا سيّئٌ جدًا في المثلّثات».

كانت لارا تهمُّ بالإجابة، عندما قُذفَت إلى الخلف، واستقرّت على صدري جرّاء إقلاع ألاسكا العنيف وهي تخرج بسيارتها من المرآب.

- يا شباب، أقدِّم لكم الليمونة الزرقاء. أيتها الليمونة أُقدِّم لك الشباب. إذا استطعتم إيجاد أحزمة الأمان، اربطوها، وأنت يا بدين، ستكون حزام أمان لارا.

عوّضت ألاسكا سرعة السيارة المحدودة برفضها رفع قدمها عن دوّاسة الوقود، ضاربةً عرض الحائط بالنتائج التي قد تترتّب عن ذلك. وقبل أن نغادر الحرم المدرسيّ، كانت لارا تترنّح عند كل منعطف عاجزةً عن التوازن، فعملتُ بنصيحة ألاسكا وطوّقتُها من الخصر.

قالت بصوت خافت أشبه بالهمس: «شكرًا».

بعد أن قطعنا مسافة الخمسة كيلومترات التي تفصلنا عن الماكدونالدز بسرعة كبيرة، لكي لا أقول طائشة، طلبنا سبع حصصٍ كبيرة من البطاطس المقلية لنا جميعًا، ومن ثمّ جلسنا على العشب متحلّقين حولها، بينما راحت ألاسكا تُلقي علينا درسًا في المثلثات وهي تدخن وتأكل في الوقت نفسه.

مثل كلّ أستاذٍ جيدٍ يتقن مادّته، لم تكن تسمح بالاعتراض إلّا قليلًا جدًا. دخّنَت وتكلّمَت وأكلَت من دون توقُّف طيلة ساعةٍ كاملة، كنتُ خلالها أدوّن الملاحظات في مذكّرتي، فبدأت تصفو شيئًا فشيئًا مياهُ خطوط ظلال الزوايا والجياب الهندسيّة العكرة في ذهني. ولكنّ الحظّ لم يحالف الجميع مثلما حالفني.

مرّت ألاسكا سريعًا على نقطةٍ بديهيةٍ تتعلّقُ بالمعادلات الخطية، عندما قاطعها هانك وولستن، لاعب كرة السلة الدائخ على الدوام: «مهلًا، مهلًا، لم أفهم».

- لأنه لم يبق سوى ثماني خلايا صالحة للعمل في دماغك.

أجابها هانك: «تثبتُ الدراسات العلمية أن الماريجوانا أفضل للصحة من تلك السجائر التي تدخنينها».

ابتلعت ألاسكا لقمة البطاطس التي كانت تمضغها، ومن ثمّ مصّت سيجارتها طويلًا، ونفثت الدخان في وجه هانك. وقالت: «قد أموت في ريعان الشباب، لكنّني على الأقل، لن أموت غبية. أمّا الآن، فلنعُد إلى ظلال الزوايا».

قبل مئة يوم

- لا شك في أنّ هذا السؤال قد طُرح عليكِ مئات المرات، ولكن لماذا هذا الاسم، «ألاسكا»؟

كنتُ قد استلمتُ لتوّي نتيجة الامتحان في مادة المثلثات، وكنتُ مغمورًا بمشاعر الإعجاب والامتنان نحو ألاسكا، التي مهّدت لي دروسُها الخاصة الطريقَ نحو الحصول على درجة B+. كنّا نجلس في قاعة التلفزيون ونشاهد قناة Music TV، ذات يومٍ كئيبٍ من أيام السبت الغائمة. كانت القاعة تعجُّ بالكنبات التي تخلّت عنها أجيالٌ سابقةٌ من طلاب كالڤر كريك، وتخيّم فيها رائحةُ مزيجٍ من الغبار والعفَن. ولعلّ ذلك كان السبب الذي جعل الطلاب يرغبون عنها ولا يرتادونها إلّا نادرًا. شربَت ألاسكا جرعةً من الليموناضة وأخذَت يدي بين يديها.

هذا هو السؤال الذي لا يمكن تجنُّبه. حسنًا، عندما كنت طفلةً، كانت والدتي هيبّية، أو شيئًا من هذا القبيل. كما تعلم، النساء اللواتي يرتدين كنزات فضفاضة من حياكتهنّ، ولا تفارق سيجارة الماريجوانا شفاههن، وهلمّ جرّا. أما والدي فكان جمهوريًا عتيدًا، لذلك، عندما وُلدتُ، أرادت والدتي أن تُسمّيني، هارموني سبرينغز يونغ، وأراد لي والدي اسم ماري فرنسيس يونغ.

كانت تتكلم وترجّح رأسها من أمام إلى خلف على إيقاع الموسيقى، على الرغم من أن الأغنية التي كانت تبثها قناة MTV، تنتمي إلى الطقاطيق التجارية التي كانت تكرهها ألاسكا على حدّ زعمها.

وأكملت: «إذًا، بدل تسميتي هارموني أو ماري، قرّرا ترك أمر اختيار الاسم لي. لذلك، في طفولتي الأولى، كان اسمي ماري، أقصد، ليس بالنسبة لوالديّ، ولكن لاستكمال الإجراءات الإدارية، كالتسجيل في المدرسة وهذا النوع من الشكليات، كانا يكتبان ماري يونغ. وفي عيد ميلادي السابع، كانت هديتي اختيار الاسم الذي أريد. جميل، أليس كذلك؟ إذًا، فقد أمضيت ذلك اليوم بأكمله، أبحث في مجسّم الكرة الأرضية عن اسمٍ

لطيف. في البداية، وقع اختياري على تشاد، ذلك البلد الأفريقي، لكنّ والدي قال إن الاسم مذكر ولا يناسب البنات، فاخترتُ ألاسكا».

ليت والداي تركا لي قرار اختيار اسمي. لكنهما لم يبذلا جهدًا كبيرًا، فسمّياني مايلز، وهو الاسم الوحيد الذي يطلقه آل هالتر على البكر من الذكور منذ مئة عام. وسألتُها مجدّدًا: «لكن لماذا ألاسكا بالذات؟».

ابتسمت رافعةً زاوية فمها اليمنى: «حسنًا، في وقتٍ لاحق، اكتشفت معنى هذا الاسم. ألاسكا مشتق من كلمة في اللغة الأليوتية، أليسكا، التي تعني «المكان الذي تتكسّر عليه أمواج البحر»، وقد أحببتُ ذلك. ولكن عندما اخترتُ ألاسكا اسمًا لي، لم أر سوى أنه كان في قمّة مجسّم الكرة الأرضية، وكان كبيرًا، كما كنتُ أريد أن أكون بالضبط. كان أيضًا بعيدًا جدًا عن بلدتي ڤاين ستيشن، ألاباما، كما كنتُ أريد أن أكون بالضبط».

ضحكتُ. وقلتُ مبتسمًا: «ها أنتِ الآن قد كبرتِ، وبعيدًا عن بلدتكِ، أهنّئكِ». توقّفَت، وما عادت ترجّح رأسها كما كانت تفعل للتوّ، ومن ثمّ حرّرَت يدي التي لسوء الحظ، بلّلها العرق.

قالت بجدّية وهي تنظر إليّ كما لوكنت أعرف الحلّ ولا أريدها أن تعرفه: «ليس الخلاص بالأمر السهل»، ومن ثمّ فجأةً، غيّرَت موضوع الحديث جذريًا. «أتعرف ما أريد أن أكون بعد تخرّجي من الجامعة؟ مدرِّسة للأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة. أنا مدرِّسة جيدة، أليس كذلك؟ يا إلهي، إذا كنتُ قادرةً على تعليمك المثلثات، فهذا يعني أنّني قادرةٌ على تعليم أيّ شيء لأيٍّ كان، كالأطفال الذين يعانون من التوحُّد على سبيل المثال».

كانت تتكلم بهدوء وتفَكُّر، كما لو أنها تفشي سرًا، ومن ثمّ مِلتُ نحوها، يغمرني فجأةً اليقين بأننا سنتبادل قبلةً لا محالة، الآن، وهنا، على

هذه الكنبة البرتقالية التي راكمَت عقودًا من الغبار وحروق السجائر. ولو لم تُقوِّض سحرَ اللحظة بطرفة عين، لقرّبتُ وجهي من وجهها، ولمِلتُ به قليلًا متجنّبًا أنفها المستقيم، وشعَرتُ بصدمة شفتيها الطريّتين. لكنّها فعلَت.

«لا»، قالت، وللوهلة الأولى، لم أعرف إن كانت تُجيب نفسها بصوت مسموع، أم أنها قرأت أفكاري. ومن ثمّ ابتعدَت، ولعلّها كانت تخاطب نفسها، إذ قالت بصوت هادئ رقيق: «رباه، ما بالي أفعل كأولئك الذين يقضون أوقاتهم في قول ما يريدون فعله. سأفعل وحسب، فتخيُّل المستقبل ضربٌ من ضروب الحنين».

سألتها ولم أفقه من كلامها شيئًا: «ماذا؟».

- تقضي حياتك سجين المتاهة، تائهًا تفكّرُ في كيفية خلاصك وخروجك منها ذات يوم، وكم سيكون ذلك اليوم رائعًا. لا شك أنّ تخيُّل المستقبل يساعدك على الاستمرار، لكنّه يمنعك من الفعل. كلُّ ما تفعله، هو أنك تستعمل المستقبل للهروب من الحاضر.

كان ذلك منطقيًا. لقد تخيّلت الحياة في كالڤر كريك أكثر تشويقًا ممّا كانت. لم تكن مغامرةً بقدر ما كانت مجموعة من الواجبات، لكنني لو لم أتخيّلها مشوّقةً، لما دخلتُ كالڤر كريك قط.

عادت تشاهد التلفزيون الذي كان يبث إعلانًا تجاريًا لماركة إحدى السيارات، فقالت مازحةً إن ليمونتها الزرقاء تستحق إعلانًا خاصًا بها، ومن ثمّ راحت تُقلّدُ صوت الإعلانات الرخيم قائلةً: «إنها صغيرة، بطيئة، قبيحة، لكنها تعمل».

كنتُ أريد معرفة المزيد عنها، وعن بلدتها ڤاين ستيشن، وعن المستقبل.

قلتُ: «أحيانًا، يصعبُ عليّ فهمُكِ».

لم تلتفِتْ إليّ حتى. اكتفت بالابتسام لشاشة التلفزيون وقالت: «لن تفهمَني أبدًا. وهذا لبّ الموضوع».

قبل تسعة وتسعين يومًا

قضيت القسط الأعظم من اليوم التالي مستلقيًا على السرير، غارقًا في عالم «إيتان فروم» الخياليّ والمفرط في تفاهته، بينما كان الكولونيل يجلس إلى طاولة مكتبه منهمكًا في حلّ ألغاز المعادلات التفاضلية، أو في شيءٍ من هذا القبيل. على الرغم من تخفيض عدد استراحاتنا للتدخين في الحمام، فقد استهلكنا مخزوننا منها قبل حلول الظلام. لذلك، لم يكن ثمّة مهربٌ من القيام برحلةٍ إلى غرفة ألاسكا. وجدناها مستلقيةً على الأرض تقرأ كتابًا، وتمسكه مرفوعًا فوق رأسها.

قال الكولونيل: «تعالي ندخّن».

سألت من دون أن ترفع نظرها عن الكتاب: «لم يعُد لديك سجائر، أليس كذلك؟».

- صحيح.

- معك خمسة دولارات؟

- لا.

- وأنت يا بدين؟

قلت: «نعم». أخرجتُ ورقةً نقديةً من قعر جيبي، ومدّت لي ألاسكا علبة مارلبورو لايت. كنتُ أعرف أنّني لن أُدخِّن منها سوى خمس سجائر في أفضل الأحوال، ولكن طالما كنتُ أُموِّل حاجة الكولونيل إلى التدخين،

لم يكن بوسعه أن يهاجمني ويعتبرني واحدًا من أولئك الأسبوعيين الأثرياء، مع فارقٍ بسيط، وهو أنني لم أكن أسكن في برمنغهام.

رافقنا تاكومي وذهبنا إلى البحيرة، كنّا نضحك ونحن نتخفّى خلف الأشجار. ومن ثمّ راح الكولونيل ينفث دخان سيجارته في دوائر وصفَها تاكومي بالمغرورة، بينما أخذت ألاسكا تلاحقها لتخِزها بأصابعها كما يفعل الأطفال بفقاعات الصابون.

فجأةً، سمعنا صوت طقطقة غصنٍ ينكسر. ظننّاه وعلًا، إلى أن أطلق الكولونيل ساقيه للريح، وسمعنا خلفنا مباشرةً صوتًا يقول: «لا تركض يا تشيپ»، فتوقّف الكولونيل، وعاد أدراجه وهو يُطرق خجلًا.

تقدّم النسر نحونا بخطىً وئيدةٍ وهو يزمُّ شفتيه قرفًا. كان كعادته يرتدي قميصًا أبيض وربطة عنقٍ سوداء، ومن ثمّ رمانا فردًا فردًا بتلك النظرة القاتلة.

قال: «تفوح منكم رائحة حريقٍ شبّ في حقلٍ من التبغ».

وقفنا صامتين لا ننبس ببنت شفة. لكنني مقارنةً بالآخرين كنتُ أموت رعبًا، كما لو قُبض عليّ متلبسًا بارتكاب جريمة قتل. تُرى، هل سيتّصل بوالديّ؟

أعلن قبل أن يذهب: «سوف أنتظركم أمام هيئة المحلّفين غدًا، بتمام الساعة الخامسة»، انحنت ألاسكا لتلتقط السيجارة التي رمتها على الأرض، وعادت تدخّن.

لكنّ النسر برز ثانيةً مدفوعًا بحاسّته السادسة التي استشعرَت أنّ ثمّة من كان يتمرّد على رموز السلطة، فما كان من ألاسكا إلّا أن رمَت سيجارتها وسحقتها تحت قدمها. هزّ النسر رأسه، وكان يُفترض به أن يستشيط غضبًا، لكنني أُقسمُ أنّه ابتسم.

قالت ألاسكا في طريق عودتنا إلى دائرة مباني السكن: «إنه يحبُّني، إنه يحبُكم جميعًا، لكنه يحبُّ المدرسة أكثر. تلك هي المسألة. يظنُّ أنّ معاقبتنا خيرٌ للمدرسة، وخيرٌ لنا. إنه الصراع الأبديُّ يا بدين. الخير ضدّ الشر».

قلتُ: «كفتاةٍ ضُبطت لتوّها وهي تدخّن، وتعرفُ أنها ستُعاقَب، أجدُك تُفلسِفين الأمر إلى حدٍّ بعيد».

- يحدثُ أن تخسر معركةً. لكنّ الشرّ يكسب الحرب دائمًا.

قبل ثمانية وتسعين يومًا

تُعدُّ هيئة المحلّفين واحدةً من المظاهر الفريدة في مدرسة كالقر كريك. فكلّ ستة أشهر، يختار مجلس المدرّسين اثني عشر طالبًا، بمعدّل ثلاثة طلاب عن كل صف، لكي يكونوا جزءًا من هيئة المحلّفين. كانت هذه الهيئة مكلّفة بمعاقبة مرتكبي المخالفات التي لا تستدعي الطرد، والتي تتراوح بين العودة إلى الحرم بعد حظر التجول، والتدخين. في أغلب الأحيان، كانت هذه المخالفات تقتصر على التدخين، أو التواجد في غرفة فتاة بعد السابعة مساءً. إذًا، كان الطلاب المخالفون يمثُلون أمام الهيئة ويدافعون عن أنفسهم، ومن ثمّ تُصدر الهيئة حُكمها بعد الاستماع إليهم. كان النسر يشغل منصب الرئيس ويحق له نقض قرار الهيئة، على غرار النظام القضائي الأميركي تمامًا. لكنه لم يكن يفعل ذلك إلّا نادرًا، إن لم يكن أبدًا.

ما إن انتهى درسي الأخير، حتى توجّهتُ إلى القاعة رقم 4. وصلتُ قبل بدء الجلسة بأربعين دقيقة تحسُّبًا لأيّ طارئ. جلستُ في الممر مستندًا إلى الجدار، ورحتُ أقرأ في كتاب التاريخ الأميركي، إلى أن جاءت

ألاسكا، وجلست بجانبي. كانت تلوك شفتها، فسألتُها إن كانت تشعر بالقلق.

- في الحقيقة، نعم، أشعرُ بالقلق. ولكن اسمعْ، كلُّ ما عليك فعله، هو أن تجلس ولا تتكلّم، لا يفيد القلق في شيء. ولكنها المرة السابعة التي أمثُل فيها أمام الهيئة بسبب التدخين. فقط لا أريد.. لا أريد إغضاب والدي.

- والدتُكِ، هل تدخّن؟

- لا، لم تعُد تُدخّن، لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام.

في 4:50، بدأت تتنازعُني مشاعر القلق على نحوٍ جديّ. لم يكن الكولونيل وتاكومي قد وصلا بعد. دخل أعضاء هيئة المحلّفين الواحد تلو الآخر، لكنّ أحدًا لم يُلقِ عليّ نظرةً واحدة، ما جعل حالتي تزداد سوءًا. في 4:56 دقيقة، اكتمل النصاب، فقد أحصيتُ اثني عشر طالبًا بالإضافة إلى النسر.

في 4:58 دقيقة ظهر الكولونيل وتاكومي في الممرّ.

لم يسبق لي أن رأيت مشهدًا مماثلًا، كان تاكومي يرتدي قميصًا أبيض منشًى وربطة عنق حمراء مزركشة برسوم الكشمير السوداء، ويرتدي الكولونيل قميصه الوردي المجعّد وربطة عنقه المزركشة بطيور الفلامينغو الورديّة. كانا يمشيان بإيقاع منتظم وقامتاهما منتصبتان، على غرار أبطال أفلام المغامرات.

سمعتُ ألاسكا تتنهّد قائلةً: «ها هو الكولونيل يُقلِّدُ مشية نابوليون».

قال لي الكولونيل: «الأمور بخير، فقط أغلق فمك ولا تقُل شيئًا». دخلنا نحن الأربعة - اثنان، يرتديان ربطة عنق، واثنان، يرتديان تي شيرت في حالةٍ مزرية - فهوى النسر بمطرقته الخشبية على المنبر أمامه. كان

المحلّفون يجلسون صفًا واحدًا خلف طاولة مستطيلة الشكل، وفي مقدّمة القاعة، كانت تنتظرنا أربع كراسٍ. جلسنا، وراح الكولونيل يروي ما حدث بالضبط: «كنتُ أنا وألاسكا ندخّن بالقرب من البحيرة. عادةً، نخرج من الحرم المدرسي، لكننا هذه المرة نسينا. نقدّم لكم اعتذارنا، ونعدكم بألّا يتكرّر ذلك».

لم أكن أفهم ما الذي كان يدور من حولي. لكنّني كنتُ أحفظ دوري جيدًا، وهو أن أجلس ساكنًا وأُغلق فمي. نظر أحد الطلاب إلى تاكومي وسأله: «ماذا بشأنكما، أنت وهالتر؟».

قال تاكومي بنبرة هادئة: «كنا نرافقهما».

التفت الطالب إلى النسر وسأله: «هل رأيت أحدهم يدخِّن؟».

قال النسر وهو يرمقني بنظرته القاتلة: «لم أرَ سوى ألاسكا، لكن تشيپ لاذ بالفرار، وصدمني سلوكه الجبان، تمامًا كسلوك مايلز وتاكومي المسكين أمامنا الآن». لم أكن أريد الظهور بمظهر المذنب، لكنني لم أستطع النظر في عينيه، فأطرقتُ ورحتُ أحدِّقُ إلى يديّ.

صرّ الكولونيل على أسنانه، كما لو أنه يكذب على مضض: «إنها الحقيقة يا سيدي».

سألنا النسرُ إن كان لدينا ما نضيفه، ومن ثمّ سألَ المحلّفين إن كان لديهم المزيد من الأسئلة. بعد ذلك، أرسلَنا خارج القاعة.

- سألتُ تاكومي بعد أن أصبحنا خارجًا: «ما هذه المهزلة؟».

- أغلق فمك يا بدين.

لماذا اعترفت ألاسكا، على الرغم من معاناتها مرّات عدة إثر وقوعها في هذا النوع من المتاعب؟ ولماذا اعترف الكولونيل أيضًا، خصوصًا أنّ وضعه العائلي لا يسمح له بارتكاب أي حماقة؟ لماذا كان عليّ أن أجلس

وأغلق فمي؟ لم تكن في سجلّي أي سابقة، وكنتُ الأقلّ عرضةً للخطر. بعد دقائق قليلة، خرج النسر وأشار إلينا بالعودة إلى القاعة.

قال أحد المحلّفين: «ألاسكا وتشيپ، حُكِمَ عليكما بعشر ساعات عمل. سوف تكون مهمّتكما غسل الصحون في الكافتيريا. ومن الآن فصاعدًا، لدى أوّل مخالفة، سيُصار إلى الاتصال بذويكما. أمّا تاكومي ومايلز، فلا يوجد في القانون الداخلي ما يدينُ النظر إلى أحدهم وهو يدخّن، لكن الهيئة ستتذكّر هذه الحادثة إذا خرقتما القانون مجدّدًا. هل تعتبرون الحكمَ منصِفًا؟».

أجابت ألاسكا على الفور: «منصِف»، وقد بدت عليها علامات الارتياح. كنتُ أهمُّ بالخروج، عندما أمسك بي النسر وأدارني نحوه: «لا تفرِّط بالامتيازات التي تمنحك إياها هذه المدرسة أيها الشاب، وإلّا جعلتُك تندم على ذلك». أومأتُ موافقًا بإشارة من رأسي.

قبل تسعة وثمانين يومًا

قالت لي ألاسكا: «لقد وجدنا لك صديقةً»، مع ذلك، لم يشرح لي أحدٌ شيئًا عن تلك المهزلة التي دارت الأسبوعَ الماضي أمام هيئةِ المحلّفين. ولم يكن باديًا أنها أثّرت في ألاسكا. فقد كانت: أوّلًا، في غرفتنا المغلقة بعد حلول الظلام، وثانيًا، كانت تدخّن. بعد أن جلست على الكنبة التي لم يتبقّ منها غير الحشوة الإسفنجية، وحشرت منشفةً تحت الباب، وأكّدت عدم وجود أيّ خطر. لكنّني كنتُ قلقًا لسببين: السيجارة، و«الصديقة».

- ما عليّ فعله الآن، هو إقناعك بها، وإقناعها بك.

نوّه الكولونيل: «مهمّتان شائكتان»، بينما كان جالسًا على سريره العُلوي يقرأ رواية موبي ديك، كواجب منزلي في إطار مادّة الأدب الإنكليزي.

«كيف تستطيع القراءة والكلام في الوقت نفسه؟».

- عادةً، لا أستطيع، ولكن لا الرواية ولا الحديث يحتاجان إلى جهدٍ عقليٍّ خاص.

قالت ألاسكا: «أحبّ هذه الرواية».

ابتسم الكولونيل ومال على حافة سريره لينظر إليها، ومن ثمّ قال بنبرةٍ ساخرة: «أجل، بالتأكيد أنكِ تحبّينها، فالحوت الأبيض مجازٌ ينطبق على كلّ شيء. أليست حياتكِ كلّها مجازات طنّانة؟».

لم يكن ما قاله الكولونيل ليُفقدَ ألاسكا رباطة جأشها. قالت: «وأنت يا بدين، ما رأيك في كتلة الاتحاد السوفياتي السابقة؟».

- امممم، هل أؤيدها؟

نفضت رماد سيجارتها في الكوب الذي أضع فيه أقلامي، كدتُ أستنكرُ، ولكن ما الجدوى؟ فسألتني ألاسكا: «هل تذكُرُ تلك الفتاة التي تحضرُ معنا درس المثلثات، وتتكلّم لغتنا بلهجةٍ خفيفة؟».

- نعم، لارا، لقد جلسَت في حضني عندما ذهبنا إلى الماكدونالدز.

- صحيح. أنت تعجبُها. إن كنتَ تعتقدُ بأنها كانت تجلس هناك بكل وداعة، وتناقش في عِلم المثلثات، فأنت مخطئ، لم تكن تُفكّر إلّا في ممارسة الجنس معك كالمجنونة. لذلك، أنت بحاجةٍ إليّ.

قال الكولونيل من دون أن يرفع نظره عن روايته: «نهداها بديعان».

صرخت فيه ألاسكا: «لا تختصِر المرأة إلى مجرّد جسد!».

- آسف. نهداها بارزان.

- هذا ليس أفضل!

- بل بالتأكيد أنه أفضل، فمفردة بديعان تعبّر عن حكم ونقد بخصوص جسد امرأة، بينما مفردة بارزان ليست سوى ملاحظة موضوعية. أمّا بشأن البروز، نعم، إنهما بارزان جدًا. اللعنة.

- أنت ميؤوسٌ منك، المهم هو أنها تجدك وسيمًا يا بدين.

- عظيم.

- هذا لا يعني شيئًا. مشكلتُك، هي أنّك لو كلّمتَها ستُفسد كلّ شيء بتأتأتك.

دافع عني الكولونيل مقاطعًا ألاسكا: «لا تقسي عليه كثيرًا»، كما لو كان أمّي. ومن ثمّ قال مخاطبًا روايته، «اللعنة، لقد فهمتُ كل شيء عن تشريح الحيتان، أما آن لك أن تتقدّم في السرد، سيد هرمان ملفيل*؟».

- سوف يكون جايك في برمنغهام نهاية هذا الأسبوع، بوسعنا ترتيب موعدٍ غراميٍّ ثلاثيّ. الأصح، ثلاثي ونصف، ما دام تاكومي سيأتي أيضًا. تصرّفْ مع لارا من دون مبالغة يا بدين، إذ يمكنك أن تُفسدَ كل شيء. على كل حال، سأكون حاضرةً طيلة الوقت.

- موافق.

سأل الكولونيل: «من التي سترافقني إلى الموعد؟».

- صديقتك.

قال من دون أن يحوِّل نظره عن الكتاب: «حسنًا، لكنّنا لسنا على وفاق».

- إذًا، نلتقي يوم الجمعة؟ هل لديكما أية مشاريع ليوم الجمعة؟ ضحكتُ، فلا أنا ولا الكولونيل كانت لدينا مشاريع ليوم الجمعة هذا، أو لأيّ يوم جمعةٍ آخر طيلة ما تبقّى لنا من العمر في هذه الحياة.

---

* مؤلِّف رواية موبي ديك.

ابتسمت وقالت: «كنتُ متأكدةً من ذلك. والآن تشيپ، حان وقتُ الذهاب إلى الكافيتيريا لغسل الصحون. اللعنة، ما الذي يرغمني على تحمُّل كل هذه التضحيات!».

قبل سبعة وثمانين يومًا

بدأ الموعد على نحوٍ لا بأس به، فقد وافقت ألاسكا على كيِّ قميصي الأخضر كجزءٍ من مساعيها الرامية إلى إيجاد صديقةٍ لي. كنتُ في غرفتها عندما ظهر جايك عند الباب. بشعره الأشقر الذي يصل حتى كتفيه، وجذامة لحيته السوداء، وتلك الخشونة الزائفة التي تليق بعارض أزياء، كان جايك شابًا في غاية الوسامة، كما يجدر بحبيب ألاسكا أن يكون. قفزَت وتعلّقت بعنقه وهي تعقدُ ساقيها حول جسده، فقلتُ في نفسي، أرجو اللّه ألّا يحدث لي ذلك، وإلّا انقلبتُ على قفاي. كنتُ قد سمعتُ ألاسكا تتحدث عن التقبيل، لكنني لم أرها تفعل ذلك قط. أمسكها جايك من خصرها، فانحنت عليه مُمَيّلةً رأسها قليلًا، وبشفتيها المفترّتين أطبقَت على شفتيه، وراحت تلتهمهما بنهمٍ جعلني أشعرُ بالحرج. أردتُ الإشاحة بوجهي جانبًا، لكنّني لم أستطع. بعد برهةٍ ليست بالقصيرة، تحرّرَت من ذلك العناق وقدّمتني.

قالت: «أُعرِّفُك إلى البدين»، ومن ثمّ تصافحت أنا وجايك.

كان يتكلّم بلهجةٍ جنوبيّةٍ خفيفة، كالتي سمعتها أمام الماكدونالدز في أكثر من مناسبة: «لقد سمعتُ الكثير عنك. أرجو أن توفّق في موعدك هذا المساء، إذ لا أريدك أن تخطف مني ألاسكا وأنا أتفرّج».

قالت ألاسكا: «يا إلهي ما أجملك»، وعادت تقبّله قبل أن أتمكّن من الإجابة. «آسفة. يبدو أنني لا أستطيع التوقُّف عن تقبيل حبيبي».

ارتديت قميصي الأخضر المنشّى والمكوي للتوّ، وذهبنا نحن الثلاثة لإحضار الكولونيل، وسارة، ولارا، وتاكومي. اتجهنا جميعًا إلى النادي الرياضي لمشاهدة المباراة بين أصفار كالڤر كريك، وأكاديمية هارسدن، وهي مدرسة خارجية خاصة تقع في ماونتن بروك، التي تُعدُّ أغنى ضواحي برمنغهام. كان حقدُ الكولونيل على هارسدن يتّقدُ كألف شمس، فقد قال لي ونحن في الطريق إلى النادي الرياضي «إن الوحيدين الذين أكرهم أكثر من الأثرياء، هم الأغبياء. وكلُّ طلاب هارسدن أثرياء، وأغبى من أن يتمكّنوا من متابعة دراستهم في كالڤر كريك».

بما أن الأمر كان يتعلّق بموعدٍ غراميّ، فكّرتُ أنه من المستحسن أن أجلس بجانب لارا في أثناء المباراة، فاتجهتُ إلى حيث جلسَت في المدرّج، غير أن ألاسكا نظرت إليّ وربّتَت على المقعد الفارغ بجانبها.

- ألا يحقُّ لي الجلوس بجانب الفتاة التي ترافقني؟

- يا بدين، أنا فتاة منذ الولادة أما أنت فلم تلامس ثدي فتاة حتى الآن. فلو كنت مكانك لجلستُ وبدوتُ لطيفًا وأظهرتُ رصانة وجدّية.

- حسنًا، كما تشائين.

قال جايك: «هذا يشبهُ إلى حدٍّ بعيد استراتيجيتي مع ألاسكا».

فقالت: «آه، ما أجملك!» ومن ثمّ توجّهت إليّ: «بالمناسبة يا بدين، هل أخبرتُك أن جايك يسجّل ألبومًا مع فرقته الموسيقية؟ إنهم رائعون. إنهم أشبه بمزيج من (Radiohead) و (the Flaming Lips). هل أخبرتُك أيضًا أنني اخترتُ اسم فرقتهم، (Hickman Territory)؟» وبما أنها لاحظت أنها تقول أشياء سخيفة، قالت: «هل أخبرتُك أن جايك فحلٌ لا يحسدُ الحصان على شيء، وعاشقٌ شهوانيٌّ جميل؟».

قال جايك مبتسمًا: «حبيبتي، بحق يسوع، لا تتحدّثي عن هذه الأشياء أمام الأطفال».

وددتُ أن أكرهه، بالطبع، لكنني عندما رأيتهما يتبادلان الابتسامات والمداعبات، لم أستطع. ودَدتُ أن أكون هو، بالتأكيد، لكنني حاولتُ أن أتذكّر أنني كنتُ في موعدٍ مع فتاةٍ أخرى غير ألاسكا. كان نجم فريق أكاديمية هارسدن عملاقًا، طوله متران يُدعى تريفيس إيستمان، وكان يلقّبه الجميع، حتى أمّه بحسب ظنّي، بالوحش. عندما اقترب الوحش من خط الرمية الحرة، لم يتمكّن الكولونيل من ردع نفسه عن شتمه واستفزازه:

«لولا البابا لما كنت تساوي شيئًا أيها الفلّاح الغبي».

استدار الوحش وحملق في الكولونيل الذي كاد أن يُطرد من النادي الرياضي بعد الرمية الحرّة الثالثة، لكنه ابتسم للحكَم وقال: «آسف!».

اعترف لي: «أريد البقاء لفترة أطول هذه المرة، لذلك اعتذرتُ».

في بداية النصف الثاني من المباراة، كانت كالڤر كريك تخسر بفارق ضئيل من 24 نقطة فقط، على غير العادة، والوحش يتأهّب لرميةٍ حرة. نظر الكولونيل إلى تاكومي وقال: «الآن». وقف الاثنان، وعلى الفور راح الجمهور يصيح «هسسسسسسسس...»

ومن ثمّ صرخ الكولونيل موجهًا كلامه إلى الوحش: «لا أعرف إن كانت اللحظةُ مناسبةً لأخبرك بأنّ تاكومي هذا، نام لتوّه مع صديقتك قبل المباراة تمامًا».

غرق الجمهور كلّه في الضحك، باستثناء الوحش الذي ترك خط الرمي، ومشى نحونا بهدوء متأبّطًا الكرة.

قال تاكومي: «أعتقد أنّ لحظة الهرب قد حانت».

أجابه الكولونيل: «لم أُطرَد بعد».

ردّ عليه تاكومي: «ليس وقت هذا الهراء الآن».

لست أدري إن كان شعور القلق الذي استبدّ بي ناتجًا عن احتمال نجاحي من عدمه، في نيل إعجاب لارا إثر هذا الموعد، على الرغم من أنها كانت تجلس على مسافة خمسة مقاعد مني، أم كان ناتجًا عن طريقة الوحش في التحديق باتجاهي. ولكن لسببٍ كنتُ أجهله، نهضتُ ورحتُ أركض خلف تاكومي. كنتُ أظنُّ أننا نجونا عندما وصلنا إلى أسفل المدرّج وصرنا على وشك الخروج. لكنّني في تلك اللحظة، رأيت بطرف عيني جسمًا كرويًا طائرًا برتقاليّ اللون يكبرُ أكثر فأكثر، مثل شمسٍ تقترب منّي بسرعة هائلة.

قلتُ في نفسي: أعتقد أنّ هذا الشيء سيصيبني. ربما ينبغي لي أن أخفض رأسي.

ولكن بين لحظة التفكير ولحظة الفعل، صدمت الكرة صدغي. سقطتُ وارتطم رأسي بأرضية الصالة. نهضتُ على الفور، كما لو أنني لم أُصَب بأي سوء، وخرجت.

سمحَت لي كبريائي بالنهوض عن الأرض كأنّ شيئًا لم يكن، ولكن ما إن غدوتُ في الخارج، حتى تهالكتُ جالسًا.

أعلنتُ: «لقد أُصبتُ بارتجاجٍ في الدماغ». كنتُ واثقًا كليًا في تشخيصي.

سألني تاكومي الذي عاد أدراجه راكضًا نحوي: «أنت بخير؟ فلنترك هذا المكان قبل أن نُقتل».

قلتُ: «أعذرني، لكنني لا أقوى على النهوض. أعاني من ارتجاجٍ في الدماغ».

جاءت لارا تركض نحوي وجلسَت بجانبي.

- هل أنت بخير؟

قلتُ: «لقد أُصبتُ بارتجاجٍ في الدماغ».

جلس تاكومي ونظر في عينيّ مباشرةً وسألني: «هل تعرف ما الذي حدث لك؟».

- نال مني الوحش.

- هل تعرف أين أنت؟

- أنا في موعد ثلاثي ونصف.

قال تاكومي: «أنت بخير، هيّا بنا».

ومن ثمّ انحنيت إلى أمام وتقيأت على سروال لارا. لا أعرف لماذا لم أنحنِ إلى الخلف أو أستدِر إلى جانبي. انحنيت إلى أمام وفتحت فمي على سروالها الجينز. ذلك النوع الذي ترتديه الفتيات عندما ترغبن في إظهار جمالهنّ من دون أن يبدو ذلك متعمّدًا، وأنا ماذا فعلت؟ أفرغت أحشائي كلها عليه.

بالمجمل، كان خليطًا من زبدة الفول السوداني بشكلٍ أساسيّ وبعض الذرة.

قالت: «أوه!»، بشيءٍ من القرف والصدمة.

قلتُ: «اللعنة، أنا آسف».

قال تاكومي: «أعتقد أنك تعاني من ارتجاجٍ في الدماغ»، كما لو أنّ الفكرة لم تخطر في بال أحد.

كرّرتُ: «أشعر بالدوار والغثيان، ما يؤكّد إصابتي بارتجاجٍ حميدٍ في الدماغ»، وتمدّدتُ على الرصيف الإسمنتي، بينما ذهب تاكومي لإحضار

النسر، وذهبت لارا لتغيير سروالها. وصل النسر مصحوبًا بالممرضة المدرسية التي شخّصَت، ويا لهول المفاجأة، ارتجاجًا في الدماغ، ومن ثمّ قادني تاكومي إلى المستشفى بسيارته، ورافقتني لارا التي جلست في المقعد الأمامي. في الظاهر، كنتُ أرقدُ في الخلف وأردِّدُ ببطءٍ شديد هذه الكلمات: «الأعراض. عمومًا. ترافق. الارتجاج. في. الدماغ».

هكذا أمضيت الموعد في المستشفى مع تاكومي ولارا. نصحني الطبيب بالعودة إلى البيت والنوم كثيرًا، شرط أن يسهر عليّ أحدهم، ويوقظني كلّ أربع ساعات.

أتذكّر بإبهام لارا الواقفة بالباب، والغرفة الغارقة في الظلام، والسواد المخيّم في الخارج، والإحساس بالراحة وبخدَرٍ لذيذ، والعالم النابض من حولي مثل إيقاعٍ رخيمٍ لآلة وتريّة. أتذكّر بإبهام لارا الواقفة بالباب تبتسم لي، تلك الابتسامة الأنثويّة التي يلفّها غموض ساطع، والتي تبدو واعدةً بجوابٍ لا تعطيه أبدًا. جوابٌ عن السؤال الذي يطرحه جميع الرجال على أنفسهم، ابتداءً من اللحظة التي يكفّون فيها عن النظر بفوقيةٍ إلى النساء، السؤال البسيط: هل تحبُّني أم تستلطفُني فحسب؟ ومن ثمّ غرقتُ في نومٍ عميق إلى أن أيقظني الكولونيل في الثالثة صباحًا.

- لقد تركَتني.

- أنا أعاني من ارتجاج في الدماغ.

- نعم سمعتُ بذلك. أمّا الآن وقد أيقظتُك، ما رأيك بلعبة فيديو؟

- ولكن من دون الصوت، رأسي يؤلمني.

- أوكي. يبدو أنك تقيّأت على لارا. يا للأناقة!

سألتُه بعد أن نهضتُ: «تركَتكَ؟

فقال: «نعم. لقد قالت سارة لجايك إنني أشتهي ألاسكا، وأنتصبُ كلّما رأيتها. قالتها حرفيًا. فأجبتُها: «الحقيقة أنني لا أنتصبُ لأحد في هذه اللحظة، يمكنُك أن تتأكّدي بنفسك إن شئتِ». لا شكّ أن سارة وجَدَت جوابي لها سهلًا جدًا، فقد أضافت أنها على يقين من أنني نمتُ مع ألاسكا. ما أعتبره، بالمناسبة، في غاية السخف. أنا لا أخون أحدًا قط». أخيرًا، انتهى شحنُ لعبة الفيديو التي كانت سباقًا للسيارات المُستعملة في مضمار تالاغيدا، وكنتُ بالكاد أُصغي للكولونيل، إذ كنتُ أقودُ راسمًا دوائر صامتة. كنتُ أشعر بالغثيان نتيجة الدوران المستمرِّ على مضمار السباق، لكنني تابعتُ اللعب.

ومن ثمّ تابع: «باختصار، جُنّ جنون ألاسكا». مُقلّدًا صوتها جاعلًا إياه مُفرطًا في الحدة كالزعيق، ما زاد من ألم رأسي. «يجب ألّا تكذب امرأة قط على حساب امرأة أخرى! لقد خرقتِ ميثاق التضامن المقدّس بين النساء وحطّمتِه! اشرحي لي كيف يمكننا التحرر من سلطة الذكور واضطهادهم لنا إذا كانت كلّ امرأة تخون الأخرى؟!» وهلمّ جرّا. إثر ذلك، تدخّل جايك ودافع عن ألاسكا قائلًا إنها لا تخونه أبدًا، لأنها تحبُّه. عندها، قلتُ له، «لا تكترث لما تقوله سارة، إنها تعشقُ إيذاء الآخرين»، فسألَتني لماذا أقف ضدّها ولا أدافع عنها. ومن ثمّ في لحظةٍ ما، وصفتُها بالعاهرة المجنونة. يبدو أنّ ذلك لم يرُق لها كثيرًا. بعد ذلك، رجَتنا النادلةُ أن نغادر المكان، فخرجنا، وكنّا في مرآب السيارات عندما قالت لي سارة، «اسمع، لقد ضقتُ ذرعًا»، وبما أنني كنتُ أنظر إليها ذاهلًا، أضافَت، «لقد انتهى بيننا كل شيء».

ومن ثمّ صمت. «لقد انتهى بيننا كل شيء؟» كرّرتُ العبارة. شعرتُ أنني كنتُ مشتّتًا، فلم أجد وسيلةً أفضل من ترديد آخر عبارة يقولها الكولونيل مهما كانت، بحيث أحضُّه على الاستمرار في الكلام.

- نعم، هكذا انتهى كل شيء. أتعلم يا بدين؟ إن أسخفَ ما في الأمر، هو أنّ سارة تعنيني حقًا. أقصد، صحيح أن كلينا لا يناسب الآخر، وأنّ علاقتنا يائسة. ولكن. أقصد، لقد قلت لها إنني أحبّها. لقد فقدتُ عذريّتي معها».

- فقدتَ عذريّتَك معها؟

- أجل، أجل. ألم أُخبرك بذلك؟ إنها الفتاة الوحيدة التي نمتُ معها. لا أعرف. صحيح أننا كنا نتشاجر طيلة الوقت، لكنني حزين حقًا.

- أنت حزين حقًا؟

- حزين أكثر ممّا كنتُ أتوقع. أعرف أن النهاية كانت حتمية. لم نستمتع بلحظة سعادة واحدة طوال هذا العام. منذ وصولي إلى كالڤر كريك ونحن نتشاجر بلا انقطاع. كان يجدر بي أن أكون لطيفًا معها. لا أعرف. قصة حزينة.

- قصة حزينة.

- إنه لمن الغباء أن نفتقد شخصًا لا نتفق معه في شيء. ولكن، لا أعرف، كان جميلًا أن تجد بجانبك شخصًا تتشاجر معه دائمًا.

قلتُ: «الشجارُ»، ومن ثمّ حائرًا، أكاد لا أقوى على متابعة اللعب، أضفتُ: «جميلٌ».

- بصراحة، لا أعرف ما ينبغي لي أن أفعل الآن. أقصد، كان وجودها إلى جانبي جميلًا. أنا فتىً أخرق ومجنون يا بدين. ما الذي ينبغي لي فعله؟

قلتُ: «يمكنُك أن تتشاجر معي»، ومن ثمّ وضعتُ مقبضَ التحكّم باللعبة جانبًا، واستلقيتُ على كنبتنا الاسفنجية يقتلُني النعاس. وقبل أن أستسلم للنوم سمعتُ الكولونيل يقول: «كيف تريدُني أن أغضب منك، أيها الوغد المسالم الهزيل؟».

قبل أربعة وثمانين يومًا

بعد مضيِّ ثلاثة أيام، بدأت الأمطار بالهطول. كنتُ ما أزال أعاني من آلام في رأسي، وعلى صدغي الأيسر، ظهرت كدمةٌ كبيرةٌ متورِّمة، تشبه بتقدير الكولونيل خارطةً مصغّرةً لمقدونيا، التي لم أكن أعرف إن كانت اسمًا لمكانٍ ما، فمن أين لي أن أعرف أنها كانت بلدًا. وبينما كنتُ أنا والكولونيل ذلك الإثنين نسير على العشب اليابس، قلتُ: «قليلٌ من المطر لا يضير في شيء»، فرفع نظره إلى السماء الملبّدة بالغيوم المنذرة التي كانت تتقدّم مسرعةً، وقال: «يضير أو لا يضير، بسماءٍ كهذه، أؤكّد لك أن المطر هاطلٌ لا محالة».

لم تُخيِّب السماء ظنّ الكولونيل. كانت حصة اللغة الفرنسية قد بدأت منذ عشرين دقيقة، وكانت مدام أومالي تُصرِّف فعل (صدّقَ) بصيغة المضارع المنصوب. أن أُصدِّق. أن تُصدِّق. أن يُصدِّق أو تُصدِّق. وكانت تعيد وتكرر كما لو أنه كان ترتيلةً بوذيةً وليس فعلًا. كنتُ أقولُ في نفسي، أن أُصدِّق ماذا؟ عندما انهمر المطر.

جاءت الأمطار كلّها دُفعةً واحدةً مثل سيلٍ هادر، كما لو أنّ اللّه كان يستشيط غضبًا ويريد فناءنا غرقًا. يومًا بعد يوم، وليلةً بعد ليلة، لم يتوقّف المطر عن الهطول. كان من الشدّة بحيث لم أكُن أستطيع رؤية المباني السكنية في الجانب الآخر من الدائرة المعشبة، وارتفع منسوب مياه البحيرة حتى لامسَت أسفل الأرجوحة بعد أن غمرَت نصف الشاطئ الاصطناعيّ. في اليوم الثالث، تخلّيتُ عن المظلّة، ورحتُ أتجوّل مبلّلًا على الدوام. في الكافيتيريا، كلّ شيءٍ كان له طعم المطر الحامض، وتفوح منه رائحةُ عفن. حتى الحمّامات أصبحت غير صالحة للاستخدام، فكل ما خلق اللّه على هذه الأرض الملعونة كان ضغط الماء فيه أقوى من ضغط الصنابير.

جعلنا المطرُ نتنسّك جميعًا. خارج أوقات الدوام المدرسيّ، كان الكولونيل يمضي وقته جالسًا على الكنبة، يقرأ في الأطلس ويلعب على البلاي ستيشن. لم أكن أعرف إن كان يرغب في الكلام، أم أنه فقط، يرغب في الجلوس على كومة الإسفنج الأبيض ويحتسي نكتاره بسلام.

بعد كارثة «موعدنا»، وجدتُ أنه من الأفضل ألّا أُكلّم لارا، مهما كانت الأسباب، خشية الإصابة بارتجاج في الدماغ، و/أو بنوبةِ إقياء، مع أنها أكّدَت لي في اليوم التالي، في أثناء درس المثلثات، أنّ ما حدث لم يكن «ذا أهمية».

لم أكن أرى ألاسكا إلّا في الصف ولم أكن أستطيع التحدُّث معها، إذ كانت دائمًا تصل متأخرة، وتذهب ما إن يُقرع الجرس قبل أن يتسنّى لي الوقت لألملمَ أغراضي. مساء اليوم الخامس من هطول المطر المتواصل، قصَدتُ الكافيتيريا، لكنني كنتُ قد حضّرت نفسي للعودة إلى غرفتي على الفور، وتسخين فطيرة بوفريدو، في حال لم أجد ألاسكا أو تاكومي أو الاثنين معًا يتناولان عشاءهما فيها. كنتُ أعرف حقّ المعرفة، أنّ الكولونيل يلازم الغرفة ويحتسي كوكتيل الحليب بالفودكا. لكنني بقيت عندما رأيت ألاسكا تجلس وحيدةً، وتدير ظهرها إلى النافذة المحزّزة بالمطر. أخذتُ طبق بامياء مقليّة وجلستُ بجانبها.

قلتُ: «اللعنة، كأنّ هذا المطر لن ينتهي».

قالت: «فعلًا»، كان شعرها المبلّل ينسدلُ فوق وجهها حتى يكاد يحجبه. أكلتُ لقمةً، وأكلَت لقمة.

أخيرًا، سألتُها: «كيف حالك؟».

- اسمع، ليست لي أدنى رغبة في الإجابة عن أي سؤال يبدأ بكيف، متى، أين، ما، أو لماذا.

- ما المشكلة؟

- ثمّة «ما» في سؤالك، لقد حذّرتُك. يجب أن أذهب الآن.

عضّت على شفتها وزفرَت طويلًا، كما يفعل الكولونيل بالضبط عندما ينفث دخان سيجارته.

«ماذا؟ ـــ» ومن ثمّ توقّفتُ وأعدتُ صياغة سؤالي: «هل فعلتُ شيئًا أزعجَك؟».

التقطَت طبقَها ونهضت قبل أن تجيب: «بالتأكيد لا، يا جميل».

بدَت عبارة «يا جميل» مجاملةً زائفةً، تخلو من الرومنسية، كما لو كنتُ صبيًّا صغيرًا ليس بمقدوره على ما يبدو، أن يفهم مشكلاتها مهما كانت طبيعتها. بذلتُ جهدًا صادقًا لكي لا أُبدي استيائي الذي لم تكن لتلاحظه على أي حال، ومن ثمّ خرجَت وشعرها المبلّل ينسدل مثل ستارةٍ على وجهها.

قبل ستة وسبعين يومًا

قال الكولونيل في اليوم التاسع من العاصفة المطرية: «أشعر بتحسّن»، وهو يجلس بجانبي في درس تاريخ الأديان. «لقد توصّلتُ إلى اكتشافٍ أشبه بالرؤيا. هل تذكر مساء جاءت سارة إلى الغرفة وتصرّفَت كأقذر العاهرات؟».

- نعم، الأوبرا، وربطة العنق المزيّنة بطيور الفلامينغو.

- بالضبط.

- ما هي الرؤيا؟

أخرج الكولونيل دفترًا كان نصفه الأعلى مبللًا، وراح يقلِّبُ صفحاته على مهل إلى أن وجد الصفحة. وقال: «هذه هي الرؤيا. سارة مجرّد عاهرة قذرة».

دخل الدكتور هايد يجرُّ خطاه بتؤدة متكئًا بكامل ثقله على عصا سوداء. بينما راح يتقدّم نحو كرسيّه، نوّه قائلًا بنبرة جافة: «تنذرُني ركبتي المريضة بهطول المطر. لذلك، حضّروا أنفسكم». عندما وصل إلى الكرسي، أمسكه من أطرافه، وانحنى بحذرٍ إلى الخلف، ومن ثمّ تهالك جالسًا وهو يزفر سلسلةً من الأنفاس السريعة مثلما تفعل امرأة حامل في أثناء المخاض.

«على الرغم من أنكم لن تعيدوها لي قبل شهرين أو أكثر، سوف تتسلّمون اليوم موضوع وظيفة التعبير الفصليّة. أنا على يقين من أنّكم قرأتم برنامج هذه المادّة بعناية، ومرّات عدّة حتى انحفر في ذاكرتكم». ومن ثمّ اصطنع ابتسامةً. «ولكن لا بأس بتذكيرٍ بسيط. هذه الوظيفة تمثّل خمسين في المئة من العلامة الإجماليّة. لذلك، أشجِّعكم على العمل عليها بقدرٍ كبيرٍ من الجدّيّة. والآن، دعونا ننتقل إلى هذا الشخص المدعو يسوع».

تطرّق الدكتور هايد إلى إنجيل مرقس، الذي لم أقرأه إلّا ليلة أمس، مع أنّني كنتُ مسيحيًا، أو هكذا أعتقد على الأقل. لكنّني في حياتي كلها، لم تطأ قدماي كنيسةً سوى أربع مرات في أفضل الأحوال، وعلى نحوٍ أقلّ مسجدًا أو كنيسًا.

ومن ثمّ شرح لنا أنه في القرن الأول الميلادي، أي الحقبة التي عاش فيها يسوع، كانت بعض القطع النقدية الرومانية تحملُ صورة الإمبراطور أغسطس، التي نُقش تحتها عبارة: ابن اللّه.

قال: «نحن نتحدّثُ، عن زمنٍ كان فيه للآلهة أبناء. لم يكن ذلك استثنائيًا. لكنّ المعجزة، على الأقلّ في ذلك العصر، كانت شخصية يسوع نفسها. فذلك الريفيّ اليهودي العديم الشأن في إمبراطورية يحكمُها

حصرًا رجالٌ عظام، كان يسوع ابن ذلك الإله الجبّار، إله إبراهيم وموسى. لم يكُن ابن اللَّه هذا إمبراطورًا. لم يكُن حاخامًا مكرّسًا حتى، كان ريفيًّا ويهوديًّا، رجلًا عاديًّا مثلكم. وإذا كانت خصوصيّة بوذا تتمثّلُ في تخلّيه عن ثرائه ونُبل أصله في سبيل سعيه إلى الاستنارة، فخصوصيّة يسوع تتمثّل في فقره وتواضعه، لكنّه ورثَ اللقب الأنبل: لقب ملك الملوك. بهذا ينتهي الدرس. خذوا موضوع الامتحان النهائي قبل أن تخرجوا، واحتَموا من المطر». لم ألاحظ غياب ألاسكا عن الدرس إلّا عندما نهضتُ لمغادرة القاعة. كيف تمكّنَت من الغياب عن الدرس الوحيد الذي كان يستحقّ الحضور؟ لستُ أدري، لكنّني أخذت لها نسخةً من موضوع الامتحان النهائي.

كان عنوان الموضوع كالتالي: ما هو السؤال الأهم الذي ينبغي للكائنات البشرية الإجابة عنه؟ اخترْ سؤالك بعناية كبيرة، ومن ثمّ بيِّنْ كيف حاول الإسلام، والبوذية، والمسيحية الإجابة عنه.

قال الكولونيل: «أتمنّى أن يعيش هذا الوغد العجوز حتى نهاية السنة الدراسية»، بينما كنّا نركض عائدين إلى الغرفة تحت المطر، ومن ثمّ أضاف: «فقد بدأتُ أستمتعُ بدرسه. ما هو سؤالك الأهمّ؟».

بعد ثلاثين ثانيةٍ من الركض بلا انقطاع، انقطعت أنفاسي، فأجبتُه لاهثًا: «ماذا يحدث... لنا... بعد الموت؟».

«اللعنة، إن لم تتوقّف عن الركض يا بدين، فسوف تجد الجواب حالًا». ومن ثمّ أبطأ وتحوّل إلى المشي. «سؤالي هو: لماذا تكون حياة الطيِّبين من البشر بائسةً وحقيرةً على الدوام؟ تبًّا، أليست هذه ألاسكا؟».

كانت تركض نحونا بأقصى سرعتها، وتصرخ، لكنّ صخبَ المطر منعَني من سماعها إلى أن صارت قريبةً منّا، ورأيت الرذاذ يتطاير من فمها.

- لقد أغرق الأوغادُ غرفتي. أتلفوا ما يزيد على مئة كتاب! الأسبوعيون السّفلة. كولونيل، لقد ثقبوا المزراب مياه الأمطار، ووضعوا فيه أنبوبًا من البلاستيك، ومن ثمّ أدخلوه إلى غرفتي من النافذة! لقد أغرقوا المكان بأكمله. ونسختي من رواية الجنرال في متاهته تلفَت بالكامل.

قال الكولونيل: «عملٌ متقنَ»، كان أشبه بفنانٍ يبدي إعجابه بعملٍ من إبداع فنانٍ آخر.

صرخَتْ: «اسمع!».

- آسف. لا تقلقي يا صديقتي. اللّه يعاقب الأشرار. ولكن قبل أن يفعل، سنتكفّل بالمهمّة.

قبل سبعة وستين يومًا

إذًا، هذا ما شعر به نوح بعد الطوفان. تستيقظ ذات صباح وقد غفر اللّه ذنوبك. تقضي نهارك في التجوال مقلّصًا عينيك، إذ أنك نسيتَ الشعورَ بدفء أشعة الشمس وخشونتها حين تلفح جلدَك، مثل قبلة الوالد على الخدّ. من حولك، يتألّق العالم بأسره نظيفًا يانعًا، كما لو أنّ ألاباما وُضعَت في الغسالة لمدّة أسبوعين كاملين، ونُظِّفت بمساحيق خارقةٍ أعادت للألوان زهوّها ونضرتها. كان العشب أشدّ اخضرارًا وفطائر البوفريدو أكثر قرمشةً.

قضيتُ بعد ظهر ذلك اليوم بجوار قاعات الدروس، ممدّدًا على بطني فوق بساط العشب الذي جفّ أخيرًا، أراجعُ في كتاب التاريخ الأميركي حقبةَ الحرب الأهلية، أو حرب الولايات كما يُسميها أهالي المنطقة هنا. لكنها عندي، كانت الحرب التي خلّفت وراءها مئات الكلمات الأخيرة الرائعة. على غرار كلمات، الجنرال ألبرت سيدني جونستون، الذي عندما

سُئل إن كان جريحًا، أجاب: «نعم، وأخشى أنه جرح بليغ». أو روبرت لي، الذي صرّح هاذيًا وهو يُحتضر بعد انتهاء الحرب بسنوات عدّة: «حُلّوا الخيمة!».

كنت أتساءل لماذا كانت كلمات الجنرالات الجنوبيين الأخيرة أبلغ من تلك التي تفوّه بها نظراؤهم الشماليون، فكلمة الجنرال يوليس غرانت الأخيرة «ماء» كانت تافهة حقًا. في غمرة ذلك التفكُّر، لاحظتُ ظلًا يحجب عني ضوء الشمس. لم أكن قد رأيت ظلًا منذ أيام عدّة، فراعني ذلك، ورفعت نظري.

قال تاكومي: «لقد أحضرتُ لك وجبةً خفيفة»، وهو يرمي على كتابي فطيرةً من الشوفان المجروش بالقشدة.

قلتُ مبتسمًا: «مغذّية جدًا».

- لديك الفطيرة، ولديك الشوفان، ولديك القشدة. هرَمٌ رهيبٌ من الغذاء.

- إنه كذلك فعلًا.

ومن ثمّ لم أجد ما أضيفه. كان تاكومي ضليعًا بموسيقى الهيب هوب، وكنتُ ضليعًا بالكلمات الأخيرة وألعاب الفيديو. أخيرًا، قلتُ: «لا أفهمُ لماذا أغرق أولئك الأوغاد غرفة ألاسكا؟».

قال تاكومي من دون أن ينظر إليّ: «نعم، لكنني أعتقدُ أنّ لديهم أسبابهم. يجب أن تتقبّل الأمر، وتتفهّمه، فبالنسبة للجميع، وللأسبوعيين حتى، ألاسكا سيدة المقالب. على سبيل المثال، قمنا العام الفائت بإدخال سيارة فولكسفاغن من طراز «خنفساء» إلى المكتبة. لذلك، إذا توفّرت لديهم الأسباب وسنحت الفرصة، لن يتردّدوا في أن يكيلوا لها الصّاع صاعين. وقد فعلوا ذلك ببراعةٍ فائقة، فتحويل مياه المزراب إلى غرفتها فكرةٌ عبقرية. لا تظن أنني أُبدي إعجابي...».

انفجرتُ في الضحك، وقلتُ: «نعم، سوف يكون من الصعب التفوُّق عليهم». ومن ثمّ أزلت الغلاف عن الفطيرة وقضمتُها. يا إلهي كم هي لذيذة! مئات السعرات الحرارية في اللقمة الواحدة!

قال: «سوف تجد ألاسكا وسيلةً للانتقام منهم»، ومن ثمّ أضاف: «يا بدين، أنت يا بدين، تحتاج إلى سيجارة. هيا بنا نتنزّه».

شعرت بالانزعاج، كما كنت أشعر دائمًا عندما يكرّر شخص ما اسمي مرتين، مع الضمير «أنت» بينهما. مع ذلك، نهضتُ تاركًا كتبي خلفي، وذهبنا إلى ركن التدخين. ولكن ما إن وصلنا إلى طرف الغابة، حتى ابتعد تاكومي عن الدرب الترابية. قال: «لا أعتقد أن ركن التدخين آمن». ليس آمنًا؟ قلتُ في نفسي، إنه المكان الأكثر أمانًا لتدخين سيجارة في هذا الكون. لكنّني تبعتُه عبْر الحُرج الكثيف، ورحنا نشقُّ طريقنا بين أشجار الصنوبر وشجيرات العليق الشائكة التي كانت تصل حتى الصدر. بعد برهة قصيرة، جلس تاكومي على الأرض. أحطتُ الولاعة بيدي لأحمي الشعلة من النسيم، وأشعلتُ سيجارتي.

قال: «لقد وشَت ألاسكا بماريا، لذلك قد يكون النسر على درايةٍ بركن التدخين أيضًا. لستُ متأكدًا. لم يسبق لي قط أن رأيته في الجوار، ولكن لا يعلم إلا اللّه ما الذي قالته ألاسكا».

سألتُه مشكِّكًا: «وأنت، كيف عرَفت ما قالت؟».

«حسنًا، من جهة، كنتُ أُقدّر أن ألاسكا وشَت بماريا، ومن جهة أخرى، أقرّت هي بذلك. لقد أخبرتني على الأقل جزءًا من الحقيقة. فذات مساء من العام الفائت، حاولَت الخروج خلسةً من الحرم بعد حظر التجول للقاء جايك، لكنها ضُبطَت. قالت لي إنها كانت في غاية الحذر، لا أضواء ولا أي شيء آخر، مع ذلك، قبض عليها النسر وهي تخرج بسيارتها، وفي حوزتها

زجاجة نبيذ. لم يكن لديها بصيص أمل في تجُّنب الطرد. بعد ذلك، أخذها النسرُ إلى بيته حيث قدّم لها العرض الذي يقدّمه لكلّ طالب يواجه عقوبة الطرد. «أخبريني بكل ما تعرفين، أو عودي إلى غرفتك، واحزمي حقائبكِ». لم تستطع المقاومة، فانهارت، وأخبرته بأن ماريا وپول كانا في هذه الأثناء ثملَين، وينامان معًا في غرفة ماريا. كما باحت له بأشياء أخرى لا يعلمها غيرهما، حتى أنه تركها في حال سبيلها ولم يعاقبها، وذلك بسبب حاجته إلى الوشاة من أجل القيام بعمله على أكمل وجه. لقد كان اختيارها الوشاية بإحدى صديقاتها فكرةً تحمل في طياتها الكثير من الدهاء، فماريا لن تشكّ في صديقتها. لذلك، يعتقد الكولونيل جازمًا أنّ الذين وشوا، هم كيڤن ورفاقه. لم أكن أعتقد أن ألاسكا كانت الفاعلة، حتى أدركتُ أنها كانت الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يعرف ما الذي كانت تفعله ماريا. كنتُ أشكُّ في لونغويل، شريك پول في الغرفة، وأحد أبطال حادثة البحيرة. ولكن تبيّن لاحقًا أنه كان مع ذويه في البيت تلك الليلة. كانت خالته قد توفّيَت فتغيّب عن الحضور، وقد تحقّقتُ من ذلك عندما قرأتُ اسمها، هوليس بورنيس تشيس، وخبر نعيها في الصحيفة. يا له من اسم امرأة شنيع».

سألتُه مذهولًا: «إذًا، فالكولونيل لا يعلم بذلك؟» ومن ثمّ رميت سيجارتي قبل أن تنتهي، فقد كنتُ مصدومًا. لم أكن أشكُّ في إخلاص ألاسكا وولائها. نعم، قد تكون مزاجية، لكنها ليست مُخبِرة.

- لا، ويجب ألّا يعرف، فلو عرف سيُجنّ جنونه، وسيسعى إلى طردها من المدرسة. أنت لا تعرف الكولونيل، ولعلّك لم تلاحظ أنه يولي أهميّةً كبيرة لمسائل الشرف والولاء، وكلّ هذا الهراء.

- بل لاحظتُ.

هزّ تاكومي رأسه، وراح يبعدُ الأوراق الساقطة ليصنع حفرةً في التراب الذي كان ما يزال مشبعًا بالرطوبة.

- لا أفهمُ لماذا تخاف ألاسكا الطرد إلى هذا الحد، لا شك أنني أكره أن أُطردَ من المدرسة، ولكن على المرء أن يتحمّل مسؤولية أفعاله. حقًّا لا أفهم.

- من الواضح أنها لا تحب الإقامة في البيت.

- صحيح، فهي لا تعود إلّا في خلال عطلة الميلاد، والعطلة الصيفية، عندما يكون جايك هناك، ولكن دعنا من ذلك. أنا أيضًا، لا أحب الإقامة في البيت. لكنّني لن أحقّق للنسر حاجته قط».

ومن ثمّ التقط عشبةً وغرسها في التراب الأحمر الطريّ. «اسمع يا بدين، لا أعرف أي نوع من المقالب تخطّط له ألاسكا بالتواطؤ مع الكولونيل، من أجل وضع نهاية لهذه المشاكل، لكنّني أؤكد لك أنّ كلينا سوف ينجرُّ معهما. أقول لك ذلك، لتكون على بيّنة، وتدرك المتاعب التي قد تواجهك، وتتحضّر لتحمّل تبعاتها مهما كانت».

فكّرت في فلوريدا، وبأصدقاء الدراسة هناك، وللمرة الأولى، أدركتُ إلى أيّ حدٍّ قد أفتقد كالڤر كريك، إن اضطُررت إلى تركها. نظرتُ إلى عشبة تاكومي التي بدت خارجةً لتوّها من الأرض، وقلتُ: «أقسم باللّه أنني لن أشي بشيء».

أخيرًا فهمت الدرس من ذلك اليوم الذي مَثَلْنا فيه أمام هيئة المحلّفين. أرادت ألاسكا أن تثبت لنا أنها جديرة بثقتنا. فالبقاء في كالڤر كريك يعني الولاء، وقد نقضَت هذا العهد. لكنّها في المقابل، دلّتني على الطريقة. لقد تحمّلت هي والكولونيل المسؤولية عوضًا عني، لكي تريني كيف ينبغي لي أن أتصرّف عندما يحين الوقت لذلك.

قبل ثمانية وخمسين يومًا

بعد ما يقارب الأسبوع، يوم سبت، استيقظت في تمام الساعة السادسة والنصف على الموسيقى التصويرية للعبة الفيديو Decapitation: رشقات أسلحةٍ آليّة على خلفيّةٍ موسيقيّةٍ مرعبة، مضاعفة بإيقاعات اللعبة الثقيلة. استدرتُ لأرى ألاسكا تسحبُ مقبضَ التحكم إلى اليمين نحو الأعلى، كما لو كان ذلك كفيلًا بإنقاذها من هلاكٍ محتّم. كانت لي العادة نفسها.

- ألا يمكنكِ أن تلعبي مع كتم الصوت؟

قالت بكياسة زائفة: «يا بدين، الصوت جزء أساسي من التجربة الفنية في هذه اللعبة. فاللعب بوضعية الصمت، مثل الاكتفاء بكلمة من اثنتين في قراءتك لرواية جين إير. لقد استيقظ الكولونيل منذ نصف ساعة تقريبًا. بدا منزعجًا، فاقترحتُ عليه أن يكمل نومه في غرفتي».

قلتُ وأنا في حالةٍ بين النوم واليقظة: «أودّ لو أنضمّ إليه».

لكنّها بدلًا من الإجابة، غيّرت الموضوع كليًّا وقالت: «يبدو أن تاكومي قد أخبرك. نعم، لقد وشيتُ بماريا، وأنا آسفة، لن أفعل ذلك ثانيةً. بالمناسبة، هل تبقى هنا في عيد الشكر؟ فأنا سأبقى».

استدرتُ نحو الجدار وسحبتُ الغطاء فوق رأسي. هل كانت فعلًا جديرة بالثقة؟ لم أكن أعرف. ومن ثمّ إنني كنتُ قد ضقتُ ذرعًا بأهوائها وتقلُّبات مزاجها، إذ يمكنها أن تكون باردةً اليوم، ورقيقةً غدًا، وغاويةً شهوانيةً بعد غد. كنتُ أفضّل الكولونيل عليها، فهو على الأقل لم يكن يُبدي نزقًا أو مشاكسةً من دون سبب.

كدليلٍ على جبروت التعب وطغيانه، سرعان ما عدتُ إلى النوم مقنِعًا نفسي بأنّ آهات الوحوش الجنائزية، وصرخات ألاسكا الفرِحة كلّما قتلَت أحدَها، لم تكن سوى شريطٍ صوتيٍّ لذيذٍ مُواتٍ للأحلام. استيقظتُ

بعد نصف ساعة، عندما جلسَت على حافة سريري ولامس ردفاها وركي، فرحتُ أقول في نفسي، بيني وبينها، سروالها الداخلي، وسروالها الجينز، والغطاء، وشورتي المخمليّ المضلّع، وسروالي الداخلي. كانت بيننا خمس طبقات من الثياب، مع ذلك، شعرتُ بها، وشعرت بتلك الحرارة المحمومة التي ترافق اللمس. وفي غمرة اللحظة الواعدة، كانت تعنيني، وكنتُ أتمسّك بها. لم أكن أعرف إن كنتُ أحبّها، وكنت أشكُّ في أنني قد أتمكّن من الوثوق بها، لكنها كانت تعنيني بما يكفي لكي أتأكّد من ذلك. ها هي، على سريري، تنظر إليّ بعينيها الواسعتين الخضراوين، لا يفارق شفتيها السرُّ الراسخُ في ابتسامتها المتكلّفة. وخمس طبقات من الثياب تحول بيننا.

تابعَت حديثها كما لو أنني لم أنم نصف ساعةٍ منذ بدأَتْه: «لا يريدني جايك أن أذهب إلى ناشفيل، فهو يدّعي أنني أمنعه من التركيز في دراسته للموسيقى عندما يراني. اقترحتُ عليه أن أرتدي برقعًا، لكن ذلك لم يُقنعه. لذلك، سأبقى هنا».

- يؤسفني ذلك.

- لا عليك. لديّ عملٌ كثيرٌ هنا. فثمّة مقلبٌ يجب أن أخطط له. لكنني فكّرتُ أنه ينبغي لك أن تبقى هنا أيضًا. في الحقيقة، لقد وضعتُ قائمةً بالأسباب.

- قائمة؟

دسّت يدها في جيبها وأخرجَت ورقةً مطويّةً طيّات عدّة، ومن ثمّ راحت تقرأ.

- لماذا يجب على البدين أن يبقى في كالفر كريك في خلال عيد الشكر؟ قائمةُ الأسباب، بقلم ألاسكا يونغ.

أوّلًا، بما أنه طالب واعٍ ومجتهد، فقد حرمَ البدينُ نفسَه من العديد من تجارب كالڤر كريك الرائعة، منها على سبيل المثال لا الحصر:

أ- احتساء النبيذ معي في الغابة.

ب- الاستيقاظ باكرًا صباح السبت لتناول الفطور في مطعم الماكدونالدز المقرف، والتدخين في أثناء التنزّه بالسيارة في برمنغهام الكئيبة وجوارها، والحديث عن الضجر الذي يرافق العيش فيها.

ت- الخروج ليلًا، والتمدُّد على عشب ملعب كرة القدم المبلّل بالندى، وقراءة كتابٍ لكورت فونيغوت تحت ضوء القمر.

ثانيًا: على الرغم من فشل مساعي مدام أومالي، وجهودها الأكيدة، كتعليم اللغة الفرنسية، فإنها تُتقن تحضير الديك الرومي المحشي. وتدعو جميع الطلاب الذين يبقون في الحرَم على العشاء بمناسبة عيد الشكر. عمومًا، هذا يعني أنّ عدد المدعوين اثنان فقط، أنا وتاكومي، وسوف يكون البدين مرحّبًا به.

ثالثًا: في الواقع، ليس ثمّة ثالثًا، لكنّ أوّلًا وثانيًا وحدهما، سببان كافيان.

لا شكّ أنّ أوّلًا وثانيًا كانا يروقان لي، لكنّ ما استغواني حقًا، هو فكرة البقاء وحدَنا: قلتُ: «عندما يستيقظ والداي، سأتصل بهما». ومن ثمّ أقنعَتني بالجلوس بجانبها على الكنبة، ورحنا نلعب على البلاي ستيشن لعبة Decapitation، إلى أن رمَت فجأة مقبضَ التحكُّم.

قالت وهي تخلع زحّافتيها: «لا تظنّ أنّي أغازلك. إني متعبة فقط»، رفعَت قدميها ووضعتهما على الكنبة خلف إحدى الأرائك، ومن ثمّ رفعَت جسدها، وألقت برأسها على فخذي. شورت مخمليّ قصير مضلّع، وسروالي الداخلي. طبقتان فقط كانتا بيننا، وشعرتُ بحرارة خدّها.

ثمّة أوقات، يكون مناسبًا أو حتى مفضّلًا، أن ينتصب فيها عضوك التناسلي عندما يكون قريبًا من وجه فتاةٍ ما.

ولكن ليس هذه المرّة.

لذلك، توقّفتُ عن التفكير في طبقات الثياب والحرارة. كتمت صوت التلفزيون، ورحتُ أركّزُ في لعبة الفيديو.

عند الساعة الثامنة والنصف، توقّفتُ عن اللعب، ومن ثمّ تحرّرتُ من تحت ألاسكا. استدارت على ظهرها، ولم تستيقظ. كانت حزوز الشورت مطبوعةً على خدِّها.

عادةً، أنا لا أتّصل بوالديّ إلا بعد ظهر أيام الأحد، لذلك عندما سمعَت والدتي صوتي، كانت ردّة فعلها الفوريّة: «ما الأمر مايلز؟ هل أنت بخير؟».

فقلت: «أنا بخيرٍ يا أمّي. كنتُ أفكر، إن كنتِ موافقة طبعًا، أن أبقى هنا في خلال عطلة عيد الشكر. هناك العديد من أصدقائي الذين سيبقون أيضًا»، كنتُ أكذب. «لديّ الكثير من العمل»، كنتُ أكذبُ ثانيةً. «لم أكن أعرف أن الدروس صعبةٌ إلى هذا الحدّ يا أمّي»، هذه المرة كنتُ أقول الحقيقة.

- لكننا افتقدناك كثيرًا يا حبيبي. هناك ديك رومي هائل بانتظارك، وكمية كبيرة من صلصة التوت البرّي.

كنتُ أكره صلصة التوت البرّي، ولكن لسببٍ أجهله، كانت والدتي تُصرُّ على الدوام، أنها كانت طبقي المفضّل، على الرغم من أنني في كلّ أعياد الشكر، بلا استثناء، كنتُ أرفضُ بلباقة إضافتِها إلى صحني.

- أعرف يا أمّاه، أنا أيضًا اشتقت لكما. لكنّني حقًّا أريد النجاح هنا، إلى جانب ذلك، يسعدُني جدًّا أن يكون لي أصدقاء.

لم أكن أكذب.

كنت أعرف أن الأصدقاء ورقة رابحة ستجعل والدتي توافق، ولم أكن مخطئًا. باركَت بقائي في الحرَم بعد أن وعدتُها بقضاء كل دقيقة من عطلة الميلاد معهما، (كما لو كان لديّ مشاريع أخرى غير ذلك).

قضيتُ صبيحة اليوم أمام شاشة الحاسوب، أتنقّلُ من وظيفة تاريخ الأديان إلى وظيفة الأدب الإنكليزي. لم يكن قد تبقّى غير أسبوعين على بداية الامتحانات، الأوّل بعد أسبوع، والثاني بعد عيد الشكر. وحتى تلك اللحظة، وبكل بساطة، كان جوابي عن سؤال «ما الذي يحدث للناس بعد الموت؟» «شيء ما، ربما».

عاد الكولونيل بحلول الظهيرة، يحمل كتاب الرياضيات الخاص بالعباقرة.مكتبة سُر مَن قرأ

- لقد رأيت سارة للتوّ.

- وكيف كان لقاؤكما؟

- سيّئًا. قالت إنها ما تزال تحبّني. اللعنة، إن عبارة «أحبّكَ» هي حقًّا بوابة القطيعة. عندما تقول لك فتاة ما «أحبّك» وأنتما تجتازان دائرة المباني السكنية، فذلك يعني حتمًا أن بوسعها أن تقولها بمنتهى البساطة عندما تمارس الحبّ معك في السرير. لذلك تركتها ومضيت.

غرقتُ في الضحك، وأخرج الكولونيل دفترًا، ومن ثمّ جلس إلى طاولة مكتبه.

- أخبرتني ألاسكا أنك ستبقى هنا.

- صحيح. لكنّني أشعر بالذنب بسبب تخلّيَّ عن والديّ.

- اسمعْ، إن كنتَ ستبقى هنا على أمل الخروج مع ألاسكا، أتمنّى ألّا تفعل. وإذا تمكّنتَ من فصلها عن تلك الصخرة المسمّاة جايك، فالويل لنا جميعًا، لأنّ ذلك قد يتحوّل إلى مأساة حقيقية، وقاعدتي في هذه الحياة، تجنُّب المآسي.

- لا أبقى لأنني أريد الخروج معها.

قال: «انتظرْ»، ومن ثمّ استلّ قلمًا وراح يخربش على الورقة بعصبية، كما لو كان قد توصّل لتوّه إلى اكتشافٍ خارقٍ في الرياضيات. عندما فرغ من خربشاته، نظر إليّ وقال: «لقد أجريتُ بعض الحسابات، وبإمكاني أن أؤكّد لك بكل ثقة أنّ كل ما تقوله هراء».

كان على حقّ. إذ كيف استطعت التخلّي عن والديّ، اللذين كانا يجهدان لتأمين تكاليف دراستي في كالفر كريك، ولم يتوقّفا عن حبي يومًا؟ ألأنّني ربما كنتُ معجبًا بفتاة تحب شابًا آخر؟ كيف استطعتُ تركهما وحيدَين، وترفّعتُ عن ديكٍ روميٍّ هائل، وتلالٍ من صلصة التوت البري التي لا تصلح للأكل حتى؟ لذلك، بعد انتهاء حصة الدرس الثالثة، اتصلتُ بوالدتي في مكان عملها. أعتقدُ أنني كنتُ أريدها أن تقول إنّ بقائي في كالفر كريك في أثناء عيد الشكر، لا يتسبب لها بأي مشكلة. لكنّ ما لم أتوقّعه، هو أن تخبرني وهي في غاية الإثارة، أنه بعد اتصالي، اشترَت هي ووالدي بطاقتيّ سفر لقضاء شهر عسلٍ ثانٍ في أحد قصور إنكلترا.

قلتُ: «هذا... عظيم»، وسارعتُ إلى إغلاق سماعة الهاتف لكي لا تسمع بكائي. أحسبُ أن ألاسكا سمعتني أغلقُ السماعة فجأةً، فقد فتحت باب الغرفة بينما كنتُ أهم بالخروج، لكنّها لم تقُل شيئًا. عبَرتُ الدائرة المعشبة وملعب كرة القدم لأتوغّل في الغابة مُبعدًا بنزق الأغصان التي كانت تعترض طريقي حتى وصلتُ إلى ضفاف جدول كالفر كريك، أسفل الجسر تمامًا. جلَستُ على إحدى الصخور، وغرستُ قدميّ في تراب نهر الجدول الأسود، ومن ثمّ رحتُ أرمي الحصى في مياه الجدول الخفيضة. كان لارتطامها بصفحة الماء صوتٌ أجوف يكاد لا يكون مسموعًا، يخنقُه

خرير الجدول المتدفِّق جنوبًا، بينما تغربلُ أوراق الأشجار وإبر الصنوبر الضوءَ، فيُلقي على الأرض وشاحًا مُطرّزًا بآلاف الظلال.

فكّرتُ في الأشياء الوحيدة التي كنتُ أشتاق إليها في فلوريدا؛ مكتبُ والدي ورفوف مكتبته التي ترتفع من الأرض حتى السقف مُثقَلةً بمُجلّدات السِّيَر الذاتية السميكة، وبمقعده الجلدي الأسود، الذي لم يكُن مريحًا بما يكفي لكي أنعس وأغرق في النوم في أثناء القراءة. كان من الغباء أن أشعر بهذا الكمِّ من الحزن. لقد تخلّيتُ عنهما، نعم، ولكن في الوقت نفسه، كان لديّ انطباع معاكس. لكنني من دون شكّ، كنتُ أشعر بالحنين إلى البيت.

رفعتُ رأسي إلى الأعلى، فرأيت ألاسكا في ركن التدخين، تجلس على أحد الكراسي الزرقاء. أنا الذي كنتُ أبحثُ عن الوحدة، وجدتُ نفسي أناديها: «أنتِ». وبما أنّها لم تلتفِت، صرختُ: «ألاسكا!» نهضَت ومشَت نحوي.

قالت: «كنتُ أبحثُ عنك»، وجلست بجانبي.

- حقًّا؟

قالت: «أنا آسفة يا بدين»، ومن ثمّ لفّتني بذراعيها وألقت برأسها على كتفي. خطَر لي أنها لم تكن تعرفُ أسباب حزني، لكنّها بدت صادقةً في مشاعرها.

- ما الذي ينبغي لي فعله؟

- تبقى هنا، لتُمضي معي عيد الشكر، أيها الأبله.

- ولكن لماذا لا تذهبين إلى البيت في أثناء العطلة؟

- لأنني أخاف الأشباح يا بدين، وفي البيت الكثير منها.

قبل اثنين وخمسين يومًا

بعد أن ذهب الجميع، وجاءت والدةُ الكولونيل في سيارةٍ ذات بابٍ خلفيٍّ مغطاة بالتجاويف وآثار الصدمات، ورمى الكولونيل كيس البحارة الضخم على المقعد الخلفيّ، وقال: «لا أحب لحظات الوداع، أراكَ بعد أسبوع. لا تفعل شيئًا، أرفضُ شخصيًا فعله»؛ وبعد أن وصلت سيارة خضراء فارهة لتقلّ لارا، التي كان والدها الطبيب الوحيد في مدينة صغيرة من جنوب ألاباما؛ وبعد أن ذهبتُ بالسيارة مع ألاسكا لمرافقة تاكومي إلى المطار؛ وبعد أن غرق الحرَمُ في صمتٍ غريب، حيث لا أبواب تُغلق، لا موسيقى، لا ضحك، لا صراخ؛ بعد ذلك كلّه:

ذهبنا باتجاه ملعَب كرة القدم. قادتني ألاسكا حتى طرفه حيث تبدأ الغابة، وسلكت الدرب التي سلكتُها يوم رُميتُ في البحيرة. كان ظلُّها واضحًا تحت ضوء القمر، كما الانحناءة التي تصلُ خصرها بوركيها. بعد برهة، توقّفَت وقالت: «احفِرْ».

فقلتُ: «أَحفُر؟» فكرّرَت: «احفِرْ». جثوتُ على ركبتيّ ورحتُ أحفر في تراب الغابة الأسود الطريّ، وقبل أن تغوص أصابعي عميقًا في الأرض، اصطدمَت بجسمٍ زجاجيّ. حفَرتُ حوله حتى استخرجتُه. كان زجاجةً من النبيذ الورديّ تحملُ اسم فراولة الجبل. قلتُ في نفسي، فإن لم يكن لذلك النبيذ طعم الخل مع مذاقٍ خفيفٍ من عصير الدلب، فلا بدّ من أن له طَعم الفراولة.

قالت: «أحملُ بطاقة هويّة مزوّرة»، لكنّ استعمالها محفوف بالخطر. لذلك، كلما ذهبتُ إلى متجر المشروبات الروحيّة، أحاول شراء عشر زجاجات من هذا النبيذ، وبعض زجاجات الفودكا للكولونيل. لذا، عندما تمر الأمور بسلام، أكون قد ادّخرتُ مؤونة فصلٍ دراسيٍّ كامل.

أُعطي الكولونيل حصّتَه من الفودكا، فيخبئها حيث يشاء، أمّا أنا فأدفنُ حصّتي».

- لأنكِ قرصانة.

- بالضبط يا صاحبي. لكنّ استهلاكي زاد قليلًا هذا الفصل، لذلك علينا الذهاب إلى المتجر غدًا، فهذه زجاجتي الأخيرة.

«حلّت غطاء الزجاجة، إذ لم تكن مسدودة بالفلّين، وتناولت جرعةً، ومن ثمّ مدّتها لي. وقالت: «لا تخشَ النسر هذا المساء»، «إنه سعيد بذهاب الجميع. لا بُدّ من أنه الليلة، يمارس العادة السريّة للمرة الأولى منذ شهر على الأقل».

لم أكُن مطمئنًا عندما أمسكت الزجاجة من عنقها، لكنّني كنتُ أرغب في تصديق فرضيّة ألاسكا، وصدّقتُها. أخذتُ جرعةً صغيرة، وما إن ابتلعتُها حتى شعرتُ أنّ جسدي يلفظُ ذلك الشراب اللاذع خارجه. كان يصعدُ في المريء، لكنني غصَبتُ نفسي على ابتلاعه ثانيةً. ونعم، نجَحتُ في ذلك، فقد فعلتُها. كنتُ أشرب الكحول في قلب حرَم المدرسة.

استلقينا على العشب العالي بين ملعب كرة القدم وطرف الغابة، ورحنا نتناوب على الزجاجة لنشرب من ذلك النبيذ الذي كانت تنكمشُ له قسمات وجهي مع كل جرعة. كما وعدَت وجاء في قائمتها، أحضرَت معها كتاب «مهد القط» لكورت فونيغوت، وراحت تقرأه لي، فاختلط صوتها الرقيق بنقيق الضفادع وغناء الجنادب من حولنا. لم أكن أرهفُ السمع للكلمات، بل لنغمة صوتها وإيقاعه. لا شكّ في أنها قرأت الكتاب مرات عدة، فقد كانت قراءتها واثقةً ومسترسِلة، وكنتُ أسمع ابتسامتها، فقادني ذلك إلى الاعتقاد بأنني قد أصبح من عشاق الرواية، ما دامت ألاسكا التي تقرأها. بعد برهة، وضعَت الكتاب جانبًا، وشعرتُ بالدفء، لكنني لم أكن

ثملًا. كانت الزجاجة الملقاة على العشب تفصل بيننا، تلامس صدري من جهة، وصدرها من الجهة الأخرى من دون أن يلامس واحدنا الآخر، وفجأةً، وضعت يدها على فخذي.

كانت يدها فوق ركبتي تمامًا، وراحتها الناعمة مبسوطة على سروالي الجينز، عندما راحت ترسم بإصبعها دوائر كسلى تزحف نحو الجزء الداخلي من فخذي. لم تكن بيننا سوى طبقة واحدة من الثياب. رباه، كم كنت أشتهيها. هناك على العشب الساكن، تحت السماء الثملة بالنجوم، كنتُ مستلقيًا أسمع إيقاع تنفّسها الخافت المنتظم، الذي اختلط بأصوات الضفادع والجنادب وهدير محركات السيارات البعيد على الطريق السريعة رقم 65، وخيِّل إليّ أنها اللحظة المثالية للبوح بتلك الكلمة السحرية. رحتُ أُحدّق إلى تلك السماء التي لم تتغيّب عنها نجمة واحدة من نجوم هذا الكون، وأتهيّأ لقول تلك الكلمة، وكلّني ثقة في أنها تبادلني الشعور نفسه، فتلك اليد التي تفيض دفأً وحيويةً على فخذي، لم تكن مجرد يدٍ لعوب ترسم الدوائر، ولتذهب لارا، وليذهب جايك إلى الجحيم، فأنا أحبك يا ألاسكا، ولا قيمة الآن لأي شيء آخر. لكنّني لم أكد أحرّك شفتيّ لأبوح لها بحبّي، حتى سمعتُها تقول، «ليست المتاهة الموت أو الحياة».

- ما هي إذًا؟

أجابت: «إنها العذاب، هي الأشياء السيئة التي تحدث لك، أو تفعلها وتعيشها. تلك هي المشكلة. لم يكن بوليفار يتكلم عن الحياة أو الموت، بل عن الألم، وكيفية الخروج من متاهة العذاب؟».

سألتُها: «ما الذي يشغل بالكِ؟»، وشعرتُ بأن يدها لم تعُد تلامس فخذي.

- لا شيء. لكنّ العذاب حاضر دومًا يا بدين، فهو في الوظائف المدرسية، والملاريا، وهو في الحبيب الذي يعيش بعيدًا عني، بينما يستلقي بجانبي شاب وسيم. العذاب كونيٌّ يا صديقي. إنه الهمُّ الوحيد الذي يتشارك فيه البشر، بوذيين كانوا أم مسيحيين أم مسلمين.

مِلتُ نحوها وقلتُ: «إذًا، دروس الدكتور هايد تؤتي ثمارها». فابتسمَت. كنا نستلقي على جنبينا الواحد قبالة الآخر، يكاد أنفانا يتلامسان، وعيناي تستقرّان من دون رفّة رمشٍ على خدّيها اللذين لوّحَتهما نشوة النبيذ بحمرة خفيفة، ومن ثمّ فتحتُ فمي، لا لأتكلّم هذه المرة، لكنّها وضعَت إصبعها على شفتيّ وقالت: «لا تُفسِد اللحظة».

قبل واحد وخمسين يومًا

في صباح اليوم التالي، لم أسمع طَرقًا على الباب، ولا أعرفُ إن كان قد طُرِق. لكنني سمعتُ: «انهضْ! هل تعرف كم الساعة الآن؟!».

نظرتُ إلى المنبّه، وقلت بصوتٍ متقطّع: «إنها السابعة والست وثلاثين!».

- لا يا بدين، إنها ساعة اللهو! لم يعُد لدينا سوى سبعة أيام قبل أن يعود الآخرون. أنت لا تعرف كم أنا سعيدة بوجودك هنا معي. لقد قضيت عطلة عيد الشكر الأخير في صنع شمعة هائلة من كل الشموع الصغيرة التي كانت بحوزتي. رباه، كم كان ذلك مُمِلًا. كما أحصيتُ عدد الألواح العازلة التي تغطي سقف الغرفة، سبعة وستون لوحًا على امتداد العرض، وأربعة وثمانون لوحًا على امتداد الطول. لم يكن ذلك عذابًا فحسب، بل تعذيبٌ يا بدين.

- أنا متعبٌ حقًا. وـــ».

لكنها قاطعَتني ساخرةً.

- أوه، يا بدين المسكين. أتريدُني أن أصعد إلى السرير وأحضنك؟

- حسنًا، إن كنت تعرُضين خدماتك.

- لا، والآن، انهض!

قادَتني خلف جناح يقطنه الأسبوعيون، من الغرفة رقم 50، حتى الغرفة رقم 59، ومن ثمّ توقّفَت أمام إحدى النوافذ. بسطَت راحتيها على الزجاج ورفعَتها حتى المنتصف، ومن ثمّ تسلّلَت إلى الداخل، فتبِعتُها.

- ماذا ترى يا بدين؟

رأيتُ غرفة سكنية، تُغطّي جدرانها قوالب إسمنتية كالتي في غرفتي، بنفس المقاييس والتأثيث، سوى إن الكنبة كانت أجمل، ومنضدة القهوة حقيقيّة وليست مُرتجَلة. كانوا قد علّقوا على أحد الجدران مُلصَقًا يُمثّلُ رزمةً هائلةً من الأوراق النقدية، فئة المئة دولار، كُتب تحتها، «المليون الأول هو الأصعب». وعلى الجدار المقابل، علّقوا ملصقًا آخر لسيارة فيراري حمراء.

- امممم، أرى غرفةً سكنيّة.

- أنتَ لا تنظر يا بدين. عندما أدخلُ غرفتك، أرى شابّان يحبان ألعاب الفيديو. وعندما أدخلُ غرفتي، أرى فتاةً مولعةً بالكتب.

التقطَت زجاجةً بلاستيكيةً ملقاة على الكنبة، وكانت الزجاجة نصف مملوءة بسائلٍ بنّيٍّ داكنٍ مثير للقرف. وقالت: «أنظُرْ إذًا، فهم يمضغون التبغ، ومن الواضح أنهم لا يفعلون ذلك بطريقة صحية ونظيفة، بالتالي، لا شك أننا لو تبوّلنا على فراشي أسنانهم، لن يضيرهم ذلك في شيء. والآن، أُنظُر جيدًا، وقُل لي، ماذا تعتقد أنهم يحبون؟

قلتُ مُشيرًا إلى الملصَق: «يحبون المال»، رفعَت يديها إلى الأعلى كمَن يئس ونفد صبرُه.

- جميعهم يحبون المال يا بدين. لا بأس، اذهبْ إلى غرفة الحمّام، وأخبِرْني بما تراه هناك.

وجدتُ اللعبة مزعجةً بعض الشيء، لكنني ذهبتُ إلى غرفة الحمّام، بينما جلسَت هي على الكنبة الوثيرة. داخل مقصورة الدش، وجدتُ دزينةً من عبوات الشامبو ومطرّيات الشعر. وفي خزانة الأدوية، وجدتُ زجاجةً أسطوانية الشكل تحتوي على نوعٍ من المستحضرات التي تُقسّي الشعر، اسمها (التصفيف إلى الخلف). فتحتُها، ففاحت منها رائحةُ زهرٍ وكحول، كروائح صالونات الحلاقة الأنيقة. ومن ثمّ وجدتُ تحت حوض المغسلة أنبوبًا من الفازلين (كان من الكِبَر بحيث لا يُمكن استعماله إلا لغرضٍ واحد لا يستحقُّ أن أُسهبَ في الكلام عنه). عدتُ إلى الغرفة وقلتُ بشيءٍ من الإثارة: «إنهم يحبون شعر رؤوسهم».

صاحت: «بالضبط! أُنظُر»، وهي تشير إلى حافة مسند السرير العُلوي، حيث وُضعَت في توازنٍ هشّ، زجاجةٌ تحتوي على مستحضرٍ يُطلى به شعرُ الرأس، فيبدو مبللًا على الدوام. «يبدو أن كيڤن لا يستيقظ بشعر منفوش يا بدين. إنه يحرص على ألّا يحدث له ذلك. لا شك أنه يعشق شعر رأسه. هؤلاء الأسبوعيون يتركون مستحضرات الشعر هنا يا بدين، لأنهم يملكون مثيلاتها في منازلهم. جميعهم يفعلون ذلك، أتعرف لماذا؟».

سألتُها: «ألأنّها تُعوِّضُهم عن أعضائهم التناسلية المجهرية؟».

- ها ها. لا. لأنهم ذكوريون حمقى. إنهم يعشقون شعر رؤوسهم لأنّهم أغبى من أن يعشقوا شيئًا ذا أهميّة. لذلك، سنضربهم في المكان الذي يوجعهم: فروة الرأس.

قلتُ: «حسنًا»، ولم أكن أعلم بالضبط، كيف ننصبُ فخًا لفروة رأس شخصٍ ما.

نهضت ومشت حتى النافذة، ومن ثمّ انحنَت لتنفُذ إلى الخارج: قالت: «لا تنظر إلى مؤخرتي»، بالطبع، نظَرتُ إلى مؤخرتها التي كانت تنتشر بدءًا من خصرها الدقيق. قفزَت خارج النافذة نصف المفتوحة من دون جهدٍ يُذكَر. أمّا أنا فاخترتُ وضع قدمي على الأرض أوّلًا، ومن ثمّ تمرير جذعي من النافذة.

قالت: «حسنًا»، ومن ثمّ أضافَت: «كان ذلك غريبًا. هيا بنا إلى ركن التدخين».

على الطريق المؤدية إلى الجسر، راحت تجرُّ قدميها على الأرض وترفع سحبًا من الغبار البرتقالي، بحيث بدَت مشيتها أقرب إلى التزلّج الريفيّ. عندما بدأنا نسلك الدرب التي تنحدر من الجسر إلى ركن التدخين، التفتَت نحوي وقالت: «لا أعرف كيف يمكنني أن أجد صباغًا صناعيًا أزرق وشديد الفعالية»، ومن ثمّ أزاحت أحد الغصون وأمسكت به لتسمح لي بالمرور.

قبل تسعة وأربعين يومًا

بعد يومين، أي صباح يوم الاثنين الذي كان أوّل أيام العطلة الحقيقية، أمضيتُ الفترة الصباحية في العمل على وظيفة تاريخ الأديان، ومن ثمّ قصدت بعد الظهر، غرفة ألاسكا. وجدتُها تقرأ في السرير.

قالت بما يشبه التصريح: «أودِن. ما هي كلماته الأخيرة؟

- لا أعلم، لم أسمع به من قبل.

- لا تعلم، ألم تسمع به قط؟ أيها الفتى المسكين والأُمّي. اقتربْ، اقرأْ هذا السطر.

اقتربتُ منها وقرأتُ بصوتٍ مرتفع الجملة التي كانت تُشير إليها بسبابتها. «سوف تحبُّ جارك الأعوج/بقلبك الأعوج». قلتُ: «أجل، هذا جيّد جدًا».

«جيّد جدًا؟ بالتأكيد، وفطائر البوفريدو جيدة جدًا. ممارسة الجنس ممتعة جدًا. الشمس حارة جدًا. يا إلهي، هذه الكلمات تقول الكثير عن الحب والانكسار، إنها الكمال عينه».

«امممم». أومأتُ برأسي من دون حماسة.

- أنت ميئوس منك. هل تريد الذهاب في رحلة بحثٍ عن أفلام إباحية؟

- ماذا؟

سألتني وهي تبتسم: «لا يسعنا أن نحبّ جيراننا حتى نعرف مدى اعوجاج قلوبهم. ألا تحب الأفلام الإباحية؟».

أجبتُ بما يشبه الهمهمة. في الحقيقة، لم أشاهد الكثير من الأفلام الإباحية، لكنّ فكرة مشاهدة أحدها مع ألاسكا كانت مُغرية.

بدأنا رحلة البحث في جناح الغرف المرقّمة من 50 إلى 59 ومن ثمّ عدنا أدراجنا، كانت ألاسكا تفتح النوافذ وكنتُ أراقب للتأكد من عدم وجود أحد في الجوار.

لم أكن قد دخلتُ معظم غرف الحرَم. فبعد مضيّ ثلاثة أشهر، كنتُ عمليًا أعرف معظم الطلاب، لكنني لم أكن أعاشر إلّا القليل، وهم: الكولونيل وألاسكا وتاكومي. لكنّ تلك الساعات القليلة، سمحَت لي بمعرفة الكثير عن زملائي.

على سبيل المثال، ويلسون كاربود، لاعب الوسط في فريق أصفار كالڤر كريك. كان يعاني من البواسير، أو على الأقل، كان يُخفي في درج

مكتبه مرهمًا لمعالجتها. شاندرا كايلرز، فتاةٌ جميلةٌ تعشق الرياضيات، وترى فيها ألاسكا صديقةَ الكولونيل المُستقبليّة، كانت تجمعُ الدُمى المخصّصة للأطفال، لا أقصد، عندما كانت في الخامسة من العمر، بل الآن. كان لديها العشرات، فمنها السوداء، والبيضاء، واللاتينيات، والآسيويات، والشباب، والبنات، والأطفال بثياب مزارعين أو رجال أعمال. هولي موزر، أسبوعيّةٌ في السنة الأخيرة. كانت ترسم نفسها عاريةً بقلم الفحم، وتحرصُ على إظهار مفاتنها وانحناءات جسدها بدقة متناهية.

كنتُ مذهولًا بعدد الطلاب الذين كانوا يخبئون مشروبات روحيّة. حتى الأسبوعيون، الذين يعودون إلى منازلهم في عطلة نهاية الأسبوع، كانوا يُخفون زجاجات البيرة والكحول في كل مكان، في خزّانات دورات المياه، وفي قعور سلال الغسيل الوسخ.

قالت ألاسكا بصوتٍ خفيض: «اللعنة، كان بوسعي أن أشي بأيٍّ كان»، وهي تكتشف ليترًا من البيرة في خزانة لونغويل تشيس، فتساءلتُ لماذا اختارت أن تشي بماريا وبول.

كانت ألاسكا تكتشف أسرار الجميع بسرعة فائقة، حتى أنني خِلتُ أنها قد فعلت ذلك من قبل، لكنها لم تكن لتعرف مسبقًا بأسرار رووث، ومارغو بلوكر، طالبتان توأم في صف التاسع، فقد كانتا جديدتين ولا تختلطان بالآخرين. بعد أن تسلّلت ألاسكا إلى غرفتهما، نظرَت من حولها، وتوجّهت مباشرةً نحو المكتبة وتمعّنَتها جيدًا، ومن ثمّ سحبَت عن الرفّ إنجيل الملك جيمس، فوجدَت خلفها زجاجةً من كحول ماوي واوي البنفسجيّ.

قالت: «يا للذكاء»، وهي تفتح غطاء الزجاجة، ومن ثمّ أفرغَتها بجرعتين طويلتين، وصاحت: «ماوي واوي!».

صُحتُ فيها: «ستكتشفان أنكِ مررتِ من هنا!».

فتحَت عينيها على اتساعهما، وقالت: «يا للمصيبة، أنت على حق يا بدين. قد تذهبان إلى النسر وتخبرانه أن أحدهم سرق الكحول الذي كانتا تُخفيانه!» ومن ثمّ ضحكَت وانحنت على النافذة لترمي الزجاجة الفارغة في العشب.

وجدنا أطنانًا من المجلات الإباحية، محشورةً بين الفُرش والأسرّة. كما اتّضح أنّ هانك والستن، كان يحب شيئًا آخر غير كرة السلة والحشيش، وهو النهود. لكنّنا لم نجد أفلامًا إباحيةً حتى دخلنا الغرفة رقم 32، التي يقطنها شابان من الميسيسيبي، جو وماركوس. كانا يحضُران معنا مادة تاريخ الأديان، وفي بعض الأحيان يجلسان معنا، أنا والكولونيل لتناول الغداء، لكنني لم أكن أعرفهما جيدًا.

قرأت ألاسكا عنوان شريط الفيديو: «عاهرات بلدة ماديسون. بربّك، أليس ذلك رائعًا؟».

أخذنا الشريط وركضنا حتى قاعة التلفزيون. أغلقنا الباب وأسدلنا الستائر، وشاهدنا الفيلم. كان المشهد الأول يُظهر امرأةً تقف على جسر، وتُباعدُ بين ساقيها، بينما يجثو أمامها على ركبتيه، رجلٌ يلعقُ فرجها. أفترضُ أنه لم تكن ثمّة حاجة لإضاعة الوقت في الحوار. ومن ثمّ جاء وقت الإيلاج، فثارت ثائرة ألاسكا، وراحت تستنكر وتلقي عليّ محاضرةً في الأخلاق: «عندما ترى هذا، تُدرك أنهم لا يكترثون لمتعة المرأة في ممارسة الجنس، فهي عندهم مجرّد جسد، ليس أكثر، أنظُر، أترى ذلك؟».

لا حاجة للقول إنني كنتُ أرى. امرأةٌ جاثيةٌ على أربع، وخلفها رجلٌ جاثٍ على ركبتيه هو الآخر. كانت لا تنفك تردّد: «هاتِه» وتتأوّه، على الرغم من أن عينيها السوداوين كانتا تخونانها وتقولان عكس ذلك. لم

أستطع الامتناع عن تسجيل بعض الملاحظات في ذهني. اليدان على الكتفين، بسرعة، ولكن باعتدال، وإلّا ينتهي كلّ شيء ببضع ثوانٍ قليلة. أبقِ على دمدمتك في الحد الأدنى.

كما لو كانت تقرأ في ذهني، قالت: «اللعنة، إياك أن تفعل ذلك لامرأة يا بدين، فقد تؤلمها. هذا أشبه بالتعذيب. أكلُّ ما في وسع المرأة أن تفعله هو الخضوع وتحمُّل ذلك الشيء؟ هذا لا يشبه رجلًا وامرأة، بل قضيبٌ ومهبَل. أين الشهوة والإثارة في ذلك؟ أين القُبَل؟».

- نظرًا للوضعية التي يتخذانها الآن، لا أعتقد أنهما يستطيعان تبادل القُبَل.

- هذا ما عنيتُه بالضبط. في هذه الوضعية، تُصبح المرأة مجرّد غرَض. إنه لا يرى وجهها حتى! هذا ما قد يحدُث للنساء يا بدين. أليست هذه المرأة ابنة أحدهم؟ أنظُرْ ما تفعلونه بالنساء من أجل المال.

قلتُ مدافعًا عن نفسي: «على كل حال، لستُ أنا الذي يفعل ذلك، ما أودُّ قوله، هو إنني لا أفعل ذلك تقنيًا، فأنا لا أنتجُ أفلامًا إباحية».

- أُنظر في عينيّ وقل لي إن هذا الشيء لا يثيرك يا بدين.

لم أستطع. ضحكَت، وقالت: «لا بأس عليك». نهضَت وأوقفَت الشريط، ومن ثمّ تمدّدت على بطنها فوق الكنبة وهي تُدمدم شيئًا ما.

سألتها: «ماذا قلتِ؟» اقتربتُ منها، ووضعتُ يدي في تجويف ظهرها.

قالت: «هسسسسس، أنا نائمة».

هكذا، وبربع ثانية، انتقلت ألاسكا من مئتي كيلومتر في الساعة إلى النوم. كنتُ أرغب في أن أتمدّد بجانبها على الكنبة، أن أحضنها بين ذراعيّ وأنام. لا لممارسة الجنس كما في الفيلم، ولا لممارسة الحب حتى، بل لمجرد النوم معًا، بكل براءة. لكنّ الشجاعة خانتني، وكانت تحب

شخصًا آخر. كنتُ أخرق، وكانت بديعة. كنتُ مُمِلاً، وكانت تفيض سحرًا وجاذبيةً. لذلك، عدتُ إلى غرفتي. تهاويتُ على السرير السُّفليّ، ورحتُ أفكر وأقول في نفسي، لو كان الناس من مطر، لكنتُ الرذاذ، ولكانت هي الإعصار.

قبل سبعة وأربعين يومًا

صباح الأربعاء، استيقظتُ مزكومًا، في ألاباما جديدة تمامًا، باردة وجافة. في طريقي إلى غرفة ألاسكا، كان عشب دائرة المباني السكنية المتجمّد يتكسّر تحت قدميّ. في فلوريدا، من النادر جدًا أن تصادف الصقيع، فرحت أقفز ضامًّا قدميّ، والعشب يطقطق، طَق، طَق، كما لو كان ورق تغليفٍ ذا فقاعات هوائية.

كانت ألاسكا تمسك شمعة خضراء مشتعلة، وتوجّهها نحو الأسفل، لكي تذيبَها قطرةً قطرة فوق كتلة من الشمع الذائب، تشبه مشروع تصميم بركان بالألوان، يُنفّذه أطفالٌ في أحد الصفوف الابتدائية.

قلتُ: «لا تحرقي نفسك»، عندما رأيتُ الشعلة تصعد حتى يدها.

قالت من دون أن ترفع نظرها: «بخطىً سريعةٍ يتقدّم الليلُ، واليوم غدا ماضيًا».

سألتُها: «مهلًا، لقد سبق وقرأتُ هذه الجملة في مكان ما. أين وجدتِها؟».

بيدها الأخرى الطليقة، التقطَت كتابًا ورمَته نحوي، فسقط عند قدميّ. قالت: «قصيدة، إدنا سان فانسانت ميلاي، قرأتَها؟ كم يُدهشني ذلك».

- لا، لكنني قرأتُ سيرتها الذاتية! لم أجد فيها كلماتها الأخيرة، فشعرتُ بالمرارة. جُلّ ما أذكره، هو أنها كانت تعشق ممارسة الجنس.

قالت ألاسكا: «أعرف. إنها بطلتي»، ولم يكن في كلامها ذرة سخرية. ضحكتُ، لكنها لم تلاحظ ذلك. «اليس غريبًا أن تقرأ سيَر كبار الكتّاب الذاتية بدلًا من قراءة أعمالهم؟».

- لا! لا يكفي أن يكونوا أشخاصًا مهمّين لكي أقرأ تأملاتهم عن لحظة هبوط الليل.

- ليس الليل موضوع القصيدة أيها الأبله، بل الكآبة.

أجبتُها ساخرًا: «أووه، حقًّا؟ يا إلهي، إذًا، فهي بديعة».

تنهّدَت وقالت: «لعلّني أعيش أسوأ لحظات الضجر، ولكنني على الأقل، أتمتّع بصحبةٍ ساخرة. ألا تريد الجلوس؟».

جلستُ بجانبها، وتربّعتُ. كانت ركبتاي تلامسان ركبتيها. سحبت من تحت سريرها صندوقًا بلاستيكيًا شفافًا ممتلئًا بعشرات الشموع. حدّقَت إليها لبرهةٍ قصيرة، ومدّت لي إحداها، كانت بيضاء اللون، ومن ثمّ أعطتني ولاعة.

قضينا الصباح في إشعال الشموع وإذابتها، وبين الفينة والفينة، كنّا نشعل السجائر من تلك الشموع وندخّن، بعد أن حشرنا منشفةً أسفل الباب. بعد ساعتين، ارتفعت قمةُ البركان الشمعيّ الملوّن إلى ما يزيد عن ثلاثين سنتيمترًا، فنظرَت إليه ألاسكا وقالت: «جبلُ سانت هيلين، تحت تأثير المخدرات».

في الساعة 12:30، بعد ساعتين من الإلحاح على ألاسكا واستعطافها لكي تقبل بالذهاب إلى الماكدونالدز، قرّرَت أنّ وقت الغداء قد حان. في طريقنا إلى المرآب الذي يركن فيه الطلاب سياراتهم، رأيتُ سيارةً غريبة، صغيرة وخضراء اللون ببابٍ خلفيّ. لقد رأيتُها من قبل، قلتُ في نفسي.

أين رأيتُ هذه السيارة؟ كنتُ ما أزال أتساءل عندما قفز منها الكولونيل وجاء للقائنا راكضًا.

لم يقل شيئًا من قبيل «مرحبًا» أو ما شابه ذلك، بل ذهب مباشرةً إلى الهدف: «لقد تلقّيتُ تعليمات بدعوتكما على العشاء بمناسبة عيد الشكر عند آل مارتن».

همست لي ألاسكا بشيءٍ ما جعلَني أنفجرُ في الضحك، وأقول: «لقد تلقّيتُ تعليمات ألاسكا يونغ بقبول دعوتكم». ومن ثمّ قصَدنا منزل النسر، حيث أخبرناه بأنّنا سنتناول ديكًا روميًا مُحضّرًا في بيتٍ نقّال، وانطلقنا على متن السيارة ذات الباب الخلفيّ.

قدّم لنا الكولونيل شرحًا مفصّلًا في خلال الساعتين اللتين استغرقتهما رحلتُنا إلى الجنوب. كنتُ محشورًا في المقعد الخلفيّ، لأنّ ألاسكا أصرّت على الجلوس في المقعد الأمامي. عادةً، هي التي تقود، لكنّها عندما لا تجلس خلف المقود، لم تقبل حتى بالمفاوضة على الجلوس بالمقعد الأماميّ. كانت والدة الكولونيل قد سمعَت بأنّنا بقينا في الحرَم المدرسيّ، ولم تُطِق فكرة بقائنا بعيدَين عن أُسرتينا يوم عيد الشكر. لم ترق الفكرة للكولونيل، إذ اشتكى قائلًا: «سوف أكون مضطرًا إلى النوم في خيمة»، فغرقتُ في الضحك.

لكنّه فعلًا، نام في خيمة خضراء جميلة تتّسع لأربعة أشخاص، ومصمّمة على شكل نصف بيضة، لكنّها في نهاية المطاف، تبقى خيمة. كانت والدة الكولونيل تسكن في مقطورة، ذلك النوع الذي تجرُّه الشاحنات الكبيرة، سوى إنها كانت قديمة وبالية، وليس مستبعدًا أن

تتفتّت إلى شظايا إذا شُدّت إلى شاحنةٍ وقُطِرَت. لم تكن مقطورةً كبيرةً حتى. كنتُ بالكاد أستطيع الوقوف من دون أن يلامس رأسي السقف. الآن أدركُ سببَ قِصر الكولونيل، إذ لم يكن بوسعه أن يسمح لقامته بالاستطالة. كانت المقطورة عبارةً عن غرفةٍ واحدةٍ طويلةٍ، في صدرها سريرٌ يتسع لشخصين، وفي الطرف المقابل، مطبخ صغير، ومساحة للجلوس مجهزة بتلفزيون، وغرفة حمّام بالغة الصِّغر، بحيث تضطرّ إلى الجلوس على كرسي التواليت لكي تتمكّن من الاستحمام.

قالت والدة الكولونيل: «المكان متواضع وضيّق»، والتي دعتنا إلى أن نناديها دولوريس، وليس سيدة مارتن. ومن ثمّ أضافت ضاحكةً: «لكنّ حجم الديك الروميّ الذي ينتظركما يساوي حجم المطبخ». استعجلَنا الكولونيل في الخروج على الفور بعد زيارتنا القصيرة، وتجوّلنا في الجوار، حيث كانت تصطفُّ سلسلةٌ من المقطورات والبيوت النقّالة على جوانب الطرقات الترابيّة.

قال: «حسنًا، لعلّك تدرك الآن سبب كرهي للأثرياء». وأدركتُ. لم أستطع التخيّل كيف تمكّن الكولونيل من العيش في مكان بهذه الضآلة. كانت المقطورة برمتها أصغر حجمًا من غرفتنا في المدرسة. لم أعرف ما كان يمكنني أن أقوله له لأخفّف من حرَجه.

وأضاف: «أنا آسف إن كان ذلك يُشعرُك بالضيق، أعرف أن هذا الوضع قد يكون غريبًا بالنسبة إليك».

تدخّلت ألاسكا: «ليس غريبًا بالنسبة إليّ».

أجابها: «لكنّك لا تعيشين في مقطورة».

فردّت ألاسكا: «البؤس هو البؤس، وهو واحد».

أقرّ الكولونيل: «بلا شك».

قرّرت ألاسكا مساعدة دولوريس في تحضير العشاء. قالت إن ترك شؤون الطبخ للنساء تحيُّزٌ جنساني، لكنه من الأفضل تناول عشاءٍ لذيذٍ متحيّزٍ جنسانيًا، بدلًا من عشاء مقرفٍ يحضّره صبيّان. لذلك، جلستُ أنا والكولونيل على الكنبة، ورحنا نتحدّث عن شؤون المدرسة ونلهو بألعاب الفيديو.

وقال: «لقد أنهيتُ وظيفة تاريخ الأديان، لكنني أحتاج إلى حاسوبك لطباعتها لدى عودتنا. أعتقد أنني جاهز للامتحانات النهائية، وهذا أمرٌ جيد، ما دام أمامنا مقلَبٌ يجب التخطيط له وتنفيذه». لفظ كلمات جملته الأخيرة بالمقلوب.

سألتُه مبتسمًا: «ألا تفهم والدتك لغة الكلام المقلوب؟».

- ليس عندما أتكلّم بسرعة. اللعنة، لا تقلق يا رجُل.

كانت الوجبة المؤلّفة من الباmياء المقليّة، وعرانيس الذرة، والديك الرومي المُحمّر من الطراوة بحيث لم تكن الأطعمة تصمد تحت أسنان شوكتي البلاستيكية، وقد منحني ذلك القناعة التامة بأنّ دولوريس كانت أمهر من مورين، طبّاخة كالقر كريك، حيث الباmياء أقل دسمًا وأكثر قرمشةً. كانت دولوريس أيضًا أظرف أمٍّ عرفتها في حياتي. عندما سألَتها ألاسكا عن مهنتها، ابتسمت وقالت: «مهندسةٌ في فنون الطبخ، وعلى نحوٍ أوضح أيتها الصبية، طباخةٌ في مطعم الوجبات السريعة وافل هاوس».

نوّه الكولونيل مبتسمًا: «أفضل مطعم وافل هاوس في ألاباما بأسرها». وفجأةً، أدركتُ أنه كان فخورًا بوالدته، ولم يكن مُحرَجًا على الإطلاق. كان يخشى فقط أن نتصرّف بتعاطف مثل طلاب داخليين متعالين ومتعجرفين. كنت دائمًا أجد كرهَ الكولونيل للأثرياء مرهِقًا ومُفرِطًا بعض الشيء إلى أن

رأيته مع والدته. كان الكولونيل نفسه، ولكن في سياقٍ آخر مختلفٍ كليًا. لقد جعلني آمل في التمكّن يومًا ما، من لقاء أسرة ألاسكا أيضًا.

أصرّت دولوريس على أن أتشارك السرير مع ألاسكا، ونامت هي على الكنبة، بينما قضى الكولونيل الليل خارجًا، في خيمته. كنت أخشى أن يصاب بالبرد، ولكن بصراحة، لم أكن لأتخلّى عن النوم بجانب ألاسكا في سريرٍ واحد. كان لكلٍّ منا بطانيته الخاصة، وثلاث طبقات من الثياب والقماش على الأقل تفصل بيننا على الدوام، لكنّ الاحتمالات جعلَتني أبقى يقظًا نصف تلك الليلة.

قبل ستة وأربعين يومًا

كانت أشهى وجبة عشاء عيد شكرٍ تذوّقتها في حياتي. لا صلصة توت برّي مقرفة، فقط شرائح طرية عملاقة من اللحم الأبيض، وذرة، وفاصولياء خضراء مطهوة في كمية كبيرة من دهن شرائح لحم الخنزير المُجفّف، وقطع من البسكويت للصلصة، وكعكة يقطين للحلوى، مع كأس من النبيذ الأحمر لكلٍّ منا. قالت دولوريس: «أظنّ أنه من المفترض أن نشرب مع الديك الرومي نبيذًا أبيض، لكنني لا أعرف رأيكم في هذا الشأن، أمّا أنا فلا أبالي بهذا الهراء».

ضحكنا وشربنا نبيذنا، وبعد العشاء، عبّر كلٌّ منّا عن شكره وامتنانه. كانت أسرتي تفعل ذلك قبل الوجبة، لذلك كنا نسرع في التعبير عن الشكر لكي ننقضّ على الطعام. إذًا، فقد جلسنا حول المائدة نحن الأربعة وتناوبنا في تلاوة الشكر. كنت شاكرًا للوجبة اللذيذة والصحبة الرائعة، وقضاء العيد في منزل، ومع أسرة طيبة. قالت دولوريس مازحةً: «مقطورة بالأحرى».

قالت ألاسكا: «والآن، جاء دوري، أشعر بالامتنان، لأنني لم أقضِ عيد شكرٍ أفضل من هذا منذ عقد من الزمن».

ومن ثمّ قال الكولونيل: «أنا ممتن لكِ يا أمّي»، فضحكت دولوريس وقالت: «هذا الكلب لن يصيد لك، يا بنيّ».

لم أكن أعرف بالضبط ما الذي تعنيه هذه الجملة، ولكن يبدو أن ما قاله الكولونيل لم يكن كافيًا، لذلك أضاف أنه كان شاكرًا لكونه «أذكى كائن بشري في معسكر المقطورات الذي يسكنونه»، فضحكت دولوريس ثانيةً، وقالت: «هذا صحيح».

ولكن ماذا عن دولوريس؟ لقد كانت ممتنة لعودة الحرارة إلى خط هاتفها بعد إصلاحه، ولوجود ابنها معها، ولمساعدة ألاسكا لها في تحضير العشاء، ولمساعدتي في منع الكولونيل من مضايقتها في أثناء التحضير وإبقائه بعيدًا، ولوظيفتها المستقرة، ولطف زملائها معها، ولامتلاكها مكانًا يؤويها، وابنًا يحبها.

في طريق العودة إلى البيت (هكذا كنت أعتبر كالڤر كريك)، جلستُ في المقعد الخلفي، وغفوتُ على هدهدة الطريق السريعة الرتيبة.

قبل أربعة وأربعين يومًا

قالت ألاسكا: «تقوم تجارة مخزن «كوزا ليكورز» على مبدأ بيع السجائر لغير البالغين، والكحول للبالغين»، والتي لم تتوقف عن الالتفات نحوي بوتيرةٍ مُقلقة، إذ كانت تقود على طريق ضيقة ومتعرجة تتجه جنوبًا وتؤدّي إلى المتجر المذكور. كان يوم سبت، وآخر أيام العطلة الفعلية. «لو لم نكن نريد شراء شيءٍ غير السجائر لكان ذلك عظيمًا. لكننا نحتاج إلى الكحول. ومن أجل الحصول على الكحول نخضع للتدقيق،

وبطاقة هويتي لا تنفع. ولكن مع قليل من الغنج والإغراء، أعتقد أنني سأنجح في بلوغ الهدف». فجأةً، انعطفت إلى اليسار من دون أن تستخدم إشارات السيّارة، وسلكت طريقًا شديدة الانحدار تمتدُّ بين الحقول. كانت تقبض على المقود بإحكام، بعد أن أطلقت لسيارتها العنان، وانتظرت حتى آخر لحظةٍ ممكنة لتستعمل المكابح، أي عندما وصلنا إلى مكانٍ أسفل الهضبة، حيث كانت توجد محطة وقود. كانت المحطة قد توقفت عن بيع الوقود، وعلى سطحها عُلّقَتْ لافتةٌ كُتب عليها بأحرف بالكاد تُقرأ: كوزا ليكورز: نلبّي كل طلباتكم من المشروبات الروحية.

دخلت ألاسكا، ولم تمضِ خمس دقائق حتى خرجَت من المتجر ترزح تحت حِمل كيسين ورقيّين ممتلئين بالبضائع المهرّبة: ثلاث كرتونات سجائر، وخمس زجاجات من النبيذ، ونصف ليتر من الفودكا للكولونيل. في طريق العودة، قالت ألاسكا: «هل تحب لعبةَ توك، توك؟».

سألتُها: «لعبة توك، توك؟ تقصدين، كالطرق على الباب، توك، توك؟».

- من هناك؟

- من؟

- هوو، هوو؟

- هل أنتِ بومة؟

- أحسنت! لدي مزحة. إبدأ.

- حسنًا. توك-توك.

- من هناك؟

نظرت إليها نظرة من لم يفهم شيئًا. وضحكنا سويًّا.

- نعم، كنتُ ألعبها مع والدتي عندما كنتُ في السادسة من العمر. ما تزال، هذه اللعبة تضحكُني حتى اليوم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لذلك، فوجئتُ عندما جاءت ألاسكا إلى الغرفة رقم 43، وهي تجهش بالبكاء. كنتُ قد انتهيت للتو من وضع اللمسات الأخيرة على واجب اللغة الإنكليزية. جلسَت على الكنبة، ومع كل نفَس كانت تئنّ وتتأوّه.

قالت: «آسفة»، وهي تشهق، وسائلٌ مخاطيٌّ يسيل على ذقنها.

سألتُها: «ما بكِ؟». أخذت محرمةً ورقية عن منضدة القهوة، ومسَحَت وجهها.

بدأَت: «لا أفهم»، ومن ثمّ فجأةً، راحت تنشج كالأطفال. أخافني ذلك، فنهضتُ، وجلستُ بجانبها واضعًا ذراعي حولها، لكنّها تحرّرَت من ذراعي، ودفنت رأسها في إسفنج الكنبة. قالت: «لا أفهم لماذا أُفسدُ كلّ شيء».

- تقصدين ما فعلتِه مع ماريا؟ لعلّكِ كنتِ خائفة وحسب.

صرخَت من أعماق الكنبة: «الخوف ليس عذرًا كافيًا! الخوف هو العذر الذي يتحجّج به الجميع دائمًا!» كنت أجهل من هم «الجميع» أو في أي لحظةٍ زمنيّةٍ كانت تقع «دائمًا»، وعلى الرغم من رغبتي الحقيقية في محاولة فهم غموض ولَبس كلماتها، بدأت مراوغتُها تزعجني.

- لماذا لا يُشعركِ ذلك بالحزن إلّا الآن؟

- لا يقتصر الأمر على ماريا وحدها، بل ينطبق على كل شيء. لقد اعترفتُ للكولونيل ليلة أمس. وكانت في الحقيقة تنشق أكثر ممّا كانت تنشج. «عندما كنتَ تنام في السيارة، فقال لي إنني لن أغيب عن ناظريه في أثناء مقالبنا القادمة. أي أنه لم يعد يثق بي ليتركَني أتصرّف بمفردي. ولا ألومه، فحتى أنا، لم أعُد واثقة من نفسي».

- كان اعترافكِ له دليل شجاعة.

- لا تنقصُني الشجاعة، لكنها تخونني في اللحظات الحاسمة.

وهي تنهض عن الكنبة وتتجه نحوي، ففتحتُ ذراعيّ لترتمي على صدري الهزيل، وتجهش في البكاء. كنتُ أشفق عليها، لكنها كانت المسؤولة عمّا اقترفَت من ذنب. ما كان عليها أن تشي بماريا.

- لا تغضبي، ولكن قد يكون أولى بك أن تشرحي لنا لماذا بلّغتِ عن ماريا. هل كنت تخافين العودة إلى البيت مثلًا؟

ابتعدَت عني ووجّهت لي نظرةً قاتلةً كان النسر ليحسدها عليها. شعرتُ كما لو أنها كانت تكرهني أو تكره سؤالي، أو الاثنين معًا. أشاحَت بوجهها عني، وكانت نظرتها تتسلّل عبر النافذة إلى ملعب كرة القدم، عندما قالت، «ليس لديّ بيت أعود إليه».

قلتُ: «حسنًا، ولكن لديكِ أسرة». كانت قد حدّثَتني عن والدتها صباح ذلك اليوم. كيف تحوّلَت هذه الفتاة التي كانت تمزح وتروي النكات قبل ثلاث ساعات فقط، إلى كائنٍ بائسٍ ينشج وينتحب؟

قالت وهي ما تزال تُحدّق إليّ: «أحاول عدم الشعور بالخوف. لكنني ما زلتُ أُفسد كل شيء. ما زلتُ خرقاء».

- حسنًا، لا بأس عليكِ، وما عدتُ أفهم شيئًا، فقد كانت تنتقل من فكرةٍ غامضةٍ إلى أخرى أشدّ غموضًا.

- ألا تعرف من تحب يا بدين؟ أنت تحب الفتاة التي تجعلك تضحك، وتُريك أفلامًا إباحية، وتشرب معك النبيذ. أنت لا تحب العاهرة السوداوية المعتوهة.

والحق يقال، لم تكن كلماتها تخلو من الحقيقة.

عيد الميلاد

عاد جميع الطلاب إلى بيوتهم لقضاء عطلة عيد الميلاد، حتى ألاسكا التي ادّعت أنّ ليس لديها بيت.

كانت هديّتي بمناسبة عيد الميلاد: ساعة يد جميلة، ومحفظة نقود جديدة، وبحسب والدي كانتا تنتميان إلى ما يسمّيه «هدايا البالغين». قضيت الأسبوعين في الدراسة، ففي الواقع لم تكن عطلة الميلاد عطلةً حقيقية، إذ كانت فرصتنا الأخيرة لمراجعة الدروس قبل الامتحانات التي تبدأ في اليوم التالي لعودتنا. ركّزتُ على مادّتيّ المثلثات والعلوم الطبيعية اللتين كانتا تهددان على نحوٍ جدّي تحقيق الهدف الذي وضعته نصب عينيّ، وهو الحصول على معدّل عام 3،4 من خمسة. ودَدتُ لو أقول إنني كنتُ أجتهد حبًا بالعلم، لكن الحقيقة، هي أنني كنت أطمح للتسجيل في جامعةٍ مرموقةٍ.

إذًا، فقد قضيت الكثير من الوقت في المنزل، أدرس الرياضيات وأحفظ المفردات الفرنسية كما كنت أفعل قبل دخولي كالڤر كريك. كان الأسبوعان اللذان قضيتهما في البيت يشبهان إلى حدٍّ بعيد حياتي قبل الذهاب إلى المدرسة الداخلية، سوى أن والديّ كانا أكثر عطفًا. لم يرويا لي الكثير عن رحلتهما إلى لندن. أعتقد أنهما كانا يشعران بالذنب، وهو أمر غريب ينفرد به الأهل. فعلى الرغم من إبداء رغبتي بالبقاء في كالڤر كريك في أثناء عيد الشكر، لم يمنعهما ذلك من الاستمرار في الشعور بالذنب. إنه لشعورٌ مريح ولذيذ، ذلك الذي تعيشه عندما تكون محاطًا بأناس يقلقون عليك، ويشعرون بالذنب لعدم وجودك بينهم. مع ذلك، كنتُ أفضّلُ ألا تجهش والدتي في البكاء كلما جلسنا لتناول العشاء، وتقول: «أنا أمٌّ سيئة»، لنجيبها على الفور، أنا ووالدي: «لا، لستِ كذلك».

حتى والدي الذي كان حنونًا ولكن ليس من النوع العاطفي، كان من حينٍ إلى آخر، يهمس لي ونحن نشاهد مسلسل عائلة سيمسون إنّه افتقدني. كنتُ أجيبه بأنني افتقدتهما أيضًا، وكنتُ صادقًا. على نحوٍ ما، كان والداي كائنين طيبين. ذهبنا إلى السينما، ولعبنا الورق، ورويت لهما القصص التي لم تكن لتروّعهما، واستمعوا إليها. كان والدي الذي يكسب رزقه من بيع العقارات قارئًا شغوفًا لم أر له مثيلًا بين معظم الذين كنت أعرفهم، وكان يتحدث معي عن الكتب التي كنت أقرأها في إطار مادة الأدب الإنكليزي. أما والدتي، فكانت تصرُّ على أن أبقى معها في المطبخ وأتعلّم تحضير الأطباق السهلة، كالبيض المقلي أو المعكرونة بالجبن. بالنسبة إليها، كنت مستقلًا، ولم يكن يهمّ إن لم يكن لديّ، أو أرغب في أن يكون لديّ مطبخ. كما لم يكن يهمّ إن كنت أحب البيض المقلي أو المعكرونة بالجبن، فالمهم، هو أنني بحلول رأس السنة أتقنتُ تحضير تلك الأطباق.

لحظة الوداع، بكيا. قالت والدتي إن غيابي يُشعرهما بالفراغ، وإنهما فخوران بي، ويحبانني. شعرتُ بغصةٍ في الحلق، وفجأةً، تلاشت أحداث عيد الشكر من رأسي كليًا. كانت لديّ أسرة.

قبل ثمانية أيام

في اليوم الأول بعد عودتنا من عطلة الميلاد، جاءت ألاسكا إلى غرفتنا. جلسَت على الكنبة بجانب الكولونيل الذي كان في غاية التركيز، وهو يحطم رقمًا قياسيًا في السرعة على البلاي ستيشن.

لم تقل إنها اشتاقت إلينا أو كانت سعيدة بلقائنا مجددًا، بل اكتفَت بالنظر إلى الكنبة وقالت: «أنتما حقًا تحتاجان إلى كنبةٍ جديدة».

قال الكولونيل: «أرجوكِ، لا تكلّميني عندما أكون في غمرة السباق».

قالت: «عندي فكرة، فكرة عظيمة. إن ما نحتاج إليه هو مقلبٌ تمهيديّ يتزامن مع هجوم على كيڤن وزمرته».

كنتُ جالسًا على السرير أحضّرُ امتحان اليوم التالي في مادة التاريخ الأميركي.

سألتُ مندهشًا: «مقلبٌ تمهيديّ؟».

أجاب الكولونيل: «إنه مقلبٌ مخصّصٌ لتضليل الإدارة ومنحها شعورًا زائفًا بالأمان»، والذي بدا منزعجًا بسبب مَنْعِنا له من التركيز. «بعد المقلب التمهيدي، سوف يظن النسر أنّ طلاب صف الحادي عشر قد نفّذوا مقلبهم، ولن يكون متيقظًا للمقلب الحقيقي عندما يقع». كل سنة، كان طلاب صفّيّ الحادي عشر والبكالوريا يخططون لمقلبٍ وينفذونه. عادةً، يكون المقلب عملًا سخيفًا، كاختيار يوم أحد لإطلاق ألعاب نارية من ساحة المباني السكنية عند الساعة الخامسة صباحًا.

سألتُ: «هل هنالك دائمًا مقلبٌ تمهيديّ؟».

عقّب الكولونيل: «لا، أيها الأبله، لو كان هنالك مقلب تمهيدي دائمًا، لتوقّع النسر مقلبَين. أعتقد أنّ آخر مرّة استُخدم فيها مقلبٌ تمهيديّ كان عام 1987، عندما قُطع التيار الكهربائي عن الحرم، في حين، كان المقلب الحقيقي، إدخال خمسمئة من الجنادب الحيّة في شبكة التهوية التابعة للصفوف. في بعض الأحيان نسمع صريرها حتى اليوم».

قلتُ بشيء من السخرية: «تُبهرني ذاكرتُك».

قالت ألاسكا مبتسمةً: «أنت وهو تشبهان زوجين عجوزين. النسخة الفظيعة طبعًا».

قال الكولونيل: «أنت لا تعرفين كل شيء، فأنت لم تري هذا الصبي وهو يحاول التسلل إلى فراشي ليلًا».

- ماذا؟

قالت ألاسكا: «فلنعُد إلى موضوعنا! سيكون المقلب التمهيديّ نهاية هذا الأسبوع، حيث يكون القمر بدرًا. نمكثُ في الإسطبل. أنا، وأنت، والكولونيل، وتاكومي، وهديّتي لك يا بدين، لارا بوترسكايا».

- لارا التي تقيّأتُ عليها؟

قالت ضاحكةً: «إنها خجولة، لكنها ما تزال معجبةً بك»، ومن ثمّ أضافت: «لقد جعلك التقيؤ تبدو مُستَضعفًا وبالتالي لطيفًا».

قال الكولونيل: «نهودٌ شديدة البروز، وهل تجلُبين تاكومي من أجلي؟».

- لا. يجب أن تبقى عازبًا بعض الوقت.

عقّب الكولونيل: «معك حق».

- واظِبْ مدّة شهرين أو ثلاثة على ألعاب الفيديو. قد ينفعك التنسيق بين عينك ويدك، عندما تنتقل إلى مرحلة المداعبات الحميمة.

- لعِلمكِ، لقد تجاوزت هذه المرحلة منذ زمن بعيد، وانتقلت مباشرة إلى التي تليها، ولو كنتُ أستطيع تحويل نظري عن الشاشة، لرأيتِ ما تقول لك نظرتي.

- إذًا، فقد استنفدت كل المراحل.

- أجل، كلُّها.

قاطعتُهما وقلتُ: «وما هو مقلبنا التمهيدي إذًا؟».

- سوف أعمل مع الكولونيل على تعميق التفاصيل، في الوقت الحالي، لا حاجة إلى أن نقحمك في ذلك.

- أوه، حسنًا، في هذه الحالة، سأذهب لتدخين سيجارة.

تركتُهما وخرجتُ. بالتأكيد، لم تكن المرّة الأولى التي تستبعدُني فيها ألاسكا عن موقع القرار، ولكن بعد كل ذلك الوقت الذي قضيناه معًا في خلال عطلة عيد الشكر، بدا من السخافة بمكان أن تقرّرَ تخطيط المقلب مع الكولونيل وتستثنيني. قمصانُ مَن التي بلّلَتها دموعُها؟ قمصاني أنا. من استمع إليها وهي تقرأ فونيغوت؟ أنا. من استمع إليها وهي تروي أسخَف النكات في هذا العالم، وأجبَرَ نفسه على الضحك؟ أنا. ذهبتُ حتى كشك ساني كونفينيانس في الطرف الآخر من مدخل المدرسة، ودخّنتُ. لم أكن في فلوريدا عرضةً لهذا النوع من المشاعر التي تسود في المدارس الثانوية، كمعرفة من يحب هذا أكثر من ذاك، وكنتُ مستاءً من نفسي لأنني سمحتُ لهذه المشاعر بالتطوّر. لا تكترث لها، تجاهلْها، خاطبتُ نفسي. فلتذهب إلى الجحيم.

قبل أربعة أيام

رفض الكولونيل أن يبوح لي بكلمة واحدة عن طبيعة المقلب التمهيدي، لكنّه أعطاني الاسم الذي أُطلقَ عليه، وهو (ليلة الإسطبل)، كما طلب مني أن أحزم من الحاجيات ما يكفيني مدّة يومين.

كانت أيام الاثنين والثلاثاء والأربعاء، عذابًا حقيقيًا، فقد كان الكولونيل دائم الخلوة بألاسكا، ولم أُدعَ مرّةً واحدةً للانضمام إليهما. لذلك، صرفت وقتًا كبيرًا في التحضير للامتحانات النهائية، وقد ساهم ذلك بشكلٍ فعّال في رفع مُعدّل علاماتي العام. كما تمكّنتُ أخيرًا، من إنهاء وظيفة تاريخ الأديان.

آثَرتُ الإجابة عن السؤال المطروح بشكلٍ مباشر. يؤمن معظم المسلمين والمسيحيين بالفردوس والجحيم، على الرغم من وجود خلافات

كبيرة بين الدينين، تتعلّقُ بالمعايير التي تحدّد مصائر البشر في الآخرة. من يستحق الفردوس ومن يستحق الجحيم؟ أماّ البوذية فهي أشد تعقيدًا بسبب عقيدة الأناتا التي ترفض فكرة الروح الأبدية، وتستبدلها بكمية من الطاقة المؤقتة التي تهاجر من جسد إلى آخر حتى تبلغ الاستنارة.

لم أكن أحب كتابة مقاطع ختامية في وظائف التعبير، حيث تكرِّرُ ما سبق وكتبته عبر استخدام عبارات مثل، «بالمحصلة»، أو «بالمختصر». قرّرتُ تجنُّب ذلك، واخترتُ شرح الأسباب التي جعلتني أُدركُ أهمية السؤال المطروح. قلتُ إنني أعتقد بحاجة البشر إلى الأمان. فهم لا يطيقون تحمّل فكرة الموت كمرادف للعدم، وأنّ الأشخاص العزيزين على قلوبهم ما عاد لهم وجود، أو حتى تخيّل عدم وجودهم، هم أنفسهم. أخيرًا، قلتُ إنّ البشر يؤمنون بالآخرة لعدم قدرتهم على تحمّل فكرة عدم الإيمان بها.

قبل ثلاثة أيام

يوم الجمعة، بعد أن قدّمتُ بنجاحٍ غير متوقّع امتحان مادة المثلثات، والذي يختتم امتحاناتي النهائية الأولى في كالڤر كريك، عدتُ إلى الغرفة وحزمتُ أمتعتي وفق نصائح الكولونيل. إذ قال: «فكّرْ مثل نيويوركي عصري. اخترْ ملابس سوداء رزينة ومريحة، ولكن دافئة». دسَستُ الملابس وكيس النوم في حقيبة ظهرٍ سوداء، ومن ثمّ ذهبت أنا والكولونيل إلى غرفة تاكومي، واتجهنا نحن الثلاثة إلى منزل النسر. كان يرتدي بزّته الوحيدة، وتساءلتُ إن لم يكن في خزانة ملابسه سوى ثلاثين من القمصان البيضاء عينها، وثلاثين من ربطات العنق السوداء عينها. تخيّلتُه وهو يقف محتارًا أمام خزانة ملابسه صباحًا، متسائلًا: قميص أبيض وربطة عنق سوداء، أم قميص أبيض وربطة عنق سوداء؟ ماذا لو ارتديتُ

قميصًا أبيض، وربطة عنق سوداء؟ كان هذا الرجل بأمس الحاجة إلى زوجة.

قال الكولونيل للنسر: «لقد دعوتُ مايلز وتاكومي لقضاء نهاية الأسبوع معي في نيو هوب».

سألني النسر متعجّبًا: «وهل أحبّ مايلز نيو هوب إلى هذا الحدّ؟».

أجابه الكولونيل: «كيف لا! سنشارك في حفل راقص يقيمه سكان معسكر المقطورات!» كان يُتقنُ لهجةَ أهل الجنوب عندما يريد، لكنه أيضًا، كبقية طلاب كالڤر كريك، لم يكن يستخدمها.

قال النسر للكولونيل: «انتظر لحظة، ريثما أتصل بوالدتك».

التفت تاكومي نحوي محاولًا إخفاء شعوره بالذعر، وشعرتُ بالدجاج المقليّ الذي تناولته على الغداء يصعد في معدتي. أمّا الكولونيل، فكان يبتسم عندما قال: «تفضّل، أرجوك».

«هل سيقضي تشيپ ومايلز وتاكومي نهاية الأسبوع في منزلكم؟... نعم، سيدتي...آهاه! حسنًا.. مفهوم... إلى اللقاء». نظر النسر إلى الكولونيل، ومن ثمّ ابتسم وقال: «والدتك امرأة رائعة».

قال راسمًا ابتسامةً وصلَت حتى أذنيه: «ألي أنا تقول ذلك يا سيدي؟» «إلى اللقاء، يوم الأحد يا سيدي».

اتجهنا نحو مرأب النادي الرياضي، وفي الطريق، أخبرنا الكولونيل أنه اتصل بوالدته أمس، وطلب منها أن تتستّر عليه. حتى أنها لم تسأله ما السبب. فاكتفت بالقول: «أنا أثق بك يا بنيّ»، وكانت صادقة. ما إن ابتعدنا عن منزل النسر، ولم يعُد بوسعه رؤيتنا، حتى انعطفنا إلى اليمين، وتوغّلنا في الغابة.

سلكنا الدرب الترابية التي تمرّ فوق الجسر، ومن ثمّ عدنا أدراجنا إلى الإسطبل، وهو مبنىً متداعٍ تغطي الشقوق جدرانه، وأقرب إلى كوخ مهجور منه إلى إسطبل. كانوا يخزّنون فيه التبن وأكوام القش، لم أكن أعرف لماذا، لكنّ ما أعرفه، هو أنّ المدرسة لم تكن تقترح في برامجها أيّ نشاط فروسيّ. دخلتُ أنا والكولونيل وتاكومي، وكنّا أوّل الواصلين، ففرشنا أكياس نومنا على بالات القش الأكثر طراوة. كانت الساعة السادسة والنصف مساءً.

وصلَت ألاسكا بعدنا بوقتٍ قصير. كانت قد أخبرت النسر أنها ستقضي نهاية الأسبوع مع جايك. لم يدقّق النسر في قصتها، فقد اعتادت الذهاب لقضاء نهاية الأسبوع مع جايك مرةً كلّ شهر، وكان يعرف أن أسرتها لا تكترث لذلك. بعد نصف ساعة، وصلت لارا التي قالت للنسر إنها تريد الذهاب إلى أتلانتا لرؤية صديقتها التي جاءت من رومانيا. اتصل النسر بوالديها وأخبرهما أن ابنتهما تريد قضاء نهاية الأسبوع خارج الحرم، فلم يمانعا.

قالت مبتسمةً: «إنهما يثقان بي».

قلتُ: «في بعض الأحيان، تتكلّمين الإنجليزية من دون لكنة»، قلتُ، وبدا ذلك سخيفًا، لكنه مع ذلك، كان أفضل من التقيؤ عليها.

- عندي لكنة عندما ألفظ حروف الـ I المخفّفة.

- ألا توجد حروف I مخفّفة في اللغة الروسية؟

«الرومانية»، صحّحَتْ. الرومانية لغة! من كان يظنُّ ذلك؟ كنتُ بحاجة إلى تعميق حساسيتي الثقافية على نحوٍ جدّي، إن كنت أريد، وفي وقتٍ قريب، أن تشاركني لارا كيس نوم واحد.

كنّا نجلس جميعًا على أكياس النوم، وفي حين كانت ألاسكا تدخّن غير آبهة بالخطر الحقيقي الناتج عن القابلية العالية لاشتعال المبنى، عندما أخرج الكولونيل من جيبه ورقةً وراح يقرأ محتواها:

«إن الهدف من احتفالات هذه الأمسية، هو أن نبرهن وإلى الأبد، أننا ملوك المقالب، وأن الأسبوعيين ملوك الغباء. لكنّها أيضًا فرصتنا لكي نجعل حياة النسر فظيعة لا تطاق، وهذا بحد ذاته متعة كبيرة مرحّبٌ بها دومًا. لذلك أقول»، ومن ثمّ صمتَ كما لو كان ينتظر أن تُقرع الطبول تمهيدًا لتصريحه: إننا هذه الليلة، سنخوض معركةً على ثلاث جبهات:

الجبهة الأولى: المقلب التمهيديّ: سوف نشعل النار تحت مؤخرة النسر، إن جاز القول.

الجبهة الثانية: عملية الرأس الأصلع: سوف تقوم لارا منفردةً بتنفيذ عملية انتقامية، وهي من الأناقة والوحشية بحيث لا يمكن إلّا أن تكون ثمرة عقلٍ جهنّمي، أي عقلي».

قاطعته ألاسكا: «مهلًا، مهلًا! إنها فكرتي أنا».

قال ضاحكًا: «حسنًا، إنها فكرة ألاسكا. وأخيرًا، الجبهة الثالثة: دفاتر العلامات المدرسية: سوف نقوم بقرصنة حواسيب الأساتذة، وسوف نستخدم بيانات تقييمهم للطلاب، بحيث نبعث رسائل إلى ذوي كيڤن وشركاه تُعلِمُهم بأنّ أبناءهم قد رسبوا في بعض المواد».

فقلت: «لا شك في أننا سنُطرد من المدرسة».

قال تاكومي: «أرجو ألّا تكونوا قد جئتم بالفتى الياباني، ظنّا منكم أنه من عباقرة المعلوماتية. أُحذّركم، لستُ كذلك».

ردّ الكولونيل: «لن نُطرد، والعبقريّ في المعلوماتية هنا، هو أنا. أمّا أنتم، فلكُم المهام العضلية وعمليات التشتيت. لن نُطرد، حتى لو اكتشفوا

أمرنا، لأننا لا نرتكب أفعالًا تستدعي الطرد، باستثناء زجاجات شراب فراولة الجبل الخمس التي تحملها ألاسكا في حقيبتها، والتي ستتكفّل بإخفائها جيدًا. كل ما في الأمر، أننا سنقوم ببعض أعمال التخريب الصغيرة».

عُرِضَت الخطة، ولم يكن فيها أي مجال للخطأ. كان الكولونيل يُعوِّل على تزامنٍ مطلقٍ للمهام التي ينبغي تنفيذها، وإلّا يمكن أن يؤدي أبسط خللٍ إلى تقويض العملية برمّتها.

كان قد طبع مخططات سيرٍ شخصيةٍ لكلٍّ منا، مع التوقيت الدقيق بالثانية. فضبطنا ساعاتنا، وارتدينا ملابسنا السوداء، ومن ثمّ علّقنا حقائبنا على ظهورنا. كانت أنفاسنا مرئيةً في الهواء البارد، ورؤوسنا مليئة بأدق تفاصيل الخطة. بعد أن اشتدّ الظلام، خرجنا من الإسطبل حوالى الساعة السابعة. سِرْنا صفًا واحدًا بخطىً واثقةٍ، وكانت قلوبنا تقرع كالطبول. لم أشعر في حياتي كلها بمثل تلك التشويق. كانت «الربما» العظيمة التي جئت أسعى خلفها تُخيِّمُ علينا، وكنّا منيعين لا نُقهر. ربما كان في الخطة بعض العيوب، أمّا نحن فلم تكن تشوبنا شائبة.

بعد خمس دقائق من السير، افترقنا وذهب كلٌّ إلى وجهته. بقيتُ مع تاكومي. كنّا مكلّفَين بالتشتيت وخلق البلبلة.

قال: «نحن رجال البحرية الأشداء».

قلتُ موافقًا: «أوّل من يهاجم، وأوّل من يموت»، وفي نبرة صوتي قلقٌ خفيف.

قال تاكومي: «معك حق»، قبل أن يتوقّف ليفتح حقيبته.

قلتُ: «لا ليس هنا يا صاحبي، يجب أن نذهب حتى منزل النسر».

فقال: «أعرف، أعرف. انتظرْ لحظة واحدة فقط». ومن ثمّ أخرج ربطة سميكة بنيّة اللون، تحمل رأس ثعلب مخمليّ، وعصبَ رأسه بها.

غرقتُ في الضحك، وقلتُ: «ما هذا بحق الجحيم؟».

- قبعة الثعلب.

- قبعة الثعلب؟

- نعم يا بدين. قبعة الثعلب.

- ولماذا تضع على رأسك قبعة الثعلب؟

- لأنّ لا أحد يستطيع الإمساك بثعلب لعين.

لم تمض دقيقتان حتى كنا نكمن خلف الأشجار على مسافة مئة وخمسين مترًا من باب منزل النسر الخلفي. كان قلبي يخفف مثل طبلِ موسيقى التكنو.

«ثلاثون ثانية»، همس لي تاكومي، وغمرني الشعور الذي اعتراني ذلك المساء الأول، عندما أمسكَت ألاسكا بيدي، وهمسَت: «أركضْ، أركضْ، أركضْ». لكنّني لم أتحرّك.

قلتُ في نفسي: لسنا قريبين بما فيه الكفاية.

قلتُ في نفسي: لن يسمع.

قلتُ في نفسي: سوف يسمع، وسوف يخرج بأقصى سرعته، بحيث لن يترك لنا أيّ فرصة للهرب.

قلتُ في نفسي: عشرون ثانية. كنتُ ألهث.

همَسَ لي تاكومي: «ما بك يا بدين؟ تستطيع ذلك يا صديقي. كلّ ما عليك فعله، هو أن تركض بأقصى سرعة».

«صحيح». أركضُ وحسب. ركبتاي قويتان. رئتاي لا بأس بهما. يكفي أن أركض وحسب.

قال: «خمسة. أربعة. ثلاثة. اثنان. واحد. أَشعِلْهُ. أَشعِلْهُ. أَشعِلْهُ».

اشتعل مع أزيزٍ جعلَني أتذكّر كلّ أعياد الاستقلال التي عشتها مع أسرتي. بقينا جزءًا من الثانية نحدّق إلى الفتيل للتأكد من أنه كان يشتعل جيدًا. والآن، قلتُ في نفسي. الآن. أُركضْ، أُركضْ، أُركضْ. لكن جسدي رفض التحرك إلى أن سمعتُ وشوشة تاكومي المخنوقة تحضُّني: «هيّا هيّا هيّا اللعنة! هيّا».

ومن ثمّ أطلقنا سيقاننا للريح.

بعد ثلاث ثوانٍ، دوّت انفجاراتٌ هائلة. بدت شبيهةً بنيران المدافع الرشاشة في لعبة Decapitation، ولكن أقوى. كنّا قد ابتعدنا مسافة عشرين خطوة، ولكنني شعرت بطبلتيّ أذنيّ تتمزقان.

قلتُ في نفسي: أخيرًا، سوف يسمع لا محالة.

اجتزنا ملعب كرة القدم بأقصى سرعتنا قبل أن نختفي في الغابة. كنّا نركض من دون تمييز، مدفوعَين بحسٍّ تقريبيٍّ للاتجاه. كان الظلام دامسًا، فلم نكن نرى الأغصان الميتة والأحجار المكسوّة بالطحالب إلّا في اللحظة الأخيرة ممكنة، وغالبًا، بعد فوات الأوان. انزلقتُ وسقطتُ مرات عدّة، وقد استبدّ بي القلق خشية أن يُدركنا النسر، لكنني كنت أعاود النهوض، وأتابع الركض بجانب تاكومي، بعيدًا عن الصفوف ودائرة المباني السكنية. ركضنا كما لو كنا ننتعل أحذيةً سحريةً مجنّحة. ركضت كالفهد، أو فلنقل، كفهدٍ يُسرف في التدخين. وبعد دقيقة من الركض المتواصل، توقّف تاكومي، وفتح حقيبة ظهره.

كان دَوري في العَدّ. مرتعدًا من فرط الرعب، رحت أحَدِّق إلى عقارب الساعة. لا بدّ من أنه قد خرج الآن، ولا شك أنه يعدو خلفنا، كنتُ أقول في نفسي، وأتساءل إن كان سريعًا. كان هرِمًا، وهذا صحيح، لكنه بالتأكيد كان يستشيط غضبًا.

«خمسة. أربعة. ثلاثة. اثنان. واحد»، أزّ الفتيل، لكنّنا هذه المرة لم نتوقّف لكي نتأكّد. ركضنا وحسب، ودائمًا باتجاه الغرب. انقطعَت أنفاسي، وأخذت أتساءل إن كنتُ قادرًا على الركض بالوتيرة نفسها لنصف ساعة أخرى. ومن ثمّ انفجرت المفرقعات.

تلاشى الدويُّ، وسمعتُ صوت صراخ: «توقّفوا على الفور!» لكنّنا لم نتوقّف. لم يكن التوقّف جزءًا من الخطة.

همسَ تاكومي لي ولنفسه: «أنا الثعلب اللعين. لا أحد يستطيع الإمساك بالثعلب».

بعد دقيقة، جلستُ على الأرض. عدّ تاكومي. فأشعلْتُ الفتيل. وركضنا.

لكنّه انطفأ هذه المرة. كنّا قد توقّعنا حدوث ذلك، وتحضّرنا له، فقد تزوّدنا بحزام إضافي من المفرقعات. لكنّ محاولةً إضافيّة كانت تكلّف الكولونيل وألاسكا دقيقةً كاملة. جثا تاكومي على ركبتيه، ومن ثمّ أشعل الفتيل وركض. بدأت الانفجارات، وراحت تتوالى متزامنة مع دقات قلبي.

عندما توقّفَت الانفجارات، سمعتُ صوتًا يصرخ: «توقفوا وإلا اتصلتُ بالشرطة!» كان الصوتُ بعيدًا، لكنني مع ذلك، شعرت بنظرته القاتلة مثل حمل ثقيل على كاهلي.

قال تاكومي: «لا تستطيع الخنازير الإمساك بالثعلب، وما أسرعني»، مخاطبًا نفسه بأسلوب الراب. «أعدو وأقرضُ الشعر معًا، فما أروعني».

كان الكولونيل قد حذّرنا من تهديد النسر بالاتصال بالشرطة، وطلب منا ألّا نُبالي بذلك. لم يكن النسر يحب إحضار الشرطة إلى الحرَم المدرسيّ، لأن ذلك ينعكس سلبًا على المدرسة ويسيء إلى سمعتها. لذلك، تابعنا الركض من فوق ومن تحت وعبر كل أنواع الأشجار والأجمات

والأغصان الميتة. فسقطنا. ونهضنا. وركضنا. إذا كان النسر يتبعنا من خلال تحديده لجهة صدور أصوات المفرقعات، فلا بدّ من أنه كان يسمع شتائمنا ولعناتنا، كلما سقطنا في جفنة علّيق، أو تعثّرنا بغصن ميّت.

دقيقة. فجثوتُ على ركبتيّ، وأشعلتُ الفتيل، ومن ثمّ ركضتُ. بووووم.

ومن ثمّ انعطفنا شمالًا، وكنّا نظنّ أننا تجاوزنا البحيرة، وحقّقنا الهدف الأساسي من الخطة. فكلّما دخلنا أكثر في الحرم المدرسي، تبعَنا النسر وابتعد عن مبنى المدرسة، حيث كان الكولونيل وألاسكا يمارسان ألاعيبهما السحرية. كانت الخطة تقضي بأن نعود أدراجنا حتى مسافة قريبة من قاعات الدروس، ومن ثمّ نتجه شرقًا على امتداد الجدول حتى الجسر المشرِف على ركن التدخين، ومنه، منتصرَين، نيمّم شطرنا نحو الإسطبل.

سوى إننا ارتكبنا خطأ ملاحيًا بسيطًا. لم نتجاوز البحيرة، فقد كان يفصلنا عنها حقلٌ قريبٌ جدًا من مبنى المدرسة، ولم يكن أمامنا خيار آخر سوى المرور من أمامه. نظرتُ إلى تاكومي حائرًا، فقال: «ارمِ واحدًا الآن».

فأشعلتُ الفتيل، ورميته ومن ثمّ ركضنا. كنا الآن في مكان مكشوف، ففي حال كان النسر خلفنا، فلا بدّ له من أن يرانا. وصلنا إلى الجهة الجنوبية من البحيرة، ورحنا نركض على امتداد الشاطئ. لم تكن البحيرة كبيرة جدًا، إذ لم يكن طولها يتجاوز الأربعمئة مترًا. إذًا، لم تكن المسافة التي علينا اجتيازها كبيرة عندما رأيتها.

البجعة.

كانت تسبح نحونا كما لو مسّها الشيطان نفسه. لم تكن تخفق بجناحيها، بل كانت تطرق الهواء طرقًا. ومن ثمّ وصلت إلى الشاطئ.

تمركزت قبالتنا تمامًا، وراحت تطلق أصواتًا لا تشبه شيئًا في عالمنا الأرضي هذا، مثل مزيج حشرجة أرنبٍ يحتضر، وزعيق طفلٍ رضيع. لم يكن أمامنا أي مهرب، فتابعنا الركض. لكنّها اعترضت طريقي فصدمتُها، وشعرت بها وهي تعضُّ مؤخرتي. بعد ذلك، رحت أركضُ عارجًا، وشعرتُ بمؤخرتي تحترق، فقلت في نفسي، اللعنة، ما الذي يمكن أن يحتويه لعاب البجع لكي يحرق إلى هذا الحدّ؟

لم يشتعل فتيل شريط المفرقعات الثالث والعشرين، وكلّفنا ذلك دقيقةً كاملةً كنتُ بأمسّ الحاجة إليها. كنتُ أحتضر. كان إحساس الحرقة في إليتي اليسرى قد تحوّل إلى ألم فظيع لا يطاق، ويشتدّ كلما وطأت قدمي اليسرى الأرض، لذلك كنتُ أركض مثل غزالة جريحة تحاول النجاة من قطيع أُسود. غنيٌّ عن القول إن سرعتنا تباطأت كثيرًا، وما عدنا نسمع النسر منذ وصولنا إلى البحيرة. لكنني لم أكن أعتقد أنه كفّ عن ملاحقتنا. كان يحاول خداعنا، لكنّنا لم نقع في الفخ. تلك الليلة، كنّا لا نُقهَر.

منهكَين، توقفنا وبقي في مخزوننا ثلاثة أحزمة من المفرقعات، آملَين في أننا أعطينا الكولونيل ما يكفي من الوقت. ركضنا بضع دقائق أخرى حتى وصلنا إلى ضفة الجدول. في حلكة الظلام وسكون الأشياء، بدا خرير مياه الجدول الخافت مثل هدير صاعد من أعماق الليل. مع ذلك، سمعتُ أنفاسنا اللاهثة لحظة تهالكنا على صلصال الضفة الرطب وحصاها. لم أنظر إلى تاكومي قبل أن نجلس. كانت الخدوش تغطّي وجهه وذراعيه، ورأس الثعلب المخمليُّ يتدلّى على أذنه اليسرى. نظرتُ إلى ذراعيّ ورأيت الدم ينزف من الجروح الأعمق، فتذكّرت بإبهام مروري ببعض شجيرات التوت البري الشريرة، لكنني لم أكن أشعر بالألم.

كان تاكومي يقتلع الأشواك من ساقه عندما قال: «الثعلب اللعين متعب»، ومن ثمّ ضحك.

قلتُ: «لقد عضّت البجعة مؤخّرتي».

قال مبتسمًا: «رأيتُ ذلك. هل تنزف؟» دسستُ يدي في سروالي لأتحقّق. لم أكن أنزف، فأشعلتُ سيجارة للاحتفال بذلك.

قلتُ: «لقد أُنجزَت المهمّة».

فأجاب: «يا بدين، يا صديقي، نحن لا نُقهَر».

لم نستطع تحديد مكاننا بالضبط، فالجدول كان دائم الالتفاف على نفسه. تبعناه مدّة عشر دقائق، ومن ثمّ انعطفنا نحو اليسار.

سألني تاكومي: «إلى اليسار، أنت متأكد؟».

أجبتُه: «لا أعرف، فأنا تائه تمامًا».

«الثعلب يُشير إلى اليسار. إذًا إلى اليسار». لم يخطئ الثعلب، فقد أعادنا مباشرةً إلى الإسطبل.

سألت لارا ما إن رأتنا: «أنتما بخير؟ كنتُ قلقة، لقد رأيت النسر يخرج من منزله راكضًا. كان يرتدي بيجاما، وقد بدا في ذروة الغضب».

قلتُ: «إذا كان تلك اللحظة غاضبًا كما تقولين، فلا رغبة لي في أن أراه الآن».

سألتني: «ما الذي أخّركما هكذا؟».

أجابها تاكومي: «لقد تهنا في طريق العودة، وقمنا بالتفافة طويلة، وعلاوة على ذلك، كان البدين يسير مثل عجوز تعاني من نوبة بواسير، فقد عضّت البجعة مؤخّرته. أين ألاسكا والكولونيل؟».

فقالت لارا: «لستُ أدري»، ومن ثمّ سمعنا وقع خطوات، ووشوشات، وطقطقة أغصان. جمع تاكومي حقائب الظهر وأكياس النوم بسرعة البرق، وأخفاها خلف أكوام القش. خرجنا من جهة الإسطبل الخلفية بأقصى

سرعتنا، وانبطحنا بين الأعشاب العالية. لقد تبعَنا حتى ها هنا، قلتُ في نفسي. لقد أفسَدْنا كل شيء.

لكنني سمعتُ صوت الكولونيل واضحًا وهو يقول منزعجًا، «لأنّ هذا يحذفُ من قائمة المشتبه بهم المحتمَلين ثلاثة وعشرين اسمًا! لماذا لم تلتزمي بالخطة؟ اللعنة، أين اختفى الجميع؟».

عُدنا إلى الإسطبل، وكنّا نشعرُ بالخجل من ردة فعلنا المُفرطة. جلس الكولونيل على بالة من القش واضعًا مرفقيه على ركبتيه، ورأسه بين راحتيه. كان يفكّر.

ومن ثمّ سأل لارا: «حسنًا، لم يُقبَض علينا بعد، ولكن أخبريني أوّلًا يا لارا، قولي لي إن كل شيء كان على ما يرام؟» من دون أن يرفع عينيه عن الأرض.

أجابت: «نعم. جيد جدًا».

- هل لي بالمزيد من التفاصيل، لو سمحتِ؟

- لقد نفّذتُ ما جاء في خطتك. مكثتُ خلف منزل النسر حتى رأيتُه يجري خلف مايلز وتاكومي. بعد ذلك، ركضتُ حتى المبنى السكنيّ، وتسلّلتُ إلى غرفة كيڤن عبر النافذة. وضعتُ الشيء في الجِلّ وفي بلسم الشعر، ومن ثمّ كرّرتُ ذلك في غرفة جِف ولانغويل».

سألتُ: «الشيء؟».

قالت ألاسكا: «صبغة الشعر الزرقاء الصناعية المركّزة رقم 5، والتي اشتريتُها بنقود سجائرك. ضَعْها على الشعر المبلّل، ولن تستطيع إزالتها قبل أشهر عدّة».

«صبَغنا شعرهم بالأزرق؟».

قال الكولونيل: «ليس تمامًا»، وهو ما يزال ينظر إلى ركبتيه، «تقنيًا، سوف يفعلون ذلك بأنفسهم، لكنّنا بالتأكيد، سهّلنا عليهم المهمّة. أعرفُ أنك أنت وتاكومي قمتما بعملكما على أكمل وجه، وإلّا لما كنّا جميعًا ها هنا. والأخبار الجيدة، هي أن ذوي الأوغاد الثلاثة الذين تجرّأوا علينا سوف يستلمون تقارير مدرسيّة تُفيد بأن أبناءهم رسبوا في ثلاث مواد».

سألته لارا: «آه، وما هي الأخبار السيئة؟».

قالت ألاسكا: «أوه، لا شيء. ثمّة خبر آخر جيد. عندما ظنّ الكولونيل أنه سمع صوتًا، وهرب إلى الغابة، انتهزتُ الفرصة وزوّرتْ دفاتر علامات عشرين أسبوعيًا، ومن ثمّ طبعتُها، ودسستُها في مغلّفات رسمية تحمل عنوان المدرسة، ورميتها في صندوق البريد». ومن ثمّ التفتَت نحو الكولونيل وقالت: «بالفعل، كنتَ قد لذتَ بالفرار منذ فترة لا بأس بها، بعد أن تملّكك الذعر خشية أن تُطرد من المدرسة».

كنّا نجلس جميعًا، عندما نهض الكولونيل، ووقف مهيمنًا علينا كما لو كان في قمة برج وقال: «ليس هذا بخبر جيد! لم يكن في الخطة! هذا يعني أن النسر يستطيع استبعاد ثلاثة وعشرين شخصًا من قائمة المشتبه بهم. قد يتخيّل هؤلاء الأشخاص الثلاثة والعشرون أننا نحن الذين قمنا بذلك، ويُبَلّغون عنّا».

قالت ألاسكا بكثير من الجدّيّة: «لو حدث ما تقول، فسأتحمّل المسؤولية بمفردي كاملةً».

تنهّد الكولونيل: «نعم. كما تحمّلتِها كاملةً في قضية ماريا وبول. هل ستقولين، بينما كنتُ أتمشّى في الغابة وأُشعلُ المفرقعات، كنتُ في الوقت نفسه أُقرصنُ شبكة المعلوماتية، وأطبعُ كشوف علامات الطلاب على ورق المدرسة الرسميّ؟ لا شكّ أن النسر سيُصدّق ذلك!».

قال تاكومي: «هوّن عليك، يا صاحبي. أوّلًا، لن ينكشف أمرُنا. ثانيًا، إن حدث ذلك، سأتحمّل المسؤولية مع ألاسكا، فأنتَ أكثرنا عرضةً لفقدان كل شيء». اكتفى الكولونيل بإيماءةٍ من رأسه، فقد كان بديهيًا أنّه لن يتمكّن من الحصول على منحة، والتسجيل في جامعة محترمة لو طُرد من كالڤر كريك.

كنتُ أعرفُ أنّ لا شيء يسرُّ الكولونيل أكثر من الإقرار بعبقريّته، فسألتُه: «كيف تمكّنت من قرصنة نظام الشبكة؟».

أجابني وهو يبتسم: «تسلّقتُ نافذة الدكتور هايد، ودخلتُ مكتبه، ومن ثمّ فتحتُ حاسوبه، وأدخلتُ كلمة السر».

- كيف وجدتَ كلمة السر، هل خمّنتَها؟

- كلاّ. ذهبتُ الثلاثاء إلى مكتبه وطلبتُ منه أن يطبع لي قائمةً بالكتب التي يجب أن أقرأها. ومن ثمّ راقبتُه وهو يُدخلُ كلمة السر: *j3ckylnhyd3*.

قال تاكومي: «اللعنة، كان بوسعي أن أفعل ذلك».

أجابه الكولونيل ضاحكًا: «بالتأكيد، وفي هذه الحالة، لم تكن مُجبَرًا على وضع هذه القبعة المُغرية»، فما كان من تاكومي إلّا أن نزع العصبة عن رأسه، ودسّها في حقيبته.

قلتُ: «لا شكّ أنّ كيڤن سيغضب كثيرًا بسبب شعره».

قالت ألاسكا: «وأنا، ألم أغضب عندما أغرقوا مكتبَتي؟ كيڤن ليس سوى دمية هوائيّة منفوخة»، ومن ثمّ تابعَت، «نحن ننزفُ عندما نوخَز، أمّا هو فينفجر».

قال تاكومي: «هذا صحيح، هذا الفتى وغد أحمق. ألم يحاول قتلَكَ؟».

أقررتُ بذلك «أجل، معك حق».

قالت ألاسكا: «هنالك الكثير ممّن هم على شاكلته في كالڤر كريك»، ولم يهدأ غضبُها. «مجرّد دمىً لعينة محشوّة بالهواء والنقود».

ولكن على الرغم من أن كيڤن حاول قتلي على نحوٍ ما، برأيي لم يكن يستحقُّ كلّ هذا الحقد. كنتُ قد عدَلتُ منذ زمنٍ بعيد عن الحقد على الفتية المغرورين، لأنّ ذلك يكلّفُ قدرًا كبيرًا من الطاقة. فبالنسبة إليّ، كان هذا المقلب ردًّا على مقلبٍ سابق. ومجرّد مناسبةٍ ذهبيةٍ للقيام ببعض أعمال التخريب الصغيرة، بحسب تعبير الكولونيل. ولكن بالنسبة إلى ألاسكا، بدا شأنًا مختلفًا كليًا.

ودَدتُ معرفة رأيها، لكنها تمدّدت متواريةً خلف أكوام القش. كانت قد توقّفَت عن الكلام، وعندما تتوقّف ألاسكا عن الكلام، فذلك يعني أن المحادثة قد انتهت. مضت ساعتان ولم يحاول أحدٌ ملاطفتها إلى أن فتح الكولونيل زجاجةَ نبيذ. رحنا نمرّرها الواحد إلى الآخر حتى شعرتُ بحموضة وحرارة الكحول تختلطان في أحشائي.

وددتُ لو كان حبي للشراب أكبر (على مشاعري نحو ألاسكا). ولكن تلك الليلة، عشقتُ الشراب، والإحساس بدفئه وهو يصعدُ من معدتي لينتشر في كامل جسدي. لم أشعر بأنني كنت أتصرف كالأحمق أو غير فاقد للسيطرة، لكنني أحببت تلك النشوة التي تجعل كل شيء أسهل، كالضحك والبكاء والتبوُّل من دون حرج أمام الأصدقاء. لماذا كنّا نشرب؟ بالنسبة إليّ، كان الشراب نوعًا من التسلية، وتحدّي الخطر، ما دامت عقوبته الطّرد، والجانب الجميل في هذا التهديد المستمر، هو الإثارة التي كانت ترافق كلّ متعة ممنوعة في كالڤر كريك. وأمّا الجانب السيئ، فهو أنّ احتمال الطرد كان حقيقيًا.

قبل يومين

استيقظتُ باكرًا صباح اليوم التالي. كانت شفتاي جافّتين وأنفاسي مرئيةً في الهواء البارد. رأيتُ الكولونيل منحنيًا يحضّر القهوة على موقد غازٍ نقّالٍ جلبَه تاكومي في حقيبة ظهره. راحت الشمس تشعّ، لكنها لم تستطع تبديد البرودة. جلستُ بجانبه واحتسينا قهوتنا (قال الكولونيل: «مشكلة القهوة القابلة للذوبان هي أن رائحتها زكيّة، لكن طعمها كطعم صفراء المعدة»)، ومن ثمّ الواحد تلو الآخر، استيقظ الآخرون، تاكومي، ولارا، وألاسكا. أنفقنا النهار في الاختباء، ولكن بصخب!

أعني بصخب، أنه بعد ظهر ذلك اليوم، كنّا في الإسطبل عندما اقترح تاكومي إجراء مبارزة في الراب الحُرّ.

قال تاكومي: «ابدأ يا بدين، وأنت، كولونيل السوء، ستتولّى الإيقاع».

قلتُ مستجديًا: «يا رجل، أنا لا أفهم شيئًا في الراب».

- وما المشكلة؟ الكولونيل أيضًا، لا يفهم شيئًا في الإيقاع. حاول فقط أن تُقَفّي كلماتك، ودَع الباقي لي.

كوّر الكولونيل يديه حول فمه على شكل كوب، وراح يُحدثُ أصواتًا غريبة أشبه بالضراط منها بالإيقاع، ومن ثمّ بدأتُ، ولنعتبر أنني كنتُ أغنّي الراب.

- بينما نجلس في هذا الإسطبل، تغربُ الشمسُ خلف الغمامْ / مذ كنتُ طفلًا صغيرًا، لا أجيدُ زخرفة الكلامْ / لذا يا صديقي، وَفِّرْ عليَّ هذا الهراء / وأكمِلِ الإنشاد عنّي بحق السماء.

لم أكد أُنهي وصلتي حتى انطلق تاكومي.

- لم أجهَز، ولكن لبيّكَ يا صديقي البدينْ ا أفلا يهبُّ الفتى المقدام عندما الوقت يحين؟ ا أمس شربت من النبيذ حتى نال منّي ا واليوم أقفّي الكلام منشِدًا ومغنّي ا إيقاعات الكولونيل مريضة وسقيمة ا يا ربّة الألحان بُثّي فيهنّ العزيمة ا عندما أمسكُ الميكرو تجثو عند قدميّ النساء ا فأصول وأجول، راضياتٍ تهبنَني ما أشاء

قاطعته ألاسكا قبل أن ينهي وصلتَه.

- أأحلمُ أم أنك تشتمُ وتهين النساء ا سأُسمعُك ما لن تطيق سماعه هذا المساء.

- عذرًا ألاسكا إذا زلّ اللسان ا لارا، أنقذيني، فقد آن الأوان.

استجابت لارا، بصوتها الخفيف المرتبك، ولم تكن أفضل مني في احترام الإيقاع.

- اسمي لارا وبلدي رومانيا / رباه، هذا صعب جدًا... امممممم... وذات مرةٍ زرتُ ألبانيا / أعشق الركوب في ليمونة ألاسكا الزرقاء / ومن حروف اللغة أفضّل الحاء والباء / لا يهمّني كثيرًا أن يقال عني غريبة / لا أعرف كيف أُكمل، يا لهول المصيبة.

ضحكنا وأنهى الكولونيل المبارزة بسلسلة من الأصوات التي كان يعتبرها إيقاعًا، ومن ثمّ صفّقنا لأنفسنا بحرارة.

قال تاكومي: «لقد أحسنتِ»، مخاطبًا ألاسكا. ومن ثمّ ضحك.

- أفعلُ ما في وسعي للدفاع عن قضايا المرأة، وقد حزتُ على دعم لارا الكامل.

- أجل، هذا صحيح.

ومن ثمّ قرّرت ألاسكا، على الرغم من عدم حلول الظلام، بأنّ الوقت قد حان للسُّكر والشراب.

قال تاكومي: «ليلتان على التوالي، ألا تعتقدين أننا نغالي في الاعتماد على الحظ؟» بينما كانت ألاسكا تفتح زجاجة النبيذ.

قالت مبتسمة: «الحظ حصّة الأغبياء». ورفعت الزجاجة إلى شفتيها. كان الكولونيل قد جلب بعض قطع البسكويت المالح والجبن، فرحنا نأكل ونشرب، وكان عشاءً رائعًا. بعد أن أجهزنا على الجبن، تفرّغنا لنبيذ فراولة الجبل.

فقلت: «الأَولى بنا أن نبطئ قليلًا في الشراب، وإلّا أُصبتُ بالغثيان»، بعد أن أفرغنا الزجاجة الأولى.

أجابني الكولونيل: «آسف يا بدين، لم ألاحظ أن أحدًا منّا قد فتح فمك بالقوّة وصبّ فيه النبيذ»، وهو يرمي لي زجاجة صودا.

قال تاكومي مازحًا: «لعلّ صفة شنيع هي ألطف ما يمكن أن يقال في هذا النبيذ».

فجأةً، من دون مقدّمات، أعلنَت ألاسكا: «أفضل يوم/أسوأ يوم!» ولم يفهم أيًّا منّا ما الذي كانت تعنيه.

سألتُها: «ماذا؟».

«سوف نسكرُ جميعًا إن لم نفعل شيئًا. لذلك، سوف نلعب لعبة «أفضل يوم/ أسوأ يوم»، وسوف يخفّف اللعب من وتيرة الشراب».

قال الكولونيل: «لم أسمع بهذه اللعبة مسبقًا».

قالت مبتسمةً: «هذا طبيعي، فقد اخترعتُها للتو»، ومن ثمّ تمدّدت على جنبها بين كومتين من القش. كان ضوء المساء يزيد من بريق عينيها الخضراوين، ويمسح بشرتها السمراء التي لوّحَتها شمس الخريف كإنجازٍ أخير قبل حلول الشتاء. بفمها نصف المفتوح، ونظرتها الزائغة، بدا لي أنها كانت ثملة. وبينما كنتُ أتأمّلها مفتونًا، أدركتُ أنني كنتُ ثملًا أيضًا.

سألَت لارا: «ممتع! ما هي قواعد اللعبة؟».

- يروي كلٌّ منّا أجمل يومٍ في حياته، وصاحبُ أجمل قصة لن يكون مُجبرًا على الشراب. بعد ذلك، يروي أسوأ يومٍ في حياته، وصاحب أجمل قصة لن يكون مُجبرًا على الشراب، وهكذا دواليك، حتى ينسحب أحدُكم.

سألها تاكومي: «وكيف تعرفين أن المنسحب سيكون أحدنا؟».

أجابت: «لأنني أفضل من يشرب وأفضل من يروي»، كان من الصعب مخالفة ذلك المنطق. «ابدأ يا بدين. أجمل يوم في حياتك».

- أمهليني دقيقةً لأفكر في أحدها؟

قال الكولونيل: «لا بدّ من أنه ليس جميلًا إن كنت تحتاج إلى التفكير فيه».

- عليك اللعنة.

- أنت مفرط في حساسيتك وسريع الغضب.

قلتُ: «اليوم هو أجمل يومٍ في حياتي. والقصة بدأت هذا الصباح، عندما استيقظتُ بجانب فتاةٍ هنغاريةٍ جميلة، كان الجو باردًا قليلًا، شربت كوبًا من القهوة الفاترة وأكلتُ رقائق محمّصة من دقيق الشوفان من دون حليب، ومن ثمّ تنزّهتُ في الغابة صحبة ألاسكا وتاكومي، حيث رمينا الحصى في مياه الجدول. قد يبدو ذلك تافهًا، لكنه لم يكن. لا أعرف. فهو يشبه ضوء هذه الشمس التي تلقي بظلالها وتنشر هالة رقيقة في هذه الساعة التي تسبق الغروب، حيث يصبح كل شيء أرقّ وأجمل. اليوم، بدا الكون كله مغمورًا بهذا الضوء. صحيح أنّني لم أفعل شيئًا معيّنًا، فقد اكتفيت راضيًا بالجلوس، هنا، أراقب الكولونيل وهو يُقلّم عودًا من الحطب، أو يفعل أي شيءٍ آخر. لا يهمّ. كان يومًا عظيمًا وأجمل يوم في حياتي».

قالت لارا: «تراني جميلة؟» وهي تكتم ضحكةً خجولة. قلتُ في نفسي، قد تكون اللحظة المناسبة لأنظر في عينيها، لكنني لم أستطع. «أنا رومانييية!!».

قالت ألاسكا: «لم أكن أتوقّع أن تكون قصتك بهذا الجمال، لكنني سأتغلّب عليك».

قلتُ: «هيّا، يا عزيزتي»، وفي الخارج هبّت نسمةٌ، فمالت لها الأعشاب العالية. سحبتُ الغطاء حتى كتفيّ طلبًا للدفء.

«كان التاسع من كانون الثاني، عام 1997، أجمل يوم في حياتي. كنت في الثامنة من العمر، عندما رافقتني والدتي إلى حديقة الحيوانات في رحلةٍ نظّمتها المدرسة. أحببتُ الدببة. أحبّت القرود. أجمل يوم على الإطلاق. نهاية القصة».

قال الكولونيل: «أهذا كل شيء؟! أهذا أجمل يومٍ في حياتك كلها؟!».

- نعم.

قالت لارا: «لقد أعجبني ذلك. أنا أيضًا أحبُّ القرود».

أطلق الكولونيل حكمَه: «ضعيفة». لم أجد القصة ضعيفةً، كانت مبهمةً عن قصد كتعزيزٍ للغموض الذي يلفُّ شخصيّة ألاسكا. ولكن على الرغم من معرفتي بنواياها، لم يسعني إلا أن أتساءل: ما العظيم في حديقة الحيوانات؟ لكنني قبل أن أتمكّن من طرح السؤال، تكلّمت لارا.

قالت لارا: «حسنًا، جاء دوري. إن أجمل يوم في حياتي، هو يوم مجيئي إلى الولايات المتحدة. كنت أتكلّم الإنكليزية، على عكس والديّ. بعد نزولنا من الطائرة، كان في استقبالنا أقارب كثُر، أعمام وعمّات وخالات، لم أكن قد رأيتهم قبل ذلك قط، وكان والداي في ذروة السعادة. كنتُ في الثانية عشرة من العمر، وكنتُ في نظرهم دائمًا، الفتاة الصغيرة،

حتى ذلك اليوم، حيث كان والداي بحاجةٍ إليّ، فعاملاني كشخص بالغ بسبب جهلهم للغة. كانا يحتاجان إليّ في كل شيء، كطلب الوجبات في المطاعم، وترجمة استمارات الضرائب والهجرة، وسواها من الأمور الإدارية. ذلك اليوم، توقّفا عن معاملتي كطفلة. كما أنّنا كنّا فقراء في رومانيا، أما هنا، فنحن أغنياء، على نحوٍ ما». ومن ثمّ ضحكت.

قال تاكومي مبتسمًا: «حسنًا». وهو يلتقط زجاجة النبيذ. «لقد خسرتُ. ذلك لأن أجمل يوم في حياتي هو اليوم الذي فقدتُ فيه عذريّتي. ولا تعتقدوا أنّني سأروي لكم كيف حدث ذلك، فلست ثملًا إلى هذا الحد».

قال الكولونيل: «لا بأس، لم تكن قصة رديئة. ولكن هل تريدون معرفة أجمل يوم في حياتي؟».

قالت ألاسكا: «وما هو الهدف من اللعبة إذًا؟» وقد بدت عليها علامات الانزعاج.

قال: «إن أجمل يوم في حياتي لم يأتِ بعد. لكنني أعرفه جيدًا. إنّه اليوم الذي سأشتري فيه لوالدتي منزلًا عظيمًا. ليس ذلك النوع من المنازل المعزولة في الغابات، لا، بل في قلب ماونتن بروك، وسط كلّ ذوي الأسبوعيين، وذويكم. لن أشتريه بالتقسيط، لا، بل عدًّا ونقدًا. سأُجلسها في السيارة وأقودُ، وسأفتح لها الباب لكي تترجّل وتنظر إلى منزلها الجديد. منزلٌ بطابقين ومصطبة خشبية، وكل ما يلزم، ومن ثمّ أعطيها المفاتيح وأقول: «شكرًا». يا رجل، هذه امرأة ساعدَتني على ملء طلب التسجيل في كالڤر كريك، وتركَتني أذهب. ليس ذلك بالأمر السهل على من كان مثلنا، أن تترك ابنك الوحيد يذهب للدراسة بعيدًا عنك. لذلك، فهو أجمل يوم في حياتي».

ميّل تاكومي الزجاجة واحتسى بضع جرعات، ومن ثمّ مدّها لي. فشربتُ، كذلك فعلت لارا، وعندما وصلت الزجاجة إلى ألاسكا، دفعت رأسها إلى الخلف، وأفرغت الربع الذي تبقى في جوفها بجرعةٍ واحدة.

ابتسمت ألاسكا للكولونيل وهي تفتح زجاجة أخرى وقالت: «لقد ربحت هذه الجولة»، ومن ثمّ أضافت: «والآن ما هو أسوأ يوم في حياتك؟»

«كان ذلك يوم رحل والدي. إنه عجوز الآن، لعلّه بلغ السبعين من العمر. لقد كان هرمًا عندما تزوّج من والدتي، لكن ذلك لم يمنعه من أن يسمح لنفسه بخيانتها. ذات يومٍ، فاجأته متلبّسًا، وثارت ثائرتُها، فضربها. إثر ذلك، طردته، ورحل. كنتُ هنا آنذاك، واتصلت بي والدتي، لكنّها لم تُخبرني بخياناته، وسوء معاملته لها، وضرْبها، إلّا في ما بعد. ذلك اليوم، اكتفت بالقول إنه رحل ولن يعود. منذ ذلك الحين، لم أرَ والدي قط. انتظرتُ طويلًا ذلك اليوم، وكنتُ آمل في أن يتّصل بي ويشرح الأسباب، لكنّه لم يفعل. لم يتّصل بي قط. كنتُ أنتظر منه كلمة وداع، أو أي شيء من هذا القبيل. كان ذلك اليوم أسوأ يومٍ في حياتي».

قلتُ: «اللعنة، لقد تغلّبت عليّ ثانيةً. كنتُ في الصف السابع، عندما عشتُ أسوأ يومٍ في حياتي. في ذلك اليوم، بال تومي هيويت على ملابسي الرياضية، وأجبرني مدرّس الرياضة على ارتدائها وإلّا رسّبَني. حسنًا، ثمّة ما هو أسوأ من الرسوب في مادة الرياضة في الصف السابع، أليس كذلك؟ ولكن في حينه، كان ذلك أمرًا مهمًا بالنسبة إليّ. بكيتُ، وحاولتُ أن أشرح للمدرّس ما حدث، لكنني كنت أشعر بالخجل، وكان يصرخ ويصرخ، إلى أن ارتديتُ تلك الملابس المشرّبة بالبول. منذ ذلك اليوم، توقّفت عن الاهتمام بما يفعله الآخرون، ولم أعُد أبالي إن كنتُ فاشلًا، إن أو كان لي أصدقاء، أو أي شيء من ذلك. أعتقد على نحوٍ ما، أن ذلك قد فادني في

ما بعد، لكنّها كانت لحظة فظيعة. بإمكانكم أن تتخيّلوا حالتي وأنا ألعب الكرة الطائرة، أو أي رياضة أخرى بثياب مبلّلة بالبول، وتومي هيويت يتباهى أمام الآخرين بفعلته. لقد كان ذلك اليوم أسوأ أيام حياتي».

كانت لارا غارقةً في الضحك: «آسفة مايلز».

قلتُ: «لا بأس. أخبريني فقط عن أسوأ يوم في حياتك، علّني أضحك من تعاستك أيضًا»، ومن ثمّ ابتسمتُ، وضحكنا.

«إنه اليوم نفسه، الأجمل والأسوأ. في ذلك اليوم تركتُ خلفي كل شيء. قد يبدو ذلك تافهًا، لكنني فقدتُ طفولتي أيضًا، إذ ليس من الطبيعي أن تتكفّل طفلةٌ في الثانية عشرة من العمر بإجراءات إدارية، كملء استمارة W2».

سألتُها: «وما هي استمارة W2؟».

فردّت: «سؤال جيد. إنها استمارة التصريح عن الضرائب. لذلك، كان اليوم نفسه».

لقد اضطرّت لارا دائمًا إلى أداء دور المترجم والتكلّم عوضًا عن أهلها، حتى أنها لم تتعلّم كيف تتكلّم عن نفسها. أنا أيضًا، لم أكن موهوبًا في الكلام عن نفسي. كان يجمع بيني وبينها قاسمٌ مشترك مهم، وهو عيبٌ لم أكن أتقاسمه مع ألاسكا ولا مع أي شخص آخر، بالتالي، وبحكم التعريف، لم يكن بوسعنا أن نتحدّث عنه. لعلّها أشعة الغروب التي كانت تتماوج على خصلات شعرها الأسود، لستُ أدري، لكنني في تلك اللحظة، كنتُ أرغب في تقبيلها، والقبلة لا تحتاج إلى كلام. كانت حادثة التقيؤ على سروالها الجينز وأشهُر التجنُّب المتبادل، قد تلاشت وذابت.

قالت لارا: «تاكومي! إنه دورك الآن».

قال تاكومي: «أسوأ يوم في حياتي. التاسع من حزيران عام 2000، تاريخ وفاة جدّتي في اليابان. ماتت في حادث سيارة، وكان من المفترض أن أذهب لزيارتها بعد يومين، وأقضي الصيف كلّه معها ومع جدّي. بدلًا من ذلك، ركبتُ الطائرة لحضور جنازتها. لم أكن قد رأيتها قبل ذلك اليوم إلّا في الصور. كانت جنازة بوذية، أحرقوا جثتها، ولكن قبل الحرق، كانت ترقد على شيءٍ مثل - حسنًا، لم تكن جنازة بوذية حقًا. ما أريد قوله، هو إن المسائل الدينية معقّدة في اليابان، أي أنها مزيج من البوذية والشينتو، ولكن قد لا يعني ذلك لكم شيئًا. المهم، هو أنها كانت ترقد على ذلك الشيء الشبيه بمحرقة جنائزية. كانت المرة الوحيدة التي رأيتها فيها، وكانت على وشك أن تُحرق. ذلك اليوم، هو الأسوأ في حياتي».

أشعل الكولونيل سيجارة، ورماها لي، ومن ثمّ أشعل واحدةً لنفسه. لستُ أدري كيف عرف أنني كنتُ بحاجة إلى التدخين. كنّا مثل زوجين مُسنّين. فكّرتُ للحظة، أنه ليس من الحكمة بمكان رمي سيجارة مشتعلة في إسطبل ممتلئ بالقش، ولكن سرعان ما تبدّد الشعور بالحذر، وحرصتُ فقط على عدم نثر الرماد أينما كان.

قال الكولونيل: «ما من رابح أكيد حتى الآن. ما يزال التنافس مفتوحًا. حان دورُكِ يا فتاة».

استلقت على ظهرها، وعقدت ذراعيها خلف رأسها. كانت تتكلم بسرعة وبصوت خافت، لكنّ النهار الذي كان هادئًا، ازداد هدوءًا باقتراب الليل. كانت الحشرات قد اختفت بحلول الشتاء، وكنّا نسمعُ ألاسكا بوضوح.

«حدث ذلك يوم الجمعة، وهو اليوم الذي تلا زيارتنا لحديقة الحيوانات، حيث أحبّت والدتي القرود، وأحببتُ الدببة. عُدتُ من

المدرسة. قبّلَتني، وطلبَت مني أن أذهب إلى غرفتي لكتابة واجباتي المدرسية قبل أن أشاهد على التلفزيون. أطعتُها وذهبتُ إلى غرفتي، أظنّ أنها جلست إلى طاولة المطبخ. ومن ثمّ سمعتُها تصرخ، خرجتُ راكضةً إلى المطبخ، فوجدتُها ممدّدةً على الأرض تمسكُ رأسها بيديها وتنتفض. كنتُ مذعورةً. ربما كان يجب أن أتصل بالإسعاف، لكنني بدلًا من ذلك، رحتُ أصرخ وأبكي حتى توقّفَت أخيرًا عن الانتفاض، فظنَنتُ أنها نامَت وأن ما كان يؤلمها قد زال. جلستُ على الأرض بجانبها وانتظرتُ والدي الذي عاد بعد ساعة. صرخ فيّ، «لماذا لم تتّصلي بالإسعاف؟» وهو يحاول إنعاشها، لكنها كانت قد فارقت الحياة. جلطة دماغية. ذلك هو أسوأ يومٍ في حياتي. لقد ربحتُ. اشربوا».

وشربنا.

مرّت دقيقةٌ كاملة ولم ينبس أحدٌ ببنت شفة، إلى أن سأل تاكومي: «هل ألقى والدك باللوم عليك؟».

- ليس في البداية. ولكن أجل. وهل كان بوسعه ألّا يفعل؟

برّر تاكومي: «لكنّك كنتِ طفلةً صغيرة». كنتُ مصعوقًا، ولم أكن أعرف ما يمكنني قوله، فرحتُ أحاول ترتيب ما أعرفه عن أسرة ألاسكا في ذهني. كانت والدتها تلعب معها لعبة توك توك منذ كانت في السادسة من العمر، وكانت تدخّن، لكنها بالطبع، لم تعُد تفعل.

قالت بنبرة تخلو من أي انفعال أو عاطفة وهي ترفع رأسها عن كومة القش: «أجل. كنتُ طفلةً صغيرة، لكنّ الفتيات الصغيرات يستطعن الاتصال بالإسعاف، وهذا يحدث طوال الوقت. أعطني النبيذ».

قال تاكومي: «أنا آسف».

سألها الكولونيل بصوتٍ رقيق: «لماذا لم تخبريني بذلك؟».

أجابت: «لم تتسنّ لي الفرصة»، وتوقّفنا عن طرح الأسئلة. بحق السماء، ما الذي يمكن أن يُقال في مثل هذه الحالة؟

في خلال ذلك صمتٌ طويل، وبينما كنا نشرب ويستبدّ بنا السُّكرُ أكثر فأكثر، وجدتُ نفسي أفكر في وليم ماكينلي، وهو ثالث رئيس أميركي يموت مقتولًا. لقد عاش بضعة أيام قبل أن يتوفّى إثر عملية اغتياله بطلق ناري، وعندما اقتربت نهايته، راحت زوجته تبكي وتصرخ: «أريد أن أرحل أيضًا! أريد أن أرحل أيضًا!» وبما تبقى لديه من قوة، التفت ماكينلي إليها وقال كلماته الأخيرة: «جميعنا راحلون».

كانت هذه لحظة حاسمةً في حياة ألاسكا. أدركتُ تمامًا ما الذي كانت تعنيه عندما بكَت وقالت لي إنها أفسدَت كلّ شيء، كما عرفتُ مَن كانت تقصد بقولها إنها خانت الجميع. كانت والدتها «الجميع وكلّ الأشياء» في حياتها، ولم يكن بوسعي سوى أن أتخيّل المشهد: تخيّلتُ طفلةً صغيرة نحيلة متسخة اليدين في الثامنة من العمر، تنظر إلى والدتها وهي تنتفضُ مُمَدّدةً على الأرض، فتجلس بجانبها وقد فارقت الحياة، أو على وشك أن تفارقها، لكنّها لا تتنفّس وما يزال جسدها حارًا. وبين الاحتضار والموت، كانت ألاسكا الصغيرة تجلس بصمت. ومن ثمّ عبر الصمت والثمالة، تراءت لي صورة الطفلة ألاسكا، عاجزة، بينما كل ما كان عليها أن تفعله، هو أن تهرع إلى الهاتف وتتصل بالإسعاف، لكن ذلك لم يخطر في بالها قط. ثمّة لحظةٌ في الحياة، نُدرك فيها أن ذوينا لا يستطيعون إنقاذ أنفسهم أو إنقاذنا، وأن كل الذين يشقُّون طريقهم عبر الزمن، ينتهون في قاع البحر، بعد أن يسحبهم التيّار. باختصار، مصيرنا جميعًا أن نرحل ذات يوم.

هكذا أصبحت متهوّرة، وخشية الجمود، تحوّلَت إلى الإفراط في الحركة. عندما هدّدها النسر بعقوبة الطرد، وشَت بماريا. لعلّه كان أوّل اسمٍ خطر بالها آنذاك، ففي تلك اللحظة، لم تكن تريد أن تُطرد، ولم تكن قادرةً على التفكير في ما هو أبعد من اللحظة. كانت خائفة، من دون أدنى شك. لكن الأهم من ذلك كله، هو أنها كانت ترهَبُ أن يشُلّها الخوف ثانيةً.

قال ماكينلي لزوجته: «جميعنا راحلون»، وهذا صحيح. تلك هي متاهة العذاب. كلّنا فيها. فلْنجِد المخرج.

بالطبع، لم أقل لألاسكا شيئًا من ذلك كله، لا تلك الليلة ولا بعدها، ولم نتطرّق إلى الأمر ولو بكلمة واحدة. لكنّ ذلك اليوم أصبح أسوأ يوم في حياة كلٍّ منّا. على الرغم من ذلك، ومع تقدّم الليل، تابعنا الشراب والمزاح.

في ساعةٍ متأخرة من تلك الليلة، وبعد أن وضعت ألاسكا إصبعها في حلقها وتقيّأت أمامنا، لعدم قدرتها من شدة السكر على فعل ذلك في الخارج، انزلقتُ داخل كيس نومي. كانت لارا تتمدّد بجانبي في كيس نومها هي الأخرى. سحبتُ طرفَ كيسي بحيث غطّى جانبًا من كيسها، ووضعت يدي فوق يدها. أحسستُ بحرارتها على الرغم من سماكة الكيسين اللذين كانا يفصلان بيننا. كانت خطتي، التي وجدتُها مُحكمةً جدًا، تقضي بأن أسحب ذراعي خارج الكيس وأُدخلها في كيس لارا لأمسك بيدها. كانت خطة جيدة، ولكن عندما حاولت فعلًا إخراج ذراعي من الكيس الذي كان يلفّني كالمومياء، وجدتُ نفسي مثل سمكة خارج الماء، وكادت كتفي تنفصل عن مكانها. ضحكَت لارا، ولكن ليس لي، بل منّي، لكننا لم نتكلّم. بعد أن أحرقتُ جسوري، وتجاوزتُ نقطة اللاعودة،

دسستُ يدي بصعوبة في كيس نومها. وعندما رسمَت أصابعي خطًا من مرفقها إلى معصمها، كتمَت ضحكةً صغيرة.

همسَت: «أنت تدغدغني». لا بدّ من أنّ عبارة «أنت تثيرني» كانت كثيرة عليّ.

همستُ بدوري: «آسف».

قالت: «لا، إنها دغدغة لذيذة»، ومن ثمّ أخذت يدي بيدها. شبكت أصابعها بأصابعي، ومن ثمّ مالت نحوي وقبّلتني. لا شك في أنها كانت تفوح برائحة الخمر الرديء، لكنني لم ألحظ ذلك، ولا شك في أنني كنتُ أفوح برائحة الخمر الرديء والتبغ أيضًا، لكنها لم تلحظ ذلك. كان واحدنا يقبّل الآخر وحسب.

قلتُ في نفسي: هذا لذيذ.

قلتُ في نفسي: لستُ سيئًا في التقبيل. لستُ سيئًا على الإطلاق.

قلتُ في نفسي: لا شك أنني أعظم مَن قبّلَ أو سيُقبّل في تاريخ هذا الكون.

ثمّ ضحكت فجأةً وابتعدت عني. أخرجت يدها من كيس النوم ومسحت وجهها. قالت: «لقد روّلتَ على أنفي»، ومن ثمّ ضحكت.

ضحكتُ أيضًا، محاولًا إعطاء الانطباع أن الهدف من قبلتي الرطبة على الأنف كان ظُرفًا. قلتُ: «آسف»، وبحسب سلّم علامات ألاسكا، لم أتجاوز الرقم خمسة في حياتي كلها، لذلك، وضعتُ القبلةَ السائلةَ على حساب نقص الخبرة. اعترفتُ: «ما زلتُ حديث العهد في هذه المسائل».

قالت: «كان بللًا جميلًا»، ومن ثمّ ضحكت وقبّلتني ثانيةً. لم نلبث أن أصبحنا خارج كيسَينا نتبادلُ القبل بصمت. تمدّدت لارا فوقي، وطوّقتُ

خصرها الضامر بيديّ. كنتُ أشعر بنهديها يضغطان على صدري وهي تتحرك ببطء وتمتطيني منفرجة الساقين. قالت: «أنت تعجبُني».

قلتُ: «أنت جميلة»، وابتسمتُ لها. كنتُ أميّزُ ملامح وجهها وعينيها المستديرتين في الظلام، ورموشها التي كانت تلامس جبهتي.

طلب الكولونيل بصوتٍ مرتفع من داخل كيس نومه: «هل يمكن للشخصين اللذين يتبادلان القُبل ألّا يُحدِثا ضجيجًا؟ فالآخرون الذين لا يفعلون مثلهما ثملون ومتعبون».

قالت ألاسكا بما يشبه الدمدمة: «ثملون على الأخص»، كما لو كان نطق الكلمات بوضوح يحتاج مجهودًا خارقًا.

بسبب الكولونيل: بالكاد نتكلم أو توقعنا تمامًا، واكتفينا بالتقبيل بصمت والضحك بعينينا. بعد أن طالت جولة التقبيل وأصبحت رتيبةً ومملّةً، همستُ للارا: «هل ترغبين في أن تكوني صديقتي؟» أجابت: «نعم»، ومن ثمّ ابتسمت. نمنا معًا في كيس نومها، والحقيقة، كنا محشورَين فيه، لكن ذلك كان لذيذًا. لم أكن قد شعرت من قبل بحرارة جسدٍ آخر ينام بجانبي. كانت نهاية سعيدةً لأجمل يوم في حياتي.

قبل يومٍ واحد

في صباح اليوم التالي، لعلّه ليس التعبير المناسب، فلم يكن الفجر قد بزغ بعد، أيقظني الكولونيل وهو يهزّني. كانت لارا تلفّ جسدها حولي، وتطوّقني بذراعيها.

- انهض يا بدين، حان وقت الذهاب.

- دعني أنام يا رجُل.

- يمكنك أن تنام بعد أن نسجّل حضورنا. حان وقت الذهاب!».

حسنًا، حسنًا، لا تصرخ. رأسي يؤلمني.

وكان ذلك صحيحًا. كنت أشعر بنبيذ الأمس يرجع إلى حلقي، وبرأسي ينبض، تمامًا كيوم أُصبتُ بارتجاج في الدماغ. كانت أنفاسي تفوح برائحة كريهة، كما لو أنّ ظربانًا سبحَ في فمي ومن ثمّ نفقَ، فبذلتُ قصارى جهدي لكي لا أزفر باتجاه لارا التي استخرجت نفسها بكسل من كيس النوم.

جمعنا حاجياتنا على عجل، ورمينا الزجاجات الفارغة في الحقل، بين الأعشاب الطويلة. لسوء الحظ، في كالڤر كريك، كان رمي هذا النوع من النفايات الملوِّثة للبيئة ضرورةً لا بدّ منها، إذ لن يغامر أحد برمي زجاجة من الكحول في إحدى سلال القمامة داخل الحرَم. خرجنا من الإسطبل، وأمسكت لارا بيدي، ومن ثمّ أفلتَتها بخجل. كانت ألاسكا في حالةٍ يرثى لها من الإنهاك، لكنها أصرّت على إضافة القطرات القليلة الباقية من النبيذ إلى قهوتها قبل أن ترمي الزجاجة خلفها. قالت للكولونيل: وداوها بالتي كانت هي الداء.

- أنتِ بخير؟

- لقد عرفتُ صباحات أفضل.

- ثمِلة؟

- مثل واعظٍ مدمن على الكحول صباح القداس.

- قد يكون من الأفضل لك ألا تسرفي في الشراب.

«يا بدين». ومن ثمّ هزّت رأسها وتناولت جرعة من قهوتها الباردة المخلوطة بالنبيذ وقالت: «يا بدين، ما يجب أن تعرفه عني وتفهمه، هو أنني شخص شديد التعاسة».

مشينا جنبًا إلى جنب على الدرب الترابية في طريقنا إلى الحرَم المدرسي. بعد أن عبرنا الجسر، توقّف تاكومي، ومن ثمّ جثا على ركبتيه وأفرغ من معدته سيلًا أصفر وورديّ اللون.

قالت ألاسكا: «أفرغْ كل ما في جوفك، وسوف تكون بخير».

أخيرًا، نهض وقال: «لقد وجدتُ ما يمكنه أن يوقفَ الثعلب. لا يستطيع الثعلب التغلّب على نبيذ فراولة الجبل».

عادت ألاسكا ولارا إلى غرفتيهما. كانتا قد قررتا إثبات وجودهما أمام النسر في وقت لاحق من اليوم، بينما وقفت أنا وتاكومي خلف الكولونيل وهو يطرق باب النسر في تمام الساعة التاسعة صباحًا.

- أراكم قد بكّرتم. هل استمتعتم؟

- أجل يا سيدي.

- كيف حال والدتك يا تشيپ؟

- بخير يا سيدي، وبصحة جيدة.

- هل غذّتكم جيدًا؟

- بالتأكيد يا سيدي. لقد حاولَت تسْميني.

- معها حق، فأنت بأمس الحاجة إلى ذلك. طاب يومكم جميعًا.

قال الكولونيل في الطريق إلى الغرفة رقم 43: «حسنًا، لا أعتقد أنه يشكُّ بشيء، يبدو أننا قد نجحنا فعلًا». فكّرتُ في الذهاب لرؤية لارا، لكنني كنت في غاية الإرهاق، فآويتُ دائخًا إلى الفراش.

لم يكن يومًا حافلًا بالأحداث. كان يجب أن أفعل أشياء استثنائية، أن أُقبل على الحياة بكل جوارحي. بدلًا من ذلك، نمتُ ثماني عشرة ساعة كاملة من أصل أربع وعشرين.

اليوم الأخير

صباح اليوم التالي، وكان يوم الاثنين الأوّل من الفصل الجديد، خرج الكولونيل من غرفة الحمام في نفس اللحظة التي رنّ فيها مُنبّهي.

كنتُ أنتعل حذائي عندما طرق كيڤن على الباب، طرقة واحدة، ومن ثمّ فتحه ودخل.

قال له الكولونيل: «تبدو في أحسن حال»، وكأن شيئًا لم يكن. كان كيڤن قد قصّ شعر رأسه قَصّةً عسكرية قصيرة أشبه بالفرشاة، وكانت بقعتان صغيرتان من الشعر الأزرق القصير تغطيان جانبيّ رأسه، فوق أذنيه تمامًا. كان يمضغ تبغه الصباحي وشفته السفلية ناتئة إلى أمام. مشى حتى منضدة القهوة، التقط علبة صودا فارغة، وبصق فيها.

«كدتُ أنجو من مقلبكم. لاحظتُ الصبغة في مصفّف الشعر، فعدتُ إلى غرفة الحمام وغسلتُ شعري على الفور. لكنني لم ألاحظها في علبة الجِلّ. لم تفعل الصبغة فعلها مع جِف، أما أنا ولونغويل، فكان علينا أن نقصّ شعر رأسينا على طريقة رجال البحرية. لحسن الحظ أنني أحتفظ بمقصٍّ بين أشيائي».

قلت كاذبًا: «لكنّها تليق بك جيدًا». كان شعره القصير يُبرز تقاطيع وجهه ويُضخّمها، لاسيّما المسافة الضيقة بين عينيه وقد ازدادت ضيقًا. كان الكولونيل يحاول الظهور بمظهر الفتى الشديد البأس تحسّبًا لأي فعل عدواني من طرف كيڤن، سوى أنه من الصعب عليك أن تبدو كذلك، عندما لا ترتدي سوى منشفة برتقالية اللون.

- هدنة؟

أجابه الكولونيل: «أخشى أن متاعبك لم تنتهِ بعد»، لاسيّما أن التقارير المدرسيّة المزورة التي أُرسلت بالبريد لم تصل بعد.

- حسنًا، كما تشاء. لا شك أننا سنتحدث في الأمر بعد أن ينتهي كل شيء.

عقّب الكولونيل: «بلا شكّ»، ومن ثمّ أضاف عندما رآه يغادر الغرفة: «خذ علبة الصودا التي بصقتَ فيها أيها النتِن». لكن كيڤن خرج وأغلق الباب خلفه، فما كان من الكولونيل إلّا أن التقط العلبة، من ثمّ فتح الباب وقذفه بها، لكنه أخطأه بهامش لا بأس به.

- اللعنة، لا تبالغ في الأمر.

- لم توقّع الهدنة بعد يا بدين.

قضيت بعد ظهر ذلك اليوم رفقة لارا. كنّا رائعَين، على الرغم من عدم معرفة أحدنا للآخر، ولم نتكلّم إلا نادرًا. لكننا كنا قريبَين. في لحظة ما، أمسكَت مؤخرتي، فأجفلتُ وقفزت، لكنها كانت قفزةً هائلة نظرًا للوضعية التي كنت أتخذها ممدّدًا على الأرض. قالت: «آسفة»، وأجبتها: «لا عليكِ، إنه تقرّح جلديٌّ صغير بسبب عضّة البجعة».

ذهبنا إلى قاعة التلفزيون، وأقفلتُ الباب خلفنا. كنّا نشاهد مسلسل مغامرات أسرة برادي *(The Brady Bunch)*، والذي لم تشاهده من قبل. كانت الحلقة التي يزور فيها آل برادي مدينة أشباح كان يقطنها في الماضي عمال منجم الذهب، فيجدون أنفسهم سجناء، بعد أن وقعوا في قبضة عجوز معتوه بلحية بيضاء هزيلة. كانت حلقةً مرعبةً على

نحو خاص، لكننا لحسن الحظ ضحكنا كثيرًا، فلم يكن لدينا الكثير من المواضيع التي يمكننا التحدث فيها.

في اللحظة التي كان فيها آل برادي يُدفَعون داخل زنزانتهم، طرحت عليّ لارا سؤالًا عجيبًا: «هل سبق لك أن مارست الجنس عن طريق الفم؟».

- فاجأتِني بالسؤال.

- تفاجأت؟

- نعم.

أجابت بصوتٍ عذبٍ يقطرُ إغراءً: «كل ما في الأمر، أنني لم أفعل ذلك من قبل». كان ذلك فاحشًا إلى حدٍّ بعيد. شعرت بأنني سأتفجّر شظايا. من كان يصدّق ذلك؟ أقصد، لو أنني سمعتُ ذلك من فم ألاسكا لكان شيئًا، لكن سماع هذا الصوت الروماني العذب يمتلئ بالإثارة فجأةً كان شيئًا آخر تمامًا.

- لم أفعل قط.

- هل ترغب في ذلك؟

هل كنتُ أرغب!؟!؟!؟!؟!

- امممممم، أجل. أقصد، لا شيء يجبركِ.

- أعتقد أنني أرغب في ذلك.

وتبادلنا بعض القبَل، ومن ثمّ... ومن ثمّ كنت أُتابع مشاهدة المسلسل، عندما راحت لارا تفكُّ أزرار سروالي، ومن ثمّ شدّت سروالي الداخلي قليلًا إلى الأسفل، وأخرجت عضوي التناسلي.

- واو.

- ماذا؟

رفعت عينيها ونظرت إليّ، لكنها لم تحرك وجهها الذي كان على مسافة ملمتر واحد من عضوي.

- إنه غريب.

- ماذا تقصدين بغريب؟

- إنه كبير، أظنّ.

كنتُ قادرًا على متابعة العيش مع هذا النوع من الغرابة. بعد ذلك، طوّقته بأصابع يدها وأدخلته في فمها.

وراحت تنتظر.

كنّا جامدَين تمامًا. لم تختلج في جسدها عضلةٌ واحدة، ولا في جسدي. كنتُ تلك اللحظة، أعرف أنه من المُفترض أن يحدث شيء آخر، لكنني كنتُ أجهل ما هو.

ظلّت لارا جامدةً تمامًا. كنتُ أشعر بأنفاسها القلقة. مرّت دقائق عدّة، سرق خلالها آل برادي مفتاح الزنزانة وفرّوا هاربين من مدينة الأشباح. كانت مزروعةً في مكانها، لا تتحرك قيد أنملة، وعضوي التناسليّ في فمها، وكنتُ جالسًا أنتظر.

ومن ثمّ أخرجَته من فمها ونظرت إليّ حائرةً.

- هل ينبغي أن أفعل شيئًا ما؟

قلتُ: «امممم، لستُ أدري». كان كلّ ما تعلّمتُه من الفيلم الإباحي الذي شاهدتُه مع ألاسكا ينشّط دماغي مثل شحنة كهربائية مفاجئة. قلتُ في نفسي، ربما ينبغي لها أن تحرك رأسها ذهابًا وإيابًا من الأعلى إلى الأسفل، ولكن ألن يخنقها ذلك؟ لذا، بقيتُ صامتًا ولم أقل شيئًا.

- هل ينبغي أن أعضّه مثلًا؟

- إياك أن تفعلي! أقصد، لا أعتقد ذلك. أعتقد - أقصد، كان ذلك لذيذًا. لست أدري إن كان ثمّة شيء آخر ينبغي فعله.

- نعم، ولكنّك لم.

- امممم. ربما يجدر بنا أن نسأل ألاسكا.

إذًا، فقد ذهبنا إلى غرفة ألاسكا وسألناها. ضحكت حتى كاد يُغمى عليها. كانت جالسةً على سريرها والدموع تسيل على وجهها لكثرة ما ضحكت. نهضت وذهبت إلى غرفة الحمام، ومن ثمّ عادت تحمل في يدها أنبوب معجون أسنان استعملَته لتشرح وتقدّم لنا عرضًا بالتفصيل المملّ. كنتُ مستعدًا للتضحية بحياتي مقابل أن أكون ذلك الأنبوب.

عدتُ مع لارا إلى غرفتها، حيث نفّذت، ونفّذتُ تعليمات ألاسكا حرفيًا، أي الموت مئة ميتةٍ صغيرةٍ، بقبضتين مشدودتين وجسدٍ مرتعشٍ من فرط اللذة. كانت المرة الأولى التي أبلغ فيها النشوة مع فتاة. ومن ثمّ بقيتُ محرجًا ومتوتّرًا، بلا أدنى شكّ، كانت لارا التي قطعت الصمت بسؤالها: «ألا تريد أن ندرس قليلًا؟».

لم يكن لديّ الكثير من الوظائف في اليوم الأول من الفصل الدراسي، بينما راحت لارا تراجع درسها في اللغة الإنكليزية. أخذتُ عن رفّ مكتبة شريكة لارا في الغرفة كتابًا يروي سيرة الثائر الأرجنتيني، تشي غيفارا، الذي كانت صورته معلّقةً على أحد الجدران، ومن ثمّ تمدّدتُ على السرير بجانب لارا. بدأتُ الكتاب من نهايته، كما كنتُ أفعل في بعض الأحيان بالسِّيَر الذاتية التي لم أكن أنوي قراءتها كاملةً. وجدتُ كلماته الأخيرة، من دون أن أتكلّف فعلًا عناء البحث عنها. عندما وقع أسيرًا في قبضة الجيش البوليڤي، قال: «أطلقوا النار أيها الجبناء، لن تقتلوا إلّا رجلًا». فكّرتُ في كلمات سيمون بوليڤار الأخيرة التي وردت في رواية

غارسيا ماركيز، «كيف أخرجُ من هذه المتاهة؟» من المؤكد، أن ثوار أميركا الجنوبية كانوا يواجهون الموت بكثير من الشجاعة. قرأتُ للارا تلك الكلمات بصوت مرتفع قبل أن تستدير على جنبها، وتلقي برأسها على صدري.

- ما هو سرّ انبهارك بكلمات الناس الأخيرة إلى هذا الحد؟

قلتُ: قد يبدو الأمر في غاية الغرابة، لكنني حقًا لم أفكّر في ذلك قط. «لستُ أدري»، ووضعتُ يدي على تجويف ظهرها. «يحدث في بعض الأحيان أن أجدها مضحِكة. على سبيل المثال، ذلك الجنرال سيدجويك، الذي قال في أثناء الحرب الأهلية، «لن يتمكنوا من إصابة فيلٍ على بُعد هذه المسا ــ» وسقط قتيلًا بطلقٍ ناريٍّ قبل أن يكمل جملته. ضحكَت. «ولكن في كثير من الأحيان، يموت البشر كما عاشوا. وكلماتهم الأخيرة تقول الكثير عنهم، وتُفَسِّر لماذا كانت حياتهم تستحقّ أن تُروى. هل يبدو لكِ ذلك معقولًا؟».

- نعم.

- نعم؟ نعم فقط؟

قالت: «نعم»، قبل أن تعود إلى القراءة.

لم أكن أعرف كيف أتكلّم معها، وكنت محبطًا بسبب فشل محاولاتي. بعد برهة قصيرة، نهضتُ.

قبّلتُها قبل أن أذهب. كنتُ على الأقل أستطيعُ فعل ذلك.

لدى عودتي، وجدتُ الكولونيل وألاسكا في غرفتنا، وذهبنا إلى الجسر حيث رويتُ بشيء من الإحراج وبالتفصيل الممل حادثة الجنس الفموي الكارثية.

قال الكولونيل: «يصعب عليّ التصديق أنها فعلَت ذلك مرتين في يوم واحد».

نوّهت ألاسكا: «تقنيًا فقط. ولكن فعليًا، مرة واحدة».

«لا يهم، المهم هو أن عضو البدين اكتشف مجاهل فم لارا».

قالت ألاسكا مصطنعةً ابتسامةً حزينة: «يا كولونيلي المسكين، لو لم أكن متعلّقة جدًا بحبيبي جايك، لأشفقتُ عليك، وتركتُك تكتشف مجاهل فمي».

قال الكولونيل: «غريب، من المفترض أنك لا تغازلين إلّا البدين».

«لكنّ أصبح للبدين حبيبة». وغرقت في الضحك.

في تلك الليلة، ذهبتُ أنا والكولونيل إلى غرفة لارا للاحتفال بنجاح ليلة الإسطبل. كانت هي والكولونيل قد شربا كثيرًا في خلال اليومين الأخيرين، احتفالًا بالحدث، ولم أكن أرغب في مشاركتهما نبيذ فراولة الجبل، لذلك جلستُ واكتفيتُ بقضم قطع البسكويت المملّح، بينما كانا يشربان في كوبين ورقيّين مزركشَين بالزهور. مكتبة سُر مَن قرأ

قال الكولونيل: «لن نشرب من عنق الزجاجة مباشرةً. هذا المساء، نرفع المستوى!».

ردّت ألاسكا: «سوف نتبارز في القدرة على الشراب، وهو تقليد جنوبي قديم، وسوف يشارك البدين في سهرة تعكس طريقة عيش أهل الجنوب الحقيقية: نشرب كوبًا مقابل كوب حتى يُسلِّم أحدُنا بفوز الآخر».

باختصار، هذا كل ما فعلاه، ولم يتوقفا عن الشراب إلا لإطفاء الضوء في الساعة الحادية عشرة، تجنبًا لأي زيارة مفاجئة قد يقوم بها النسر.

دردشا قليلًا، لكنهما شربا كثيرًا. لم أشارك في الحديث، وعبر ظلام الغرفة رحتُ أحدِّقُ إلى الكتب التي تضمّها مكتبةُ حياة ألاسكا. حتى بعد استبعاد تلك التي تلفَت إثر حادثة إغراق الغرفة، لم أنته من قراءة عناوين ما تبقى منها حتى الصباح. كانت تلك الكتب تتكدّس بعضها فوق بعض في أكوام عشوائية، وفوق إحدى تلك الأكوام وُضعت في توازن هش مزهريةٌ بلاستيكية تضم دزينة من أزهار الزنبق البيضاء. عندما استفسرتُ عنها، أجابت ألاسكا: «هدية جايك بمناسبة عيد ميلادي». لم أرغب في متابعة الحوار بهذا الاتجاه، فعدتُ إلى قراءة العناوين، وبينما كنتُ أتساءل كيف يمكنني قراءة كلمات إدغار آلن پو الأخيرة، (للعلم فقط كانت: إلهي خلّص روحي البائسة) سمعتُ ألاسكا تقول: «البدين لا يستمع إلينا».

- أنا أستمع.

- كنا نتحدث عن لعبة الحقيقة أم الفعل. كنتُ ألعبها في الصف السابع، فما رأيك؟

قلتُ: «لم ألعبْها قط، لم يكن لي أصدقاء في الصف السابع».

صاحت بصوتٍ وجدتُه مرتفعًا بعض الشيء: «إذًا فلنلعب!» وذلك لسببين، كان الوقت متأخرًا جدًا وكانت تشرب النبيذ. «حقيقة أم فعل!» صاحت ثانيةً.

- حسنًا، لكنني لن أُقبّل الكولونيل.

كان الكولونيل يجلس متهالكًا في ركنٍ من الغرفة. قال: «أنا لا أستطيع تقبيل أحد، فأنا سكران».

بدأت ألاسكا:

- حقيقة أم فعل، يا بدين؟

- فعل.

- قبِّلْني.

وقبّلتُها.

حدث ذلك بسرعة. ضحكتُ، وبدوتُ مضطربًا، فانحنَت عليّ وميّلَت رأسها جانبًا، ومن ثمّ قبّلَتني. هذه المرة لم تكن تفصل بيني وبينها أي سماكة، لسانها في فمي، ولساني في فمها، يرقصان جيئةً وذهابًا، حتى ما عاد هناك فمي وفمها، بل فمان متداخلان. كان للُعابها مذاق السجائر والصودا والنبيذ ومُرطّب الشفاه. راحت تداعب وجهي، وشعرتُ بأصابعها الغضّة ترسم منحنى فكّي، ومن ثمّ تمدّدنا من دون أن تفترق شفاهنا، هي فوقي، وأنا أتحرّك تحتها. للحظة، انفصلتُ عنها لأقول: «ماذا يحدثُ لنا؟» فوضعت إصبعها على شفتيها مثابة دعوةٍ للصمت، وعدم التوقف عن تقبيلها. فجأةً، أمسكت بإحدى يديّ ووضعتها على بطنها. انتقلتُ من تحتها ببطء، وتمدّدتُ فوقها، فشعرتُ بظهرها يتقوّس وينسابُ تحتي.

ابتعدتُ عنها ثانيةً. وقلت: «ولارا؟ وجايك؟» فأسكتتني ثانيةً. همسَت: «قلّلْ من اللسان وأكثِرْ من الشفاه»، وفعلتُ أفضل ما في وسعي فعله. كنتُ أظنُّ أن اللسان هو الأهم، لكنها كانت الخبيرة وكنتُ التلميذ.

صاح الكولونيل: «يا إلهي، لن تلبث أن تشتدّ سخونة العرض».

لكننا لم نكترث له. أخذت يدي ثانيةً ورفعَتها من خصرها إلى صدرها. شعرتُ بأصابعي وهي تتسلّل ببطءٍ تحت قميصها راسمةً استدارة نهديها ولكن فوق حمالة الصدر، ومن ثمّ أخذتُ أحدهما بيدي وضغطتُ بنعومة. همست من دون أن تفارق شفتاها شفتيّ، «أنت بارع في هذا». كنّا نتحرك معًا بإيقاع واحد، وجسدي محشور بين ساقيها المنفرجتين.

همست: «هذا ممتع جدًا، لكنني أكاد أموت من النعاس. التتمّة في العدد القادم؟» قبّلتني ثانية، وبعد لحظات تحرّرت من ثقل جسدي عليها، ومن ثمّ وضعت رأسها على صدري ونامت على الفور.

لم نمارس الجنس. لم نتعرّ. لم ألمس صدرها عاريًا، ولم تنحدر يداها أبعد من وركيّ. لم يكن ذلك مهمًا. كانت تنام عندما همستُ لها: «ألاسكا يونغ، أحبُّك».

كنتُ على وشك النوم عندما سألني الكولونيل: «هل كنتَ تقبّل ألاسكا أم ماذا؟».

- نعم.

فكلّم نفسه: «لن تنتهي هذه القصة على خير».

غلبني النعاس ونمتُ وطعم شفتيها في فمي. لم يكن نومًا مريحًا فعلًا، لكنّه كان نومًا من الصعب الاستيقاظ منه. ومن ثمّ سمعتُ رنين جرس الهاتف، أو اعتقدت ذلك. أعتقدُ أنّ ألاسكا استيقظت. وأعتقدُ أيضًا أنّي سمعتها تخرج من الغرفة. لكنه من المستحيل معرفة الوقت الذي استغرقه غيابها.

ولكن مهما كان الوقت الذي قضته خارج الغرفة، فقد استيقظتُ أنا والكولونيل عندما عادت وصفقت الباب خلفها. كانت تبكي بمرارة، مثلما فعلَت غداة عيد الشكر، ولكن على نحوٍ أسوأ.

صرخَت: «يجب أن أخرج من هنا، يجب أن أذهب!».

سألتُها: «ما بك؟ ما الذي حدث؟».

فأجابت: «لقد نسيتُ! اللعنة، متى سأتوقف عن إفساد كل شيء؟» وقبل أن أتمكّن من التفكير في ما بإمكانها أن تنساه، صرخَت: «يجب أن أذهب. ساعداني على الخروج من هنا!».

- إلى أين يجب أن تذهبي؟

جلسَت، ومن ثمّ دفنَت رأسها بين ساقيها، وراحت تبكي: «أرجوكما، حوِّلا انتباه النسر عني بحيث أستطيع الذهاب الآن. أرجوكما».

بنفس الشعور بالذنب، وفي اللحظة نفسها، أجبتُ أنا والكولونيل: «حسنًا».

قال الكولونيل: «إيّاك أن تشعلي المصابيح، قودي ببطء ولا تشعلي المصابيح. هل أنت متأكدة أنك بخير؟».

قالت: «تبًّا، فقط خلِّصاني من النسر»، وهي تجهش وتصرخ معًا كالأطفال: «ربّاه، المعذرة يا إلهي. المعذرة».

قال الكولونيل: «حسنًا. لا تشغّلي محرك السيارة قبل أن تسمعي صوت الدفعة الثانية من المفرقعات».

مكتبة
t.me/soramnqraa

خرجنا.

لم نقل: لا تقودي. أنت ثملة.

لم نقل: لن نتركك تقودين تلك السيارة وأنت مضطربة وحزينة إلى هذا الحد.

لم نقل: بإمكانك أن تؤجّلي ذلك إلى الغد. فأي شيء، وكل شيء يمكنه أن ينتظر.

ذهبنا إلى غرفتنا وأخذنا أحزمة المفرقعات الثلاثة التي تركناها تحت مغسلة غرفة الحمّام. ومن ثمّ ركضنا حتى منزل النسر، ولم نكن واثقَين من أننا سننجح هذه المرة أيضًا.

لكننا نجحنا. فما إن دوّت الانفجارات الأولى حتى برز النسر، كما لو أنه كان ينتظرنا. ركضنا نحو الغابة، واستدرجناه بما يكفي، بحيث

لم يستطع سماع ألاسكا وهي تشغّل محرك سيارتها وتغادر الحرَم. بعد ذلك، عدنا أدراجنا خائضَيْن في مياه الجدول بهدف كسب الوقت، ومن ثمّ تسلّلنا إلى الغرفة رقم 43، عبر النافذة الخلفية، ونمنا مثل طفلين رضيعَين.

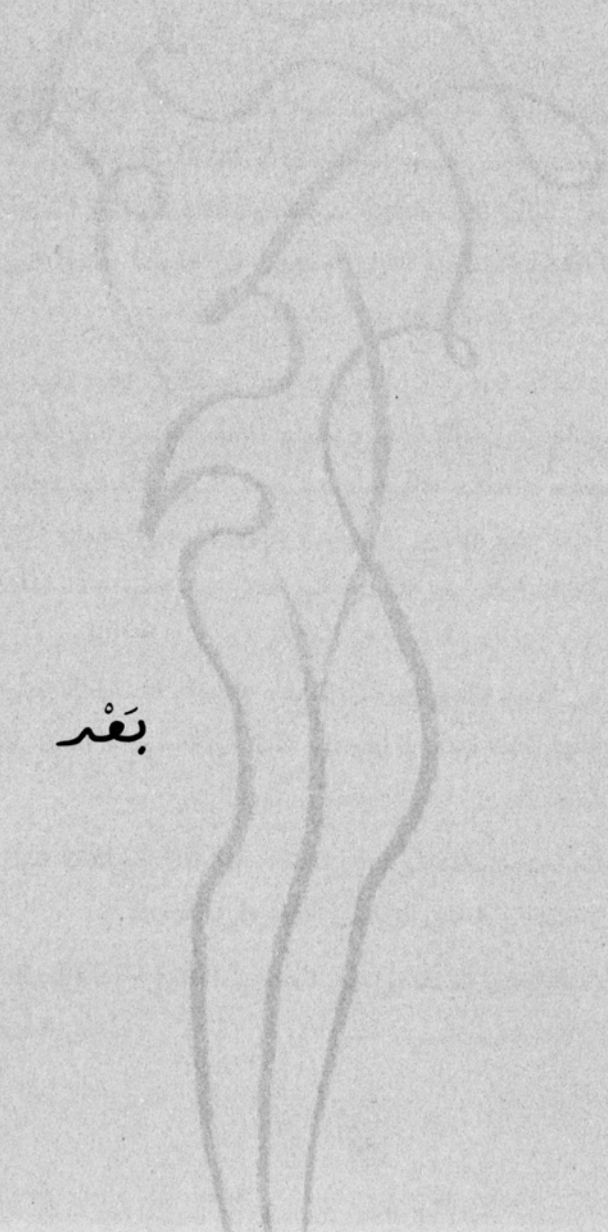

بَعْد

اليوم التالي

غرق الكولونيل في نومٍ مضطربٍ كنوم السكارى، أمّا أنا فتمدّدتُ على السرير السفلي، وفمي ينبضُ بحيويةٍ كما لو كان ما يزال يقبِّل. لو لم يطرق النسر على الباب ثلاث طرقات سريعة، ويوقظنا في تمام الساعة الثامنة، لفاتتنا الحصة الصباحية الأولى. استدرتُ في اللحظة نفسها التي فتح فيها الباب. دخلَ، ودخل معه سيلٌ من الضوء الصباحي.

قال: «أريدكما أن تحضرا إلى النادي الرياضي»، نظرتُ نحوه بعينين شبه مغمضتين. لم يكن مرئيًا بوضوح بسبب أشعة الشمس التي كانت تضيئه من الخلف. وأضاف: «الآن»، وفهمتُ كل شيء. كنّا في ورطة. لقد انكشف أمرنا. إنها التقارير المدرسية المزورة، وهي عديدة أكثر مما ينبغي. الكحول، الكثير من الكحول في خلال زمن قصير جدًا. لماذا أصرّا على الشراب ليلة أمس؟ ومن ثمّ مجدّدًا، شعرتُ بذلك الطّعم على شفتيّ، مزيج من النبيذ والتبغ ومرطِّب الشفاه وألاسكا، فتساءلتُ، لعلّها لم تقبّلني إلّا لأنها كانت ثملة. لا تطردني، قلتُ في نفسي. لا تفعل. لا، ليس بعد أن قبّلتُها.

وكما لو أنه استجاب لدعائي، قال النسر: «لا تخافا، لم تفعلا شيئًا. ولكن يجب أن تأتيا إلى النادي الرياضي الآن وعلى الفور».

سمعتُ الكولونيل يستدير على السرير العلوي: «ما الأمر؟». فقال النسر: «لقد حدث شيءٌ فظيع»، ومن ثمّ خرج وأغلق الباب خلفه.

التقط الكولونيل سرواله الجينز عن الأرض، وقال: «هذا يشبه ما حدث منذ سنتين. عندما ماتت زوجة الدكتور هايد. أعتقد أن الأمر يتعلق بالعجوز نفسه هذه المرة. مسكين، لم يكن قد بقي لديه الكثير من النفَس». نظر إليّ بعينين حمراوين نصف مغمضتين، ومن ثمّ تثاءب.

- تبدو دائخًا قليلًا.

أغمض عينيه.

- لأنني أحاول إخفاء ذلك يا بدين، لست دائخًا قليلًا، بل دائخ جدًا.

- لقد قبّلتُ ألاسكا.

- أعرف، لم أكن ثملًا إلى هذا الحد. هيا بنا.

ونحن في طريقنا إلى النادي الرياضي، عبَرنا ساحة المباني السكنية. كنت أرتدي سروال جينز واسع وكنزة قطنية من دون قميص داخلي، وكنت منفوش الشعر. كان الأساتذة جميعهم يطرقون على أبواب الغرف، لكنني لم أرَ الدكتور هايد. تخيّلتُه ميتًا في منزله وممدّدًا على الأرض، وتساءلتُ، تُرى مَن اكتشف جثته، وكيف عرفوا بغيابه قبل ابتداء الدروس؟

قلتُ للكولونيل: «لا أرى الدكتور هايد».

- المسكين.

كان نصف النادي الرياضي قد امتلأ عندما وصلنا، وكانوا قد نصبوا منصةً في وسط ملعب كرة السلة، على مقربة من المدرّجات. جلستُ في الصف الثاني، وجلس الكولونيل أمامي مباشرةً. كانت مشاعري تتوزع بين الحزن على الدكتور هايد والإثارة من جراء التفكير في ألاسكا، وفي فمها القريب من فمي وهي تهمس لي: «التتمّة في العدد القادم؟».

لم يخطر في بالي شيء، حتى عندما دخل الدكتور هايد جارًّا خطاه الضئيلة ببطء، وهو يتقدّم نحونا، أنا والكولونيل.

ربّتُّ كتف الكولونيل وقلت: «هايد هنا»، أجاب الكولونيل: «اللعنة»، فقلتُ: «ماذا؟»، ومن ثمّ قال: «أين ألاسكا؟» قلتُ: «لا!» فردّ: «يا بدين، أهي هنا أم لا؟» نهضنا ورحنا نتفحّص الوجوه في المدرّج.

صعد النسر إلى المنصة، وقال: «الجميع هنا؟».

أجبتُه: «لا، ألاسكا ليست هنا».

خفض النسر رأسه ونظر إلى الأسفل: «باستثناء ألاسكا، هل الجميع هنا؟».

- ألاسكا ليست هنا!

- حسنًا مايلز، شكرًا.

لا نستطيع البدء من دونها.

نظر النسرُ إليّ. كان يبكي بصمت والدموع تسيل من عينيه حتى ذقنه لتتكسّر على سرواله المخمليّ المضلّع. حدّق إليّ طويلًا، ولكن ليس بتلك النظرة القاتلة. كان يخفق بعينيه ليطرد منها الدموع، وبدا وكأنه قد صار تمثالًا يجسّد حزن هذا العالم كلّه.

فقلتُ: «أرجوك يا سيدي، ألا يمكننا أن ننتظر ألاسكا، أرجوك؟»، انتابني شعورٌ بأن جميع الأعين كانت تحدّق إلينا مستفسرةً عمّا كنت أعرفه وأرفض تصديقه.

نظر النسر إلى الأسفل وعضّ على شفته السفلى: «ليلة أمس، تعرّضت ألاسكا لحادثٍ مريع»، وراحت دموعه تتسارع: «وفارقت الحياة. لقد رحلت ألاسكا».

للحظة، صمت الجميع، ولم يشهد النادي الرياضي قطّ مثل ذلك الهدوء، حتى في خلال اللحظات التي كانت تسبق تسخيف الكولونيل للخصوم قبل رميةٍ حرّة. حدّقتُ إلى مؤخرة رأسه. حدّقتُ إلى شعره الكثيف. لوهلة، كان الصمت من العمق بحيث يمكنك سماع عدم التنفُّس. كان الفراغ، الذي خلقه 190 طالبًا مصدومًا، خاليًا حتى من الهواء.

قلتُ في نفسي: أنا المذنب.

قلتُ في نفسي: لستُ بخير.

قلتُ في نفسي: أشعرُ بالغثيان. سوف أتقيّأ.

نهضتُ وهرعتُ إلى الخارج. تمكّنت من الوصول إلى سلة قمامة على بعد مئة وخمسين سنتيمترًا من البوابة الزجاجية المزدوجة، وتقيّأتُ فيها على زجاجات مشروب الطاقة الفارغة وبقايا سندويتشات الهمبرغر. لكن شيئًا لم يخرج من جوفي. كنت ألهث وحسب، كانت عضلات معدتي تتقلّص، وتنفتح حنجرتي ليخرج منها صوتٌ حلقيٌّ مع كل تشنّج، وبين النوبة والأخرى، كنت أشهق متنفسًا بصعوبة. فمُها. فمها البارد الميّت. التتمّة في العدد القادم. كنت أعرف أنها ثملة. غاضبة. إنه لأمرٍ بديهي ألّا تترك شخصًا ثملًا وغاضبًا يقود سيارة. بديهيّ. تبًّا، مايلز، ما هي مشكلتك بحق الجحيم؟ ومن ثمّ تقيّأتُ أخيرًا. وكل ما بقي منها في فمي، كان هنا في سلة القمامة هذه. ومن ثمّ تقيّأت ثانيةً، وثالثةً. ومن ثمّ رحتُ أقول في نفسي، حسنًا، اهدأ، كُن جدّيًّا، ألاسكا لم تمت.

لم تمُتْ. ما زالت حيّةً. ما زالت حيّةً في مكانٍ ما. في الغابة. ألاسكا تختبئ في الغابة ولم تمُت، تختبئ وحسب. هو مقلبٌ آخر دبّرته لنا،

وألعوبةٌ استثنائيةٌ أخرى من ألاعيبها. هكذا هي ألاسكا، ظريفة ولعوب ولا تعرف متى وكيف تتوقف.

ومن ثمّ شعرتُ بالتحسن، لأنّ ألاسكا لم تمت إطلاقًا.

عدتُ إلى النادي الرياضي، حيث بدا الجميع في مستويات مختلفةٍ من التفتُّت والتلاشي. كان ذلك أشبه بمشاهدة برنامج خاص عن الطقوس الجنائزية على قناة ناشيونال جيوغرافيك. رأيت تاكومي منحنيًا فوق لارا، ويضع راحتيه على كتفيها. رأيت كيڤن، يدفن رأسه المحلوق بين ركبتيه، وفتاةً تُدعى موللي تان كانت قد راجعَت معنا درس المثلثات، تئنّ وتدقّ فخذيها بقبضتيها المشدودتين. على نحوٍ ما، كنت أعرف هؤلاء الأشخاص ولا أعرفهم في الوقت نفسه، وجميعهم بلا استثناء كانوا يتفتّتون. ومن ثمّ رأيت الكولونيل في المدرّج ممدّدًا على جنبه، يطوي ساقيه ويضمّهما إلى صدره، ومدام أومالي تجلس بجانبه وتمدُّ يدها إلى كتفه من دون أن تلمسها فعلًا. كان يصرخ، ويشهق. يصرخ، ويشهق. ومن ثمّ يصرخ.

في البداية، ظننتُه صراخًا وحسب. لكنني بعد وهلة، لاحظت أن أنفاسه كانت موزونة، ويقول شيئًا ما. كان يصرخ: «أنا آسف، آسف جدًا».

أخذت مدام أومالي يده وقالت: «لا تأسف يا تشيپ، ولا تشعر بالندم، لم يكن بوسعك أن تفعل شيئًا». ولكن، آه، لو كانت تعلم».

بقيت ذاهلًا أنظر إلى ذلك المشهد، أفكّر في ألاسكا، وأتخيّلها حيّةً، إلى أن شعرتُ بيدٍ على كتفي، فاستدرتُ ورأيتُ النسر. قلتُ له: «أعتقد أنها مزحة من مزحاتها السّمجة»، لكنّه قال: «لا يا مايلز، أنا آسف». شعرتُ بالحرارة تصعدُ إلى وجنتيّ، وقلتُ:

- إنها فتاة قوية حقًا. يمكنها أن تتغلّب على ذلك وتنجو.

- لقد رأيتُها، أنا آسف.

- ما الذي حدث؟

- كان أحدهم يشعل المفرقعات في الغابة.

أغمضتُ عينيّ شادًّا بقوة على جفوني، وكانت الحقيقة الصارخة التي لا يمكن إنكارها حاضرةً تفرض نفسها: لقد قتلتُها. ومن ثمّ تابع: «خرجتُ من منزلي لملاحقة الفاعل، وأعتقد أنها في هذه الأثناء خرجت بسيارتها من الحرَم. كان الوقت متأخرًا، وكانت تقود على الطريق رقم 65، جنوبي مركز المدينة. كانت شاحنةٌ معطّلةٌ قد توقّفت على عرض الطريق فسدّتها في الاتجاهين: كانت إحدى سيارات الشرطة قد وصلت لتوّها» عندما صدمت ألاسكا الشاحنة من دون أن تحاول الانحراف لتفاديها حتى. أعتقد أنها كانت ثملة تمامًا. وبحسب رجال الشرطة، كانت تفوح منها رائحة الكحول».

- وكيف عرَفت ذلك؟

- لقد رأيتُها، وتحدّثتُ إلى رجال الشرطة. قالوا إنها ماتت على الفور إثر اصطدام صدرها بالمقود. أنا آسف.

قلتُ: «هل رأيتَها؟» وأجاب بنعم، ومن ثمّ سألتُه: «كيف كانت؟» وأجاب: «لا شيء سوى خيط رفيع من الدم كان يسيل من أنفها». جلستُ على الأرض، وسمعتُ الكولونيل يصرخ ويشهق، ومن ثمّ شعرتُ بيدين على ظهري عندما انحنيت إلى أمام، لكنني لم أكن أستطيع رؤية شيءٍ سواها، عارية، ممدّدة على طاولة معدنية، وخيط رفيع من الدم يسيل من أنفها مثل دمعة؛ عيناها الخضراوان تحدّقان إلى البعيد، وفمها مرفوع إلى الحد الذي يوحي ببداية ابتسامة. من كان يظنّ أن هذا الجسد الجليديّ

كان ذات مرة محمومًا بين ذراعيّ، وأنّ هذا الفم البارد، كان حارًّا وناعمًا على فمي.

مشينا أنا والكولونيل بصمت في طريقنا إلى الغرفة. وأنا أحدِّقُ إلى الأرض تحت قدميّ. لا أقوى على الكفّ عن التفكير فيها ميّتة، ولا أقوى على الكفّ عن التفكير في استحالة موتها. لا يموت الناس هكذا وحسب. أكاد أختنق. اعتراني الشعور بالخوف، كما لو أنّ أحدًا أخبرني بأنني سأتعرّض لضرب مبرّحٍ ما إن ينتهي الدوام المدرسي، وبما أن الوقت قد حان، كنت أعرف جيدًا ما الذي ينتظرني. الطقس بارد جدًا، وأكاد أتجمّد. أتخيّل نفسي راكضًا إلى الجدول، أغوص فيه مغطّسًا رأسي أوّلًا، لكنّ المياه ضحلة جدًا، ومن الضآلة بحيث تجرفُ يداي الحصى. ينزلق جسدي في الماء البارد، فتتحوّل صدمة البرودة إلى خدَر، وأستسلم تاركًا التيار يجرفني إلى نهر كاهابا، ومن ثمّ إلى نهر ألاباما، ومن ثمّ إلى خليج موبيل فخليج المكسيك.

أودّ لو أنّي أذوب في هذا العشب البنّيّ الذي يطقطق تحت دوس أقدامنا، ونحن نمشي بصمتٍ إلى غرفتنا. قدَما الكولونيل كبيرتان جدًا قياسًا لقصر قامته، والحذاء الرياضي الجديد الذي اشتراه بسعر بخس، والذي ينتعله منذ بالوا في حذائه القديم، يجعل قدميه تبدوان مثل قدميّ مهرّج السيرك. رحت أفكّر في زحّافات ألاسكا المعلّقتين بأصابع قدميها ذات الأظافر المطليّة بالأزرق، عندما جلسنا على الأرجوحة وتأرجحنا على شاطئ البحيرة. هل سينفتح التابوت؟ هل سيعيد الحانوتيّ ابتسامتها؟ ما زلت أسمعها تقول: «هذا ممتع، لكنني أكاد أموت من النعاس. التتمّة في العدد القادم؟».

عاش القس هنري وورد بيتشر في القرن التاسع عشر، وكانت كلماته الأخيرة: «الآن يبدأ اللغز». وقبل أن يفارق الحياة، قال الشاعر ديلان توماس، الذي كان يحب الشراب بقدر ما كانت تحبه ألاسكا، على الأقل: «لقد شربت بجرعةٍ واحدة ثماني عشرة كأسًا من الويسكي، أعتقد أنه رقم قياسي». أما الكلمات الأخيرة التي كانت تفضّلها ألاسكا، فهي ليوجين أونيل: «ولدتُ في غرفة فندق، واللعنة، ها أنا أموتُ في غرفة فندق». حتى ضحايا حوادث السيارات، لديهم ما يكفي من الوقت ليقولوا كلماتهم الأخيرة. فقد قالت الأميرة دايانا: «رباه، ما الذي حدث؟» وقال النجم السينمائي جيمس دين قبل أن تصطدم سيارة البورش التي كان يقودها بسيارة أخرى: «لا بدّ من أنهم يروننا». أحفظ الكثير من الكلمات الأخيرة التي قيلت. لكنني لن أعرف قط كلمات ألاسكا الأخيرة.

أتقدّم الكولونيل ببضع خطوات قبل أن أدرك أنه وقع أرضًا. أستدير نحو الخلف. وإذا به يرقد ممدّدًا على الأرض ويعفّر وجهه التراب. «يجب أن تنهض، يا تشيپ. يجب أن تنهض. يجب أن نصل إلى الغرفة».

يرفع الكولونيل وجهه عن الأرض وينظر في عينيّ، ويقول: «لا أستطيع أن أتنفّس».

لكنّه يستطيع، أعرف ذلك، لأنه يلهث، ويتنفّس كما لو أنه يحاول نفخ الهواء في صدرِ جثة. أرفعه، فيتشبّث بي، ويعود يبكي ثانيةً، وثالثةً، مردّدًا بلا انقطاع: «أنا آسف. آسف جدًا». لم نتعانق قبل ذلك قط، ولم يكن ثمّة ما يُمكن قوله، إذ ينبغي له أن يندم. أضع يدي خلف رأسه وأضمُّه إلى صدري، ومن ثمّ أقول الشيء الوحيد الحقيقي: «أنا آسف أيضًا».

بعد يومين

لم أنم تلك الليلة. كان الفجر قد تلكّأ، وعندما قرّرَ الطلوع، وجدَنا جالسَين على الكنبة لا ننبس ببنت شفة، بينما راحت أشعةُ الشمس تتدفّق من فتحات الستارة المعدنية، والرادياتور المتداع يجهدُ غير قادرٍ على تدفئتنا. كان الكولونيل يقرأ في أطلسه.

كنتُ عشيّة ذلك اليوم قد تحدّيتُ البرد القارس واتصلتُ بوالديّ، لكنني عندما قلتُ هذه المرة: «مرحبًا، أنا مايلز»، وأجابت والدتي: «ما الذي حدث، أكلّ شيء على ما يرام؟» استطعتُ أن أقول بكل ثقة، لا، ليست الأمور على ما يرام. عندها، أخذ والدي سماعة الهاتف.

سألني: «ما بك، وما المشكلة؟».

قالت والدتي: «لا تصرخ».

- أنا لا أصرخ، لكنّ الجهاز لا يعمل بشكل جيد.

فقالت: «إذًا، في هذه الحالة، أخفض صوتك»، لذلك احتجتُ إلى بعض الوقت قبل أن أتمكن من قول أي شيء، وعندما أصبحتُ قادرًا على الكلام، احتجتُ إلى المزيد من الوقت لكي أرتّب كلماتي، وقلت محدّقًا إلى الأرقام والخربشات على الجدار حول جهاز الهاتف: «لقد ماتت صديقتي ألاسكا في حادث سيارة».

قالت والدتي: «أوه، مايلز، أنا آسفة، يا بني. هل ترغب في المجيء إلى البيت؟».

قلتُ: «لا، أريد البقاء هنا. لا أستطيع تصديق ذلك»، وكان ذلك صحيحًا، ولو بشكل جزئيّ.

قال والدي: «هذا فظيع، ليكن اللّه بعون والديها». مسكينٌ والدها،

قلتُ في نفسي، متسائلًا عمّا حلّ به. لم أستطع مجرّد تخيّل ما يمكن أن يحُلّ بوالديّ لو قُتلتُ في حادث سيارة، وأنا أقود في حالةٍ من الثمالة المتقدمة. رباه، لو اكتشف والدها ذلك، فلا شك أنه سيقتلنا نحن الاثنين، أنا والكولونيل.

سألتني والدتي: «ما الذي يمكننا أن نفعله الآن من أجلك؟».

- لم أكن أريد سوى أن ترفعا السماعة، وتجيبا، وقد فعلتما ذلك. سمعتُ أحدهم ينشقُ خلفي من البرد أو الحزن، لستُ أدري، فقلتُ لوالديّ: «يجب أن أذهب، فهنالك مَن ينتظر، ويريد استخدام الهاتف».

أمضيت الليل بطوله صامتًا وقد شلّني الرعب. ولكن ما الذي كان يخيفني إلى هذا الحد؟ فقد حدث ما حدث وانتهى الأمر. إنّها الآن ميّتة. في لحظة ما، كان لساني في فمها، وكنتُ أشعر بحرارة جسدها ونعومته على جلدي. هي التي كانت تضحك، وهي تحاول أن تعلّمني كيف أكون أبرع في التقبيل، وتعِدُ بالتتمة في العدد القادم. والآن.

والآن كان جسدها يزداد برودةً من ساعة إلى أخرى، ومع كل نفَسٍ من أنفاسي، كانت تزداد موتًا. قلتُ في نفسي: ذلك هو الخوف: لقد فقدتُ شيئًا مهمًّا كنتُ بأمسّ الحاجة إليه، ولا أستطيع استرداده. إنه الخوف الذي يشعر به شخص فقدَ نظّارته، وعندما ذهب إلى متجر بيع النظارات، قالوا له إن العالم بأسره لم يعد فيه نظّارة واحدة، وأنّ عليه من الآن فصاعدًا أن يكمل العيش من دونها.

قبل الساعة الثامنة صباحًا ببضع ثوان، أعلن الكولونيل من دون أن يوجّه كلامه إلى شخصٍ بعينه: «أعتقد أن غداء اليوم سيتألّف من فطائر البوفريدو».

- حقًّا؟ أنت جائع؟

- اللعنة، لا لست جائعًا. لكنّها هي التي اخترعَت هذا الاسم. عندما جئنا إلى كالڤر كريك، كانت تُسمّى البوريتو المقلية، ومن ثمّ بدأت ألاسكا تسميها بوفريدو، وقلّدها الجميع في ذلك، إلى أن قرّرت مورين أخيرًا، تغيير اسمها رسميًا.

صمت لبرهة ومن ثمّ قال:

- لستُ أدري ما ينبغي أن أفعل يا مايلز.

- أجل، أعرف ذلك.

- لقد انتهيتُ من حفظ العواصم عن ظهر قلب.

- عواصم الولايات؟

- لا، عواصم الولايات نتعلّمها في الصف الخامس. عواصم البلدان. أعطني اسم بلد.

- كندا.

- ألم تجد أصعب من ذلك؟

- حسنًا. أوزبكستان؟

«طشقند». لم يفكّر لثانيةٍ واحدةٍ حتى. كان الجواب حاضرًا على طرف لسانه، كما لو أنه عرف قبل أن أتكلّم أنني سأقول «أوزبكستان». ومن ثمّ اقترح: «هيّا ندخّن».

ذهبنا إلى غرفة الحمام وفتحنا صنبور الماء الساخن، ومن ثمّ أخرج الكولونيل من جيبه علبة أعواد ثقاب، وقدح أحدها. لم يشتعل. حاول ثانيةً وأخفق. ومن ثمّ حاول مرة أخرى وأخفق، فراح يكرر المحاولة بعصبيةٍ متزايدة، إلى أن رمى العلبة على الأرض وصاح: «اللعنة!».

قلتُ: «لا تقلق، كل شيء على ما يرام»، ورحتُ أبحث في جيبي عن ولاعة.

قال وهو يرمي سيجارته: «لا، ليس كل شيء على ما يرام يا بدين»، وقد ثار فجأةً: «اللعنة! كيف حدث ذلك؟ لماذا تصرّفت بهذا الغباء؟ لم تكن قط قادرةً على التفكير بروية في أي شيء. متهورة إلى أبعد حدّ. اللعنة. ليس كل شيء على ما يرام. لا أصدّق أنها كانت غبيةً إلى هذا الحدّ!».

قلتُ: «كان علينا أن نوقفها، ونمنعها من الذهاب».

انحنى الكولونيل على صنبور الماء الضعيف وأغلقه، ومن ثمّ خبط براحته على بلاط الجدار: «أجل، أعرف أنه كان علينا أن نوقفها، وأعرف ذلك جيدًا. ولكن لماذا كان ينبغي أن نفعل؟ لماذا كان علينا أن نراقبها ونسهر عليها كما لو أنها كانت طفلةً لم تتجاوز الثلاثة أعوام؟ يكفيك أن تخطئ مرة واحدة، واحدة فقط، وهي ماذا تفعل؟ تموت. اللعنة، أكاد أنفجر. سأخرج لأمشي قليلًا».

- لا بأس، محاولًا البقاء هادئًا.

- آسف، أنا محطّمٌ تمامًا. أشعر كما لو أنني قد أموت.

- قد تموت؟

- نعم، نعم قد أموت. ولِم لا؟ ما هي إلا غمضة عين، حتى يجد المرء نفسه في العالم الآخر.

تبعتُه إلى الغرفة حيث التقط أطلسه عن السرير، ومن ثمّ رفع سحّاب سترته، وخرج.

مع الصباح توافد زوّارٌ. بعد ساعة من ذهاب الكولونيل، مرّ هانك والستن الدائخ على الدوام، وعرضَ عليّ بعض الحشيش، لكنّني

رفضــت بلباقــة. عانقني هانك وقال: «على الأقل، كانــت ميتةً فوريّة، ولم تتألّم».

كنت أعلم أنه يحاول مواساتي والتخفيف عنّي. لكنه لم يفهم شيئًا. كان هنالك الكثير من الألم. ألم لا متناهٍ يرقد في أحشائي، ولا يريد أن يغادرها، حتى عندما جثوت على بلاط أرض غرفة الحمام الجليديّ لأُفرغها.

ومن ثمّ ما هي الميتة «الفورية»؟ وما هو طول هذه اللحظة الفورية؟ أهو ثانية؟ عشر ثوانٍ؟ لا بدّ من أن الألم الذي رافق تلك الثواني كان فظيعًا، عندما كان قلبها ينهار، وكانت رئتاها تفتقدان الهواء، والدم لا يصل إلى دماغها، ولا شيء سوى الذعر الخام. ما هو الفوريُّ بحق الجحيم؟ لا شيء، لا وجود لشيءٍ فوريّ. فالأرزُّ الفوريّ يحتاج إلى خمس دقائق لكي ينضج، وكعكة الحلوى الفوريّة تحتاج إلى ساعة. ولا شك في أن الشعور بألم فوريٍّ فظيعٌ، فوريٌّ هو الآخر، بل مفرطٌ في فوريّته.

هل كان لديها المتسع من الوقت لكي ترى حياتها تمرُّ كلمح البصر؟ هل رأتني؟ هل رأت جايك؟ لقد وعدَت، كنتُ أتذكّرُ أنها وعدَتني بالتتمّة في العدد القادم، لكنني كنتُ أعرف، أيضًا، أنها كانت تقود باتجاه الشمال عندما ماتت، باتجاه ناشفيل، باتجاه جايك. ربما لم يكن ذلك الوعد يعني لها شيئًا، وربما لم يكن أكثر من نزوة أخرى. بقيتُ شاردًا، وراح نظري يتوه عبر دائرة المباني الغارقة في صمت عميق متجاوزًا هانك الواقف على العتبة، ومن ثمّ أخذت أتساءل إن كنتُ أعني لها شيئًا، ولم أستطع الإجابة بغير نعم، فقد وعدَت. التتمّة في العدد القادم.

ومن ثمّ جاءت لارا، كانت عيناها منتفختين بشكل فظيع. «ما الذي

حدث؟ سألتني بينما كنتُ أحضنُها. وقفتُ على رؤوس أصابعي لأضع ذقني فوق رأسها.

قلتُ: «لست أدري».

سألَت: «هل رأيتها تلك الليلة؟» موجّهةً كلامها إلى ترقوتيّ.

قلتُ: «كانت ثملة. ذهبتُ أنا والكولونيل للنوم، وأفترض أنها غادرَت الحرم بسيارتها». وبذلك أصبحت هذه الصيغةُ النسخةَ الرسميّة للكذبة.

شعرتُ بأصابع لارا المبلّلة بالدموع تشدُّ على راحتي، وقبل أن أغيّر رأيي، سحبتُ يدي. وقلتُ: «أنا آسف».

فردّت: «لا بأس. سأكون في غرفتي إن أردت المرور». لم أمرّ. لم أكن أعرف ما الذي يمكنني أن أقوله لها. كنتُ أحد أضلاع مثلث حبٍّ مات ضلعُه الثالث.

بعد ظهر ذلك اليوم، دُعينا ثانيةً إلى اجتماع عمومي في النادي الرياضي. أعلن النسر عن عزم المدرسة على استئجار حافلة لنقل الطلاب من أجل المشاركة في مراسم الجنازة يوم الأحد المقبل بمدينة ڤاين ستيشن. كنا نهمُّ بالخروج عندما رأيت تاكومي ولارا يتجهان نحوي. التقت نظرتي بنظرتها فابتسمَت ابتسامة باهتة. بادلتُها الابتسامة، لكنني سرعان ما أشحتُ برأسي، وذُبتُ في حشد الطلاب الذين كانت تغمرهم مشاعر الحزن وهم يخرجون من النادي الرياضي صفًا واحدًا.

أنا نائم، وألاسكا تطير في الغرفة عاريةً لا يمسّها أذىً. من صدرها، يتدلّى نهداها الممتلئان بالضوء. هذان النهدان اللذان لم أداعبهما إلّا بالكاد، وفي الظلام. تطفو على بعد سنتيمترات فوقي، ونفَسُها الدافئ العذب يلفح وجهي مثل نسمةٍ تلامس العشب العالي.

أقول: «مرحبًا، لقد افتقدتُكِ كثيرًا».

فتجيب: «تبدو بخير يا بدين».

أقول: «أنتِ أيضًا».

فتقـول: «أنـا عاريـةٌ تمامًـا»، ومـن ثـمّ تضحـك. «كيـف حدث لي ذلك؟».

أقول: «أريدكِ أن تبقي معي».

فتقول: «لا»، وتسقط عليّ ميتةً بكلّ ثقلها، محطِّمةً صدري، وقاطعةً نفَسي، باردةً ورطبةً مثل جليدٍ ذائب. رأسها مشقوقٌ إلى نصفين، ومن شقِّ جمجمتها الفاغر تتسرّب حمأةٌ رماديةٌ وردية على وجهي، فتفوح منها رائحة الفورمول واللحم الفاسد. أختنقُ، ومن فرط الرعب، أدفعُها بعيدًا عنّي.

أفيق وأنا أسقط وأرتطم بالأرض مباشرةً. شكرت الربّ لكوني شخصًا يفضّل السرير السفلي. كنتُ قد نمتُ أربع عشرة ساعة متتالية. كان الوقت صباحًا. الأربعاء، قلتُ في نفسي، وجنازتها يوم الأحد. تساءلتُ إن كان الكولونيل قد عاد. كان يجب عليه أن يعود لحضور مراسم الدفن، ذلك لأنني لم أكن أستطيع الذهاب بمفردي، والذهاب مع شخصٍ آخر غير الكولونيل، هو كالذهاب بمفردي.

كانت الرياح الباردة تلطم الباب بعنف، وتعصف بالأشجار التي كنت أسمع صوت اهتزاز أغصانها من الغرفة. جلستُ على سريري، ورحت أفكّر في الكولونيل. تخيّلتُه في مكانٍ ما، هائمًا على وجهه، يحني رأسه ويصرُّ على أسنانه سائرًا في مهبِّ الريح.

بعد أربعة أيام

كانت الساعة الخامسة صباحًا، كنتُ أقرأ سيرة حياة المستكشف ميريويذر لويس، مغالبًا النعاس، عندما انفتح الباب ودخل الكولونيل.

كان يرتجف بشدة، فبدا الأطلس الذي كان يحمله بيديه الشاحبتين مثل دمية تتراقص بلا خيوط في مسرح العرائس.

فسألتُه: «أتشعر بالبرد؟».

أومأ بإشارة من رأسه، ومن ثمّ خلع حذاءه واندسّ في سريري ساحبًا الغطاء على نفسه. كان اصطكاك أسنانه أشبه بشيفرة مورس.

- يا إلهي، هل أنت بخير؟

أجاب: «أنا الآن أفضل. أكثر دفئًا». ومن ثمّ أضاف وقد ظهرَت من تحت الغطاء يدٌ بيضاء شبحيّة. «خذ يدي بين يديك، أرجوك؟».

- حسنًا، ولكن يدك فقط. لا تطلب منّي أن أُقبّلَك.

ضحك وهزّت السرير ضحكتُه.

- أين كنتَ؟

- مشيتُ حتى مونتيڤالو.

- خمسة وستين كيلومترًا؟!

صوّب كلامي: «سبعة وستون. حسنًا، سبعة وستون ذهابًا، وسبعة وستون إيابًا. مئة واثنان وثلاثون كيلومترًا. لا، مئة وأربعة وثلاثون. صحيح، مئة وأربعة وثلاثون كيلومترًا في خلال أربع وعشرين ساعة».

- وما المثير للاهتمام في مونتيڤالو، بحق الجحيم؟

- لا شيء. ظلَلتُ أمشي حتى تجمّدتُ من البرد، ثمّ عدتُ أدراجي.

- ألم تنَم؟

- لا! فأحلامي مرعبة كالكوابيس. فهي لم تعُد تشبه نفسها في أحلامي، ولا أتذكّر كيف كان شكلها حتى.

تركتُ يدَه، وأخذت كتاب العام الفائت المدرسيّ، فوجدتُ صورة صفّ ألاسكا الجماعية بالأبيض والأسود. كان شعرها يسقط على وجهها ويغطي وجنتيها؛ كانت ترتدي قميصها القطني البرتقالي فوق جينز مقصوص يسقط حتى منتصف وركيها النحيفَين، وعلى فمها ترتسم ضحكة عريضة صفراء، بينما تلفُّ ذراعها الأيسر بإحكام حول رأس تاكومي، بحيث تمنعه من الحركة كما يفعل المصارعون.

ومن ثمّ قال الكولونيل: «حسنًا. نعم، كنتُ قد ضقتُ ذرعًا بانفعالاتها وغضبها من غير سبب، وبطريقة عبوسها وتجهُّمها، وحديثها الدائم عن عبء المأساة الفظيع الذي يثقل كاهلها من غير أن تفصح بكلمة واحدة عن أصل المشكلة، وبعدم وجود سببٍ لعينٍ واحدٍ يبرّر ذلك الحزن. برأيي، لا ينبغي أن نحزن من دون سبب. عندما تهجرني حبيبتي، أشعر بالحزن. عندما أدخّن ويُكتشَفُ أمري، أنزعج. عندما يؤلمني رأسي، يسوء مزاجي. أمّا هي يا بدين، فلم يكن لديها أيّ سبب. كنتُ قد ضقتُ ذرعًا بمشكلاتها الوهمية، ولم أعُد أحتمل، لذلك، تركتُها تذهب».

في بعض الأحيان كنت أنزعج من مزاجيّتها أيضًا، ولكن ليس في تلك الليلة. لقد تركتها تذهب لأنها طلبت مني ذلك. كان الأمر بهذه البساطة وهذا الغباء.

كانت يد الكولونيل صغيرة جدًا، شددتُ عليها بقوة، وكانت برودته تتسلّل إليّ ودفئي إليه. فقال: «لقد حفظت عدد سكان البلدان أيضًا».

- أوزبكستان.

- أربعة وعشرون مليونًا وسبع مئة وخمسة وخمسون ألفًا وخمس مئة وتسع عشرة نسمة.

قلتُ: «الكاميرون»، ولكن بعد فوات الأوان، فقد نام وارتخت يدُه في يدي. دسستُها تحت الغطاء وصعدتُ إلى سريره العلوي. تلك الليلة، على الأقل، كنتُ من هواة الأسِرّة العلوية. غفوتُ على إيقاع تنفُّس الكولونيل البطيء والمنتظم، بعد أن تلاشى عناده وذاب أمام سطوة وجبروت التعب.

بعد ستة أيام

استيقظت في صباح ذلك الأحد بعد نومٍ لم يستغرق غير ثلاث ساعات، ومن ثمّ للمرة الأولى، ومنذ وقتٍ طويل، اغتسلتُ. وارتديتُ بذلتي الوحيدة التي لم أكن أريد إحضارها، لكنّني رضختُ أمام إصرار والدتي، فبرأيها، لا يعرف المرء قط متى يحتاج إلى بذلة، وكانت على حق.

لم يكن لدى الكولونيل بذلة، ونظرًا لقصَر قامته، لم يكن يستطيع استعارة واحدة من أيٍّ من طلاب كالڤر كريك، فاكتفى بارتداء سروال أسود اللون وقميص رماديّ.

قال لي: «أعتقد أنني لا أستطيع ارتداء ربطة عنقي المزركشة بطيور الفلامينغو الوردية»، وهو يرتدي جواربه السوداء.

فقلتُ: «لا أعتقد أنها تليق بالمناسبة».

قال الكولونيل: «لا أستطيع ارتداءها للذهاب إلى الأوبرا»، راسمًا ابتسامةً خفيفة. «كما لا أستطيع ارتداءها لحضور جنازة. ولا أستطيع أن أشنق نفسي بها. كربطة عنق، إنها في الواقع لا تصلح لشيء».

أعطيتُه ربطة عنق.

كانت المدرسة قد استأجرت عدّة حافلات لنقل الطلاب إلى ڤاين ستيشن، حيث وُلدَت ألاسكا، لكنني أنا والكولونيل ولارا، ذهبنا مع تاكومي

في سيارته ذات الدفع الرباعي. لم نأخذ الطريق السريعة، بل سلكنا طرقًا فرعيةً تجنُّبًا للمرور بمكان وقوع الحادث. كنتُ طوال الطريق أتأمّل عبر النافذة أحياء الضواحي السكنية التي تنتشر حول برمينغهام، وهي تتوارى خلف هضاب وحقول ألاباما الشمالية.

روى تاكومي للارا التي كانت تجلس بجانبه في المقعد الأمامي قصّة ألاسكا، عندما عُجِن صدرُها في خلال العطلة الصيفية الأخيرة، فغرقَت في الضحك. كنتُ قد سمعتُ تلك القصة في أول لقاء لي بألاسكا، وكنتُ الآن في طريقي إلى لقائي الأخير معها. كان الشعور بالإجحاف وعدم الإنصاف قد استبدّ بي وطغى على أيّ شعورٍ آخر. ذلك الإحساس بالظلم، الذي يستحوذ عليك عندما تحب شخصًا كان من الممكن أن يبادلك هذا الحب، لو لم يمنعه الموتُ من ذلك. انحنيت إلى أمام، ووضعتُ جبيني على مسند رأس تاكومي، ورحت أبكي. لم أكن أبكي من الحزن، بل من الألم. كنت أتوجّع، وكان الوجع مثل وقع السياط.

كانت كلمات ميريويذر لويس الأخيرة، «لستُ جبانًا، لكنني قوي جدًا. إنه لمن الصعب على المرء أن يموت». لا أشك في ذلك، لكنه ليس أصعب من الفقد. فكّرت في لويس بينما كنت أتبع لارا داخل الكنيسة الصغيرة المرفقة بالقاعة المأتمية في ڤاين ستيشن، وهي بلدة صغيرة من ولاية ألاباما، كلّ ما فيها كئيب ومُضجر كما وصفتها ألاسكا تمامًا. كان المكان مشبعًا برائحة العفن ومواد التعقيم، وورق جدران المدخل مقشّرًا في الزوايا.

سأل أحدُ الحاضرين الكولونيل: «حضرتم من أجل جنازة الآنسة يونغ؟»، فأجابه بإيماءةٍ من رأسه. ومن ثمّ قادونا إلى غرفة واسعة مجهزة بصفوف من المقاعد القابلة للطيّ. لم يكن هناك غير رجلٍ واحدٍ يجثو على ركبتيه أمام نعشٍ مسجّى قبالة المذبح. كان النعش مغلقًا. مغلق. لن

أراها ثانيةً. لن أطبع قبلةً على جبينها. لن أراها مرةً أخيرة. لكنني كنتُ بأمس الحاجة إلى ذلك، كنتُ أحتاج إلى رؤية وجهها، وسألتُ بصوتٍ مرتفع، «لماذا تغلقون النعش؟» فاستدار الرجل الذي كان كِرشه بارزًا من بذلته الضيقة، وتقدّم نحوي.

قال: «والدتُها. عندما توفيت والدتها، وُضعَ جثمانها في نعش مفتوح، فطلبَت مني ألاسكا ذلك اليوم، «بابا، لا تدع أحدًا يراني ميتة»، ذلك هو السبب. على كل حال يا بنيّ، لم تعد ألاسكا في هذا النعش، إنها الآن عند ربّها».

ألقى براحتيه على كتفيّ. كان قد سَمِن كثيرًا منذ المرّة الأخيرة التي ارتدى فيها هذه البذلة، ولم أكن أستطيع أن أصدّق ما فعلتُه بهذا الرجل ذي العينين الخضراوين كعينيّ ألاسكا البراقتين، سوى أنهما كانتا غارقتين عميقًا في هالتين قاتمتين، مثل شبح أخضر العينين ما يزال يتنفّس، مردّدًا، لا تموتي، لا أرجوك. لا تموتي يا ألاسكا. تحرّرتُ من عناقه، وتقدّمتُ نحو نعشها متجاوزًا لارا وتاكومي، ومن ثمّ جثوت أمامه ووضعتُ يديّ على خشب الأكاجو الناعم. كان بلون شعرها البنّيّ الضارب إلى الحمرة. شعرتُ بيديّ الكولونيل الصغيرتين على كتفيّ، وسالت دمعةٌ على رأسي. لم تكن حافلات الطلاب قد وصلت بعد، أمّا تاكومي ولارا فكانا قد اختفيا، ولبضع دقائق، لم يكن في الغرفة سوانا نحن الثلاثة. ثلاثة أجساد وشخصان. الثلاثة الذين كانوا يعرفون ما حدث، وطبقات كثيرة تفصل في ما بيننا، كثيرة إلى الحد الذي يبعد فيه أحدنا عن الآخر. قال الكولونيل: «كم أودّ إنقاذها»، وقلتُ: «تشيپ، لقد رحلَت»، فقال: «يخيّل إليّ أنّي رأيتها تنظر إلينا، لكنك على حق، لقد رحلَت وحسب»، وقلتُ: «يا إلهي، أحبك يا ألاسكا، أحبك»، فهمس الكولونيل، «آسف يا بدين. أعرف أنك كنت

تحبها»، وقلتُ: «لا تقُلها بصيغة الماضي». لم تعد كائنًا آدميًا حتى، بل لحمٌ يتفسّخ، لكنني مع ذلك كنتُ أحبها وبصيغة الحاضر. جثا الكولونيل على ركبتيه بجانبي، ومن ثمّ لثم النعش وهمس: «آسف، ألاسكا. كنت تستحقين صديقًا أفضل مني».

هل الموت بهذه الصعوبة، يا سيد لويس؟ وتلك المتاهة، أهي أسوأ من هذه؟

بعد سبعة أيام

قضيت اليوم التالي في الغرفة، ألعب كرة القدم على البلاي ستيشن مع كتم الصوت، غير قادر على عدم فعل شيء، وفي الوقت نفسه، غير قادر على فعل شيء آخر. في ذلك اليوم، كانت ذكرى وفاة مارتن لوثر كينغ، واليوم الأخير قبل استئناف الفصل الدراسي، ولم تكن تدور في رأسي سوى فكرة واحدة، وهي أنني قتلتُ ألاسكا. أمضى الكولونيل فترة الصباح برفقتي، ومن ثمّ قرّر الذهاب إلى الكافيتيريا لتناول خبزٍ باللحم.

قال: «هيا بنا».

- لستُ جائعًا.

- لكنّك ستأكل.

سألتُه: «تريد أن تراهن؟» من دون أن أحوّل نظري عن اللعبة.

«كما تشاء». ومن ثمّ تنهّد وخرج صافقًا الباب خلفه. ما يزال غاضبًا جدًا، قلتُ في نفسي مع شعورٍ خفيف بالشفقة. ما من سبب يدعو إلى الغضب. فالغضب يشتّت الحزن الكليّ الشامل، واليقين بأنك قتلتها، وسرقت مستقبلها وحياتها. تبًا، لم يكن الغضب هو الحلّ.

سألتُ الكولونيل حال عودته: «كيف وجدتَ الخبز باللحم؟».

«كما خبرتَه. ليس خبزًا ولا لحمًا»، ومن ثمّ جلس بجانبي. «لقد تناول النسر طعامه معي. كان يريد أن يعرف إذا كنّا نحن من قام بإشعال المفرقعات». أوقفتُ اللعبة واستدرت نحوه. كان ينتزع بإحدى يديه آخر القطع التي تبقّت من جلد الكنبة الاصطناعي الأزرق.

- وماذا قلت له؟

- لم أعترف. باختصار، قال إن عمّة ألاسكا ستأتي غدًا لتنظيف الغرفة. لذلك، إن كنا قد تركنا شيئًا يخصُّنا أو يشير إلينا أو أيّ شيء لا ينبغي للعمة أن تجده...

استدرتُ وعدتُ إلى اللعبة، ومن ثمّ قلتُ: «لا أعتقد أنّ مزاجي اليوم يسمح بذلك».

فأجاب: «سأذهب بمفردي إذن». نهض وخرج تاركًا الباب مفتوحًا، فاجتاحت الغرفة موجةٌ من البرودة الجليدية لم تسطع المدفأة مقاومتها. توقّفتُ عن اللعب، ونهضتُ لأغلق الباب، ولكن عندما ألقيت نظرة خاطفة للتأكد من أن الكولونيل دخل غرفة ألاسكا، وجدتُه واقفًا بالقرب من غرفتنا. أمسك بطرف كنزتي وابتسم قائلًا: «كنت أعرف أنك لن تتركني أذهب بمفردي. كنت أعرف ذلك».هززت برأسي، ورفعتُ عينيّ إلى السماء، لكنني تبعتُه في الممر. مشينا وتجاوزنا الهاتف العمومي حتى دخلنا غرفة ألاسكا.

منذ وفاتها، لم أفكّر في رائحتها. ولكن عندما فتح الكولونيل الباب، فاحت بوادر عطرها: تراب رطب وعشب وتبغ بارد، وخلف ذلك بقايا شذى بلسم بشرتها المعطّر بالفانيليا. اجتاحت كياني، ولم تمنعني سوى اللباقة من دفن وجهي في غسيلها الوسخ الذي يملأ السلّة الملقاة أمام

خزانة ملابسها. بدت الغرفة كما كنتُ أتذكرها: مئات الكتب المكدّسة بمحاذاة الجدران، غطاؤها البنفسجيّ المكوّر على شكل صرّةٍ أسفل سريرها، كومةٌ من الكتب الملقاة على منضدة سريرها وتهدّد بالانهيار في أي لحظة، بركانها الشمعيُّ الذي يبرز من تحت السرير. كان كل شيء في الغرفة كما عرفتُه تمامًا، لكنّ الرائحة، رائحتها الواضحة، صدمَتني. واقفًا مغمض العينين في وسط الغرفة، رحتُ أتنشّق ببطء شذى الفانيليا والعشب الخريفي، ومع كل نفَس بطيء، كنت أعتاد تلك الرائحة أكثر فأكثر، إلى أن تلاشت تمامًا. وما هي إلّا برهة حتى رحلَت ألاسكا ثانيةً.

قلتُ بنبرة محايدة: «هذا لا يُطاق»، لأنها كانت الحقيقة. «اللعنة، كل هذه الكتب التي لن تقرأها قط. مكتبةُ حياتها».

- هذه الكتب التي جمعَتها واشترتها من مبيعات الأشياء القديمة بعد أن كانت مكدّسةً في الأقبية، قد تعود ثانيةً إلى أقبية أخرى.

- من الرماد إلى الرماد. من قبوٍ إلى قبو.

- صحيح. والآن إلى العمل. خذ كلّ شيء لا ينبغي لعمتها أن تجده.

رأيته يجثو أمام طاولة مكتبها، ويفتح الدرج تحت حاسوبها، ليخرج بأصابعه الصغيرة رزمًا من الأوراق المشبوكة معًا. قال: «ربّاه، لقد احتفظَت بكل مواضيع الإنشاء التي كتبَتها. موبي ديك. إيثان فروم».

مرّرتُ يدي بين الفراش ومَفرش السرير بحثًا عن الواقيات الجنسية الذكرية التي كنت أعرف أنها تخبئها لاستعمالها في أثناء زيارات جايك. جمعتُها ووضعتُها في جيبي، ومن ثمّ انتقلتُ إلى خزانة ملابسها، ورحت أبحث بين ملابسها الداخلية عن زجاجات الكحول، أو الألعاب الجنسية، أو أي شيء لا يعلمه إلا اللّه. لم أجد شيئًا. بعد ذلك، رحتُ أحدّق إلى الكتب المكدّسة بعضها فوق بعض، تلك المجموعة الأدبية التي تمثل

بعشوائيتها شخصيةَ ألاسكا. بحثتُ عن كتاب محدّد كنتُ أريد الاحتفاظ به، لكنّني لم أجده.

كان الكولونيل يجلس على الأرض بجانب سريرها، وينظر تحته. سألني: «من المؤكّد أنها لم تترك كحولًا، هل فعلَت؟».

كدتُ أن أجيبه، لقد دفنَتها في الغابة وراء ملعب كرة القدم، لكنني أدركت أن الكولونيل لم يكن يعلم، وأنها لم تأخذه إلى أطراف الغابة، ولم تطلب منه أن يحفر ليخرج الكنز المدفون، وأنها لم تفشِ بالسرّ لأحدٍ سواي، فاحتفظتُ به للذكرى، كما لو أن مشاركة الذكرى قد تؤدّي إلى ضياعها.

سألتُه: «هل رأيت رواية الجنرال في متاهته؟ ورحتُ أستعرض عناوين الكتب. «أعتقد أن اللون الأخضر طاغٍ على الغلاف. إنها طبعة جيب تضرّرت جرّاء إغراق الغرفة، لذا، من الممكن أن تكون الصفحات قد انتفخت، لكنني لا أعتقد أنها ــ» قاطعني قائلًا: «نعم، إنها هنا»، فاستدرتُ ورأيت الرواية في يده. كانت صفحاتها منتفخة ومتموجة مثل آلة الأكورديون. تقدّمتُ نحوه وأخذت الكتاب من يده، ومن ثمّ جلستُ على سريرها. كانت الجمل التي سطّرت تحتها خطًا، أو الملاحظات التي كتبَتها قد امّحت بسبب البلل، لكنّ الرواية ظلّت بمجملها مقروءةً. كنتُ أفكّر في حملها إلى غرفتي وقراءتها، على الرغم من أنها لم تكن سيرةً ذاتيّة، عندما وقَعتُ على تلك الصفحة القريبة من نهاية الرواية:

> كان مصدومًا بالاكتشاف المرير، أنّ السباق الطائش بين مصائبه وأحلامه قد بلغ نهايته، ولم يبقَ غير الظلام. قال: «اللعنة»، وندّت عنه تنهيدةٌ عميقة، ومن ثمّ أردف: «كيف أخرجُ من هذه المتاهة؟».

كان المقطع بأكمله مسطّرًا بالحبر الأسود الذي انتشر على الصفحة بسبب البلل. ولكن كان هنالك ملاحظة واضحة بالحبر الأزرق، أُضيفت بعد حادثة إغراق الغرفة، وسهمًا ينطلق من جملة «كيف أخرجُ من هذه المتاهة؟» إلى هامش الصفحة حيث كتبَت ألاسكا بخط يدها المتعرج: فورًا وسريعًا.

قلتُ: «لقد كتبَت شيئًا ما بعد حادثة الإغراق. لكنّه غريب. انظُرْ. الصفحة مئة واثنتان وتسعون».

رميتُ الكتاب إلى الكولونيل، فقلّب صفحاته حتى الصفحة المذكورة، ومن ثمّ نظر إليّ. وقال: «فورًا وسريعًا.

- أجل، غريب، أليس كذلك؟ أعتقد أنه المخرج من المتاهة.

- مهلًا، كيف حدث ذلك؟ أعِد عليّ مرةً أخرى، ما الذي حدث؟

على الرغم من هذه الـ «ذلك» الوحيدة في سؤاله، أدركت على الفور ما كان يشير إليه الكولونيل. «لقد رويتُ لك ما أخبرني به النسر. كانت تسدُّ الطريق في الاتجاهين شاحنةٌ معطّلة، وجاءت سيارة شرطة لقطع حركة السير، لكنّ ألاسكا صدمَتها. كانت ثملة جدًا، ولم تنحرف لتفاديها حتى».

قال مباشرةً: «ثملة جدًا؟ ثملة جدًا؟ لا شك في أن مصابيح سيارة الشرطة كانت مضاءة. يا بدين، لقد صدمَت سيارة شرطة كانت مصابيحها مضاءة. فورًا وسريعًا. فورًا وسريعًا. خارج المتاهة».

قلتُ: «لا»، ولكن على الرغم من رفضي، كنتُ أرى المشهد. كنتُ أرى إلى أيّ حدٍّ كانت ثملةً وغاضبة. (ولكن لماذا؟ ألأنها خانت جايك؟ ألأنها كانت تخشى إيلامي؟ ألأنها كانت تريدني ولا تريده هو؟ ألأنها وشت بماريا وما تزال تشعر بالذنب؟) كنتُ أراها وهي تحدِّق إلى سيارة

الشرطة وتتّجه إليها مباشرةً، غير آبهة بأحد، من دون أن تفكّر حتى في وعدها لي، أو في والدها حتى، وتلك العاهرة، تلك العاهرة، قتلت نفسها. لا. لقد قالت إن التتمّة في العدد القادم. بالتأكيد. «لا».

أقرّ الكولونيل: «نعم، ربما كنتَ على حق». وضع الكتاب جانبًا، وجلس بجانبي، ومن ثمّ أخذ رأسه بين يديه. «أيُّ فتاةٍ هي، تلك التي تخرج من المدرسة وتقطع عشرة كيلومترات لتقتل نفسها؟ لا، هذا ليس معقولًا. ولكن «فورًا وسريعًا». يا له من حسٍّ داخليٍّ غريب، أليس كذلك؟ ولكن عندما نفكّر في الأمر مليًا، ندرك أننا لا نزال نجهل ما الذي حدث بالضبط. إلى أين كانت ذاهبة؟ ولماذا؟ من اتّصل بها؟ لقد اتصل بها أحدهم، أليس كذلك؟ إلّا إذا كنتُ -».

استمرّ الكولونيل في الكلام محاولًا إيجاد تفسير. أمّا أنا: التقطتُ الرواية ووجدت الصفحة التي بلغ فيها سباق الجنرال الطائش نهايته، وكان كلانا غارقًا في أفكاره. كانت الفجوة تتسع بيني وبين الكولونيل بحيث لا يمكن ردمها، ولم أكن قادرًا على الاستماع إليه. كنتُ منشغلًا بالتقاط عبق رائحتها الأخير. كنتُ منشغلًا بالقول لنفسي إنها بالتأكيد لم تقتل نفسها. كنتُ أنا الذي قتل نفسه، كذلك كان الكولونيل. كان بوسعه أن يحاول التخلّص من هذا الشعور بالذنب، لكنني كنت أعرف حقّ المعرفة، أننا لن نكون أبدًا سوى مذنبَيْن على نحوٍ لا يُغتفَر.

بعد ثمانية أيام

كان يوم الثلاثاء هو أول يوم في الفصل الدراسي الجديد. طلبت منّا مدام أومالي الوقوف دقيقة صمت قبل بدء الدرس الذي كانت تتخلّله دائمًا لحظات طويلة من الصمت، ومن ثمّ سألتنا عن أحوالنا.

أجابت إحدى الفتيات: «فظيعة».

قالت مدام أومالي: «بالفرنسية. بالفرنسية».

بدت الأشياء على حالها، كما كانت دائمًا، ولكن أكثر هدوءًا. فالأسبوعيون استمروا في الجلوس على المقاعد أمام المكتبة للثرثرة، لكنّ قصص الاغتياب والقيل والقال كانت أقلّ فظاظة. وفي الكافيتيريا استمرّ ضجيج اصطدام الصواني البلاستيكية بالطاولات الخشبية، وقرقعة الملاعق والشوك على أطباق الطعام، لكنّ الأحاديث توقّفت. أمّا الصمت الذي خيّم في أماكنِ تواجدها، فقد كان أبلغ من صمت الجميع. صمتُ الغياب، صمتُ ألاسكا، ملكة القصص التي تفيض إثارة وحيوية. بدا ذلك الصمت أشبه باللحظات التي كانت تنزوي فيها وتتقوقع على نفسها، رافضةً الإجابة عن أي سؤال يبدأ بـ«كيف» أو «لماذا»، سوى أنّ هذه المرة، كان الغياب حقيقيًا.

في حصة تاريخ الأديان، جلس الكولونيل بجانبي، ومن ثمّ تنهّد وقال: «تفوح منك رائحة التبغ البارد، يا بدين».

- اسألْني إن كنت آبه لذلك.

ومن ثمّ دخل الدكتور هايد يجرجر قدميه، ويتأبّط أوراق امتحاننا النهائي. جلس، وراح يلهث محاولًا التقاط أنفاسه، قبل أن يبدأ كلامه: «القاعدة تقضي بألّا يدفن الآباء أبناءهم. وقد آن أوان تطبيقها. في خلال هذا الفصل الدراسيّ الجديد، سوف نستأنف دراسة التقاليد الدينية التي أخذتم لمحةً عنها في الخريف الفائت. وبلا أدنى شك، سوف تكون الأسئلة المطروحة أشدّ إلحاحًا ممّا كانت عليه في خلال الأيام القليلة الماضية. فعلى سبيل المثال، لم يعد السؤال عمّا يحدث لنا بعد الموت سؤالًا فلسفيًا غامضًا وعقيمًا. إنه سؤال ينبغي طرحه بخصوص ما حدث لزميلتنا. وكيف نعيش في ظلّ الحزن، ليس سؤالًا ينبغي لبوذيين

ومسيحيين ومسلمين مجهولين طرحه والتعمّق فيه واستكشاف جوانبه. أخشى أن تكون هذه الأسئلة المتعلقة بالفكر الديني قد أصبحت أسئلةً شخصيّة».

بحث في أوراق امتحاناتنا، ومن ثمّ أخرج إحداها من الرزمة، ووضعها أمامه. «هذه ورقة امتحان ألاسكا النهائي. تذكرون جيدًا أن السؤال الذي طُلب منكم الإجابة عنه: ما هو السؤال الأهمّ الذي يطرحه البشر على أنفسهم، وكيف حاولت الأديان الثلاثة التي سندرسها هذه السنة الإجابة عنه؟ إليكم سؤال ألاسكا».

تنهّد، وأمسك بطرف كرسيّه، ومن ثمّ رفع نفسه عنه، ونهض واقفًا. استدار وكتب على اللوح: كيف نخرج من متاهة العذاب هذه؟ ألاسكا يونغ.

وقال: «سأترك هذه الجملة على اللوح طيلة الفصل الدراسي، فكلُّ من أضاع دربه في الحياة شعرَ بإلحاح هذا السؤال. في لحظةٍ ما، نرفع أعيننا لننظر إلى الأعلى وندرك بأننا حائرون وضائعون في متاهة، ولا أريد أن ننسى سؤال ألاسكا، فعلى الرغم من رتابة المادة التي ندرسها، وشعور الضجر الذي تولّده في نفوسكم، لا أريد أن أنسى أنها تسمح لنا بمحاولة فهم الطريقة التي أجاب بها البشر عن سؤالها، والسؤال الذي طرحه كلّ فرد فيكم في ورقة الامتحان. كيف توصّلت الأديان الثلاثة إلى الإحاطة بما أسماه تشيپ في ورقة امتحانه، «الحياة البائسة»».

جلس الدكتور هايد، وقال: «والآن، كيف تشعرون؟».

بقيتُ أنا والكولونيل صامتَين، ولم نقل شيئًا، بينما راح العديد من الطلاب الذين لم يعرفوا ألاسكا يشيدون بمزاياها، ويدّعون الحزن لما أصابها. في البداية، أزعجَني ذلك. لم أكن أريد أن يشعر بالحزن عليها

أشخاص لم تكن تعرفهم، وآخرون لم تكن تحبهم. فهم لم يكترثوا لها يومًا، والآن، كانوا يتصرّفون كما لو كانت شقيقتهم. لكنني أعتقد أنني لم أعرفها تمامًا أنا الآخر. لو كنت أعرفها، لعرفتُ ما الذي كانت تقصده عندما قالت: «التتمّة في العدد القادم؟» ولو أنها كانت تعنيني فعلًا، كما كنت أظن، وكما كان ينبغي أن أكون، لما تركتُها تذهب.

لذلك، ما عادوا يزعجونني حقًا. ولكن بجانبي، كان الكولونيل يتنفّس من أنفه ببطء وبعمق مثل ثور على وشك الانقضاض.

رفع حاجبيه واستهجنَ عندما قالت طالبةٌ أسبوعيّةٌ تُدعى بروك بليكلي، كان والداها قد استلما تقريرًا مدرسيًا مع تحيات ألاسكا: «أنا حزينة لأنني لم أقل لها، أحبكِ. لستُ أدري لماذا لم أفعل؟».

قال الكولونيل: «هراء»، وكنّا في طريقنا إلى الكافيتيريا لتناول الغداء. ومن ثمّ أضاف: «كما لو أنّ بروك بليكلي تُهمّها ألاسكا».

سألتُه: «ألن تشعر بالحزن، لو ماتت بروك بليكلي؟».

- بلى، لكنني لن أنوح وأندب لأنني لم أقل لها أحبكِ، فأنا لا أحبها. إنها فتاة بلهاء.

قلتُ في نفسي إن الجميع كانت لديهم أسبابٌ تدعوهم للحزن أوجَه من أسبابنا، كما أنهم لم يقتلوها، لكنّني كنت أعرف جيدًا أنه من الأفضل عدم مناقشة الكولونيل عندما يكون غاضبًا.

بعد تسعة أيام

قال الكولونيل: «عندي نظرية»، عندما كنتُ أهمُّ بالدخول إلى الغرفة بعد يومٍ دراسيٍّ بائس. كانت برودة الجو قد بدأت بالتراجع، لكنّ هذه المعلومة لم تصل إلى آذان المسؤولين عن نظام التدفئة، إذ كانت

قاعات الصفوف خانقة من شدة الحرارة. لم تكن لي سوى رغبة واحدة، وهي أن أندسّ في سريري وأنام إلى أن تحين لحظة بدء كل شيء من نقطة الصفر.

نوّهتُ بينما كنتُ أجلس على سريري: «لم أرك اليوم في خلال الدرس، في حين جلس الكولونيل إلى طاولة مكتبه، وانكبَّ على دفتر مذكرات صغير. تمدّدتُ وسحبتُ الغطاء فوق رأسي، لكنّ ذلك لم يوهن عزيمة الكولونيل.

- صحيح، لكنني كنت مشغولًا ببناء نظريّتي التي قد لا تكون صحيحة مئة في المئة، لكنّها معقولة. لذلك، اسمعْ. ها هي تقبّلُكِ. ومن ثمّ في أثناء الليل، تتلقّى اتصالًا هاتفيًا. من جايك على الأرجح. يتشاجران، بسبب الخيانة أو بسبب شيءٍ آخر لا يعلمه إلّا اللّه. إثر ذلك، تثور ثائرتها وتريد الذهاب لرؤيته. تعود إلى الغرفة باكيةً، وتطلب منّا مساعدتها على الخروج من حرَم المدرسة. تشعر بالخوف، لست أدري لماذا، فلنقل إنها كانت تخشى أن يتركها جايك إن لم تذهب لرؤيته. إنها مجرّد فرضية. إذًا، تخرج من الحرَم، ثملةً وغاضبة. تحقد على نفسها لسببٍ نجهله. وبينما تقود سيارتها، ترى سيارة الشرطة، وبلمح البصر، تكتمل عناصر السيناريو. ها هي وسيلة الخروج من المتاهة ماثلة أمام عينيها، وما عليها سوى أن تستغلّها، فورًا وسريعًا، فتتّجه إلى سيارة الشرطة مباشرة ولا تنحرف سنتيمترًا واحدًا، ليس لأنها ثملة، بل لتقتل نفسها.

- هذا كلام سخيف. لم تكن تفكر في جايك، ولم تتشاجر معه. كانت تقبّلُني أنا. وعندما حاولتُ تذكيرها بعلاقتها مع جايك، أسكتَتني.

- من اتّصل بها إذًا؟

ركلتُ الغطاء ورميتُه جانبًا، ومن ثمّ بقبضة يدي، رحتُ أخبط على

الجدار مع كلّ صوت: «لَسْ! تُ! أَدْ! ري! ولِعِلْمك، لا يهمّني ذلك. فقد ماتت. هل سيخترع الكولونيل العبقريُّ شيئًا يجعلها أقلّ موتًا؟».

لم يكن ذلك صحيحًا، فبالطبع، كان الأمر يهمّني، فلم أتوقّف عن الخبط على جدران الغرفة، واستمرّت الأسئلة تطفو على السطح أسبوعًا كاملًا. من اتّصل بها في تلك الليلة؟ ما الذي أخافها إلى هذا الحدّ؟ لماذا ذهبَت؟ لم يحضُر جايك جنازتها. حتّى أنه لم يتصل بنا ليعرب عن أسفه، أو ليسألنا عمّا حدث. اختفى وحسب. وبالطبع، كنتُ أتساءل. كنتُ أتساءل إن كانت لديها أي نيّة للوفاء بوعدها لي في العدد القادم. كنتُ أتساءل عن هوية الشخص الذي اتصل بها، ولماذا، وما الذي جعلها تضطرب إلى هذا الحدّ. لكنني كنت أفضّل التساؤل على إيجاد أجوبةٍ لا أحتملُ العيش معها.

قال الكولونيل وهو يجلس على زاوية سريري: «إذًا، لعلّها ذهبَت لتقطع علاقتها بجايك»، وفجأةً، بدت نبرة صوته أقلّ حدّةً.

- لا أعرف. والحقيقة، لا أريد أن أعرف.

قال: «لا بأس، أنا، أريد أن أعرف إن كانت تدرك تمامًا ما تنوي فعله، يا بدين، لأن ذلك يعني أنها جعلت منّا شركاء. لهذا أكرهها. اللعنة، أنظر إلى حالنا. لم نعد نستطيع التكلّم مع أحد. لذلك، اسمعْ، لقد وضعتُ خطة عمَل: أوّلًا، التحدث مع شهود العيان. ثانيًا، معرفة نسبة الكحول التي كانت في دمها وقت الحادث. ثالثًا، اكتشاف الوجهة التي كانت تقصدها، ولماذا».

قلتُ بفتور: «لا أرغب في التحدّث مع جايك»، بعد أن استسلمت أمام إلحاح الكولونيل. ومن ثمّ أضفتُ: «إن كان على علمٍ بعلاقتنا، فلا أريد التحدُّث معه إطلاقًا. وإن لم يكن، فلا أريد الإنكار، والتصرُّف كما لو أنه لم يحدث بيننا شيء».

نهض الكولونيل وتنهّد: «أتعلم يا بدين؟ يحزنني ما أنت فيه. يحزنني حقًّا. أعرف أنك قبّلتَها، وأعرف أنك تتألّم وأنّ ذلك قد كسرك. ولكن بصراحة، أغلق فمَك. إن كان جايك يعلم، فهذا لن يزيد الأمر سوءًا. وإن لم يكن، فلن يكتشف ذلك قط. لذلك، بحق الجحيم، توقّف ولو للحظة، عن التفكير في نفسك، وفكّر في صديقتك الميتة. آسف. لقد كان يومًا طويلًا».

قلتُ: «حسنًا، لا بأس»، وسحبتُ الغطاء فوق رأسي. «لا بأس»، قلتُ ثانيةً. ومهما كان. هذا الـ«لا بأس»، فيجب أن يكون، إذ لم أكن قادرًا على تحمّل خسارة الكولونيل.

بعد ثلاثة عشر يومًا

بما أنّ وسيلة نقلنا الوحيدة قد دُفنَت في ڤاين ستيشن، بولاية ألاباما، اضطررت أنا والكولونيل للذهاب إلى قسم شرطة بلهام سيرًا على الأقدام، وذلك بحثًا عن شهود عيان. بعد أن انتهينا من تناول العشاء في الكافتيريا، أسرعنا في الذهاب، فقد كان حلول الليل مبكّرًا وسريعًا. أخذنا الطريق 119 السريعة، وسرعان ما قطعنا مسافة الكيلومترين ونصف، التي كانت تفصلنا عن مبنىً من الجص، بطابق واحد، يقع بين مطعم وافل هاوس، ومحطة وقود.

داخل المبنى، كان يفصلنا عن قسم الشرطة الحقيقيّ مكتبٌ طويل يرتفع حتى صدر الكولونيل، ويجلس خلفه ثلاثة عناصر باللباس الرسمي، جميعهم يتكلّمون على الهاتف.

أعلن الكولونيل عن نفسه بشيء من الوقاحة: «أنا شقيق ألاسكا يونغ، وأريد أن أتحدّث إلى الشرطيّ الذي شهدَ وفاتها».

اختصر الشرطي النحيل ذو اللحية الصهباء مكالمته الهاتفية وأغلق السماعة. وقال: «أنا الذي رأيتُها. لقد صدمَت سيارتي».

سأله الكولونيل: «هل نستطيع التحدُّث في الخارج؟».

- نعم.

التقط الشرطي معطفًا وجاء نحونا. كنت أميّز شبكة الشرايين الزرقاء التي تمتدُّ تحت شحوب بشرته الشفافة كلّما اقترب منّا أكثر. كشرطي، لم يكن باديًا أنه يخرج كثيرًا. عندما أصبحنا في الخارج، أشعل الكولونيل سيجارة.

سأله الشرطي: «هل تجاوزت التاسعة عشرة؟» في ولاية ألاباما، يحقُّ لك أن تتزوج في الثامنة عشرة، أو في الرابعة عشرة بموافقة الوالدَين، ولكن لا يحقُّ لك التدخين قبل التاسعة عشرة من العمر.

- إذًا، دفِّعني غرامة. كلّ ما أريد، هو أن تخبرني بما رأيت.

- في الأحوال العادية، أعمل من السادسة مساء حتى منتصف الليل، ولكنني تلك الليلة، كنتُ مناوبًا حتى الصباح. تلقّينا مكالمةً هاتفيّةً بخصوص شاحنة انحرفت على الطريق وقطعَت السير في الاتجاهين. بما أن الشاحنة كانت على مسافة قريبة من هنا، توجّهت إلى المكان المذكور، وركنتُ السيارة. كنتُ لا أزال داخلها، عندما رأيت بطرف عيني أضواء مصابيح تقترب. كانت مصابيحي مضاءة، وشغّلتُ صفّارة الإنذار، لكنّ المصابيح يا بنيّ، تابعَت التقدُّم باتجاهي مباشرةً، فخرجتُ مسرعًا وركضتُ كالمجنون، ومن ثمّ صدمَت الفتاة سيارتي. لقد رأيت أشياء كثيرة في حياتي، لكنني لم أرَ قط شيئًا كهذا. لم تحرك المقوَد، لم تستعمل الفرامل. صدمَتها وحسب. كنت على بعد خطوات فقط، وخِلتُ أنّي سأُقتَل، لكنني الآن هنا.

للمرّة الأولى، بدت نظرية الكولونيل معقولة. ألم تسمع صفارة الإنذار، ألم ترَ ضوء المصابيح؟ كانت صاحية بما يكفي لتُقَبّل، قلتُ في نفسي. من المؤكد أنها كانت صاحية بما يكفي لتنحرف عن الطريق.

سأله الكولونيل: «هل رأيت وجهها قبل الاصطدام؟ هل كانت نائمة؟».

- لستُ أدري. لم أرَها. لقد حدث ذلك بسرعة.

- أتفهّم ذلك. هل كانت قد فارقت الحياة عندما دخلتَ إلى سيارتها؟

- لقد فعلتُ كل ما كان في وسعي. هرعتُ إليها، لكنّ المقوَد - حسنًا، حاولتُ إخراجها من خلف ذلك المقوَد، لكنّه كان من المستحيل أن تخرج من تلك السيارة حيّةً. كما لو أنّ المقود حطّم صدرها.

أجفلتني الصورة، وسألته: «هل قالت شيئًا ما؟».

هزّ برأسه وقال: «كانت قد فارقت الحياة يا بنيّ»، وبذلك تلاشت آمالي الأخيرة في معرفة كلماتها الأخيرة.

سأله الكولونيل: «هل كان حادثًا برأيك؟» بينما كنتُ أقف بجانبه مقوّسًا كتفيّ وأتشوّق لتدخين سيجارة، لكنّني لسوء الحظ، لم أكن بمثل جرأته.

- مضى عليّ ست وعشرون سنة في جهاز الشرطة، رأيتُ خلالها من السكارى ما لا يُعدّ ولا يُحصى، لكنّني لم أر قط شخصًا مخمورًا إلى الحدّ الذي يمنعه من الانحراف. لكنّ العلم عند اللّه وحده. لقد قال المفتش إنه كان حادثًا، وربما كان كذلك، فهذا ليس من اختصاصي. أظنّ أنّ الأمر بينها وبين ربِّها الآن.

سألتُه: «في أيّ حالةٍ من الثمالة كانت؟ هل أجريتم تحاليل الدم؟».

- نعم. كانت نسبة الكحول 0,24. هذا كثير جدًا. نعم، لقد كانت في حالة سُكرٍ شديد.

سأل الكولونيل: «هل كان في السيارة شيء ما؟ شيء غير عادي، لفت نظرك، وتتذكّره؟».

- أذكر أنّي رأيت نشرات إعلانية وطلبات انتساب إلى جامعات ماين وأوهايو وتكساس، فقلتُ في نفسي، لا بدّ من أن هذه الفتاة طالبةٌ في كالڤر كريك، وكانت تريد الدخول إلى الجامعة. كان ذلك محزنًا. يا لها من خسارة. وتلك الزهور. على المقعد الخلفي. كالتي تُباع في المتاجر. زنابق.

زنابق؟ فكّرتُ على الفور في الزنابق التي تلقّتها من جايك: سألتُه: «هل كانت بيضاء؟».

أجاب الشرطي: «نعم، بيضاء». لماذا أخذَت معها تلك الزنابق؟ ذلك سؤالٌ لم يكن الشرطي يملك جوابًا عنه.

- آمل في أن تجدا ما تبحثان عنه. لقد فكّرت كثيرًا في ذلك الحادث، لأنني لم أرَ مثله من قبل. ولطالما تساءلتُ، لو أنني سارعتُ إلى إعادة تشغيل السيارة وابتعدتُ، لكانت الآن بخير. ربما كان لديّ المتسع من الوقت. كيف لي أن أعرف الآن؟ بالنسبة إليّ، لا يهمّ إن كان ذلك حادثًا أم لم يكن، ففي الحالتين، إنها خسارة كبيرة.

قال الكولونيل بنبرة رقيقة: «لم يكن بوسعك فعل أي شيء، لقد قمتَ بواجبك، ونحن نُقدِّر ذلك».

- شكرًا. والآن، اذهبا، رافقتكما السلامة. اتّصِلا بي إن كانت لديكما أسئلة أخرى. هذه بطاقتي، إن احتجتما إلى أي شيء.

دسّ تشيپ البطاقة في محفظته المصنوعة من الجلد الاصطناعي، وعدنا أدراجنا.

قلتُ: «زنابق بيضاء، زنابق جايك، لماذا؟».

- ذات مرة، من العام الفائت، كنتُ أنا وألاسكا وتاكومي في ركن التدخين، وفجأةً، رأت أقحوانةً صغيرةً على ضفة الجدول الأخرى، فقفزَت في المياه التي كانت تصل حتى خصرها، وقطفتها. وضعَتها خلف أذنها، وعندما سألتُها لماذا فعلَت ذلك، أخبرتني بأن والديها كانا دائمًا يزيّنان شعرها بالزهور عندما كانت طفلةً صغيرة. ربما كانت تريد الموت مع زهور بيضاء.

- أو ربما كانت تريد إعادتها لجايك.

- ربما. لكنّ ما قاله ذلك الشرطي، أقنعني أنّ الذي حدث قد يكون انتحارًا.

قلتُ بعصبيّة: «ولماذا لا ندعها ترقد بسلام وحسب. كنتُ محبطًا، فقد بدا لي أنّ ما من شيءٍ قد نتمكّن من اكتشافه، يستطيع أن يجعل الأمور أفضل، وعلاوةً على ذلك، كنتُ عاجزًا عن طرد تلك الصورة من ذهني، صورة ذلك المقوَد المدفون في صدرها. صدرُها المحطّم، وهي تبحثُ عن نفَسٍ أخيرٍ لم يأتِ. لا، لم يكن ذلك ليجعل الأمور أفضل. قلتُ للكولونيل: «فلنفترض أنها فعلَتها، وانتحرَت. لن يبرّئنا ذلك، ولن يخفّف من كوننا مذنبين. لكنّه سيحوّلُها إلى وحشٍ فظيع، مفرط في أنانيّته».

- اللعنة يا بدين. ألا تذكرُ أيّ مخلوقٍ كانت فعلًا؟ ألا تذكر كيف كانت قادرة على أن تكون وحشًا مفرطًا في أنانيّته؟ كان ذلك جزءًا من كيانها، وكنّا نعرف ذلك جيدًا. والآن، يخيّل إليّ أنّ ألاسكا الوحيدة التي تهمّك، هي تلك التي اخترعتَها.

رحتُ أُسرِع الخطى متجاوزًا الكولونيل، ولم أقل شيئًا ردًّا عليه. من يحسَبُ نفسه؟ وكيف له أن يعلم؟ لم يكن آخر شخصٍ قبّلَته، ولم تتركه بانتظار وعدٍ لم تفِ به. لم يكن أنا. ومن ثمّ اللعنة على كل شيء، قلتُ

في نفسي، وللمرة الأولى، راودتني فكرةُ العودة إلى فلوريدا، والتخلّي عن بلوغ الـ«ربما» العظيمة التي جئت سعيًا خلفها، مقابل الراحة القديمة التي كان يوفّرها زملائي في المدرسة. فمهما كانت عيوبهم، لم يمُت أيّ منهم ملقيًا بالمسؤولية على عاتقي.

بعد أن قطعتُ مسافةً لا يستهان بها، ركض الكولونيل للحاق بي. وقال «أريد أن تعود المياه إلى مجاريها بيني وبينك، علاقة عادية، وفرحة. عادية وحسب. أشعر كما لو أنّنا كنّا نعلم –».

قاطعتُه قائلًا: «لا عليك، كل شيء على ما يرام. سوف نستمرُّ في البحث».

هزّ الكولونيل برأسه، من ثمّ قال مبتسمًا هذه المرة: «لطالما قدّرتُ فيك حماستك يا بدين. وإلى أن تجدها ثانيةً، سأعتبر أنك ما زلت تملكها. والآن، دعنا نعود إلى البيت، ونكتشف لماذا يقتل الناس أنفسهم».

بعد أربعة عشر يومًا

ما هي الدلائل والإشارات التحذيرية التي تسبق الانتحار؟ هذا هو السؤال الذي طرحته أنا والكولونيل على شبكة الإنترنت، ووجدنا ما يلي:

- محاولات انتحار سابقة.
- تهديدات شفهية بالانتحار.
- التبرّع أو إهداء الأشياء والمقتنيات الشخصية القيّمة.
- جَمع المعلومات المتعلقة بوسائل الانتحار المختلفة، وتوثيقها، ومناقشتها.
- التعبير عن اليأس والغضب على الذات و/أو على العالم.

- الكتابة، والحديث، والقراءة، والرسم عن الموت و/أو الكآبة.

- التلميح إلى أنّ أحدًا لن يفتقد الشخص بعد رحيله.

- إيذاء الجسد، كالجروح والتشويه المتعمّد.

- موتُ أو انتحار صديق، أو أحد أفراد الأسرة مؤخرًا.

- تراجع كبير ومفاجئ في النتائج المدرسية.

- اضطرابات في نظام التغذية، الأرق، النوم لفترات طويلة، الصداع المزمن.

- تناول أو ازدياد نسبة تناول المواد التي من شأنها أن تضعف القدرات الذهنية.

- فقدان الرغبة في ممارسة الجنس، أو الهوايات، أو أي نشاط ترفيهي سابق.

كانت ألاسكا تُبدي اثنتين من تلك الإشارات التحذيرية. وفاة والدتها، على الرغم من عدم حدوث ذلك مؤخرًا. والازدياد الملحوظ في تناول المشروبات الروحية إبّان الشهر الأخير الذي سبق وفاتها، بعد أن كان مستقرًا على الدوام. كانت تتحدّث عن الموت، لكنّ ذلك لم يبدُ جدّيًا، بل أشبه بالمزاح.

قال الكولونيل: «أنا شخصيًا لا أكفُّ عن المزاح بشأن الموت أتذكُر الأسبوع الفائت، عندما قلتُ مازحًا إن ربطة عنقي لا تصلح لشيء، حتى لو أردت شنق نفسي بها؟ هذا لا يعني أنني سأضع حدًا لحياتي. إذًا، يمكننا استبعاد حديثها عن الموت. كما أنها لم تُهدِ شيئًا من حاجياتها الشخصية لأحد، وبما لا يقبل الشك، لم تفقد الرغبة في ممارسة الجنس، لا بل كانت مدمنة عليه، وإلّا لما داعبت مؤخرتك الهزيلة هذه».

- ظريف جدًا.

- بل قُل عبقري. كما أن نتائجها المدرسية كانت جيدة، ولا أذكر أنها تحدّثت عن قتل نفسها.

- لقد فعلَت ذلك مرة واحدة. ألا تذكر ما قالته لي بشأن السجائر؟ «أنت تدخّن لتستمتع. أنا أدخّن لأموت».

- كانت تمزح.

بتحريض من الكولونيل، وبلا شك، لكي أثبت له أنني كنت أستطيع تذكّر ألاسكا كما كانت حقًّا، وليس كما كنتُ أتخيّلُها، لم أتوقّف عن التذكير بتلك الأحيان، حيث كانت تتصرّف بلؤم، وترفض الإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بكيف، ومتى، ولماذا، ومن، وماذا، بذريعة أن مزاجها لم يكن يسمح بذلك. وفي بعض الأحيان كانت تبدو غاضبةً جدًا.

عقّب الكولونيل: «ماذا؟ وأنا، ألستُ غاضبًا؟ أنا في ذروة الغضب، يا بدين. وأذكّرك بأنك لم تكن مثالًا للهدوء في الآونة الأخيرة، أنت الآخر. مع ذلك، لن تفكّر في قتل نفسك. ولكن مهلًا، هل تفكر في الانتحار؟».

قلتُ: «لا». ربما لأنّ ألاسكا لم تكن تعرف الضغط على دواسة الفرامل، وأنا، لا أعرف الضغط على دواسة السرعة. ربما لأنها كانت تمتلك نوعًا غريبًا من الشجاعة لا أملكه. ولكن لا.

- يسعدني أن أسمع ذلك. صحيح، أنها كانت متقلّبة المزاج، وتنتقل بلمح البصر من النار والكبريت إلى الدخان والرماد. لكنّ ما ساهم في حالتها هذه، على الأقل هذه السنة، ولو بشكلٍ جزئيّ، هو قصّة ماريا وما لحقها من تبِعات. اسمَع يا بدين، من الواضح أنها لم تكن تفكّر في الانتحار وهي تداعبك وتقبّلك. فقد نامت بعد ذلك، إلى أن رنّ جرس

الهاتف. إذًا، فقد قرّرَت قتل نفسها في لحظةٍ ما، بين رنين ذلك الهاتف والاصطدام، أو أنّه كان مجرّد حادث سير.

- ولكن لماذا انتظرَت حتى باتت على مسافة عشرة كيلومترات من الحرَم المدرسيّ لتموت؟

تنهّد الكولونيل، وهزّ رأسه: «كانت تحبّ إحاطةَ نفسها بهالةٍ من الغموض، فأرادت لموتها أن يكون غامضًا». ومن ثمّ ضحكتُ وقال الكولونيل: «ماذا؟».

- لا شيء، كنتُ أقول في نفسي، لماذا انقضّت على سيارة شرطة على الرغم من مصابيحها المضاءة؟ لكنني سرعان ما تذكّرت أنها لم تكن تحب ممثلي السُّلطة.

ضحك الكولونيل، وقال: «أكاد لا أصدّق أذنيّ، البدين يمزح!».

كان ذلك أشبه بالعودة إلى العاديّ، لكنّ المسافة التي فصلتني عن الأحداث تلاشت فجأةً، ووجدت نفسي في النادي الرياضي ثانيةً، أسمع الخبرَ من فم النسر للمرّة الأولى، والدموع تتكسّر على سرواله. نظرتُ إلى الكولونيل، وفكّرتُ في الساعات التي قضيناها معًا في خلال الأسبوعين الأخيرين، جالسين على هذه الكنبة الإسفنجية، وفي كل الأشياء التي أفسدَتها. كنت غاضبًا إلى الحدّ الذي جعلني عاجزًا عن البكاء، فقلت: «هذا يجعلني أكرهها، وأنا لا أريد أن أكرهها. وإن كان كرهي لها هو النتيجة الوحيدة لذلك كلّه، فما الفائدة إذًا؟» إن كانت ما تزال ترفض الإجابة عن الأسئلة التي تبدأ بكيف ولماذا، وما تزال تصرُّ على إحاطة نفسها بهالة من الغموض.

انحنيتُ إلى الأمام، وحشرتُ رأسي بين ركبتيّ، فوضع الكولونيل راحته على ظهري: «ثمّة أجوبةٌ دائمًا، تلك هي الفائدة يا بدين». ومن ثمّ زفرَ الهواء بين شفتيه المضمومتين، ولمَستُ الغضب في نبرة صوته

عندما كرّر: «ثمّة أجوبةٌ دائمًا. علينا فقط أن نكون أذكياء بما فيه الكفاية. وبحسب ما قرأناه على الشبكة العنكبوتية، يستلزم الانتحارُ خطّةً مُحكمة، بالتالي، من البديهي أنها لم تنتحر». شعرتُ بالخجل من نفسي، إذ كنتُ لا أزال منهارًا بعد مرور أسبوعين على وفاة ألاسكا، بينما كان الكولونيل يعضُّ على وجعه بصبر، فرفعتُ ظهري، وعدّلتُ جلستي.

- حسنًا، لم يكن انتحارًا.

- مع ذلك، تبقى فرضيّة الحادث غير منطقية.

ضحكتُ وقلتُ: «مكانك راوِح».

قاطعَتنا هوللي موزر، وهي فتاةٌ في السنة الدراسية الأخيرة، كنتُ قد رأيت رسومها لنفسها عاريةً، عندما دخلتُ أنا وألاسكا خلسةً إلى غرفتها في خلال عطلة عيد الشكر. كانت هوللي لا تفارق الأسبوعيين، ما يُفسّر لماذا لم أتبادل معها أكثر من كلمتين منذ مجيئي إلى كالڤر كريك، لكنّها دخَلَت من دون أن تطرق على الباب، وقالت إن ألاسكا جاءتها في الوحي. وأخبرت:

«كنتُ في مطعم وافل هاوس، وفجأةً انطفأت الأضواء كلّها، إلّا ضوء طاولتي الذي راح يومض. كان يضيء لثانية، وينطفئ عدّة ثوانٍ، ومن ثمّ يضيء لثانيتين وينطفئ، فأدركت أنها ألاسكا. أعتقد أنها كانت تحاول التواصل معي بشيفرة مورس، التي لا أفهمها. لا بدّ من أنها كانت تجهل ذلك. باختصار، فكّرت أنه عليّ أن أخبرَكم بما رأيت».

قلتُ باقتضاب: «شكرًا»، ولكنّها ظلّت واقفةً تنظر إلينا، وتفتح فمها كما لو كانت تريد إضافة شيءٍ ما، لكنّ الكولونيل راح يحدّق إليها بعينيه نصف المغمضتين، وفكّه الناتئ، وبقرف لم يحاول إخفاءه. فهمتُ الشعور الذي كان ينتابه، إذ أنا أيضًا لا أؤمن بالأشباح الذين يتواصلون

بشيفرة مورس مع أشخاص لم يشعروا نحوهم قط بأي مودّة. ولم تعجبني إمكانيةُ مواساة ألاسكا لشخص آخر غيري.

قال الكولونيل بعد أن ذهبَت: «اللعنة، إن أشباه هذه الفتاة لا يستحقون العيش».

- كان ذلك ذروة الغباء.

- ليس ذروة الغباء فحسب يا بدين. كما لو أنّ ألاسكا قد يخطر لها أن تتواصل مع هوللي موزر. اللعنة! لا أطيق هؤلاء الحزانى المنافقين. يا لها من عاهرة غبية.

كدتُ أقول له إن ألاسكا ما كانت لتقبل بأن ينعت أيّ امرأة بالعاهرة، لكنّ الأمر لم يكن يستحق الشجار مع الكولونيل.

بعد عشرين يومًا

كان ذلك اليوم يوم أحد. وبدل أن نتناول عشاءنا في الكافيتيريا، قرّرتُ أنا والكولونيل الخروج من الحرَم، واجتياز الطريق 119 السريعة، حتى كشك ساني كونڤينيانس، حيث طلبنا وجبةً صحيّةً متوازنة، تتألّف من قطعتين من بسكويت محشوتين بالقشدة. سبع مئة سعرة حرارية قادرة على توفير الطاقة الضرورية لنصف يوم. جلسنا على الرصيف المقابل للكشك، والتهمنا عشاءنا بأربع لقمات.

- لقد حصلتُ على رقم هاتف جايك من تاكومي، وسأتصل به غدًا. أردتك أن تعلم.

حسنًا.

سمعتُ رنين جرس باب المتجر خلفي، فاستدرت.

وقالت المرأة التي باعتنا العشاء للتو: «كفاكما تسكعًا».

أجابها الكولونيل: «ما زلنا نأكل».

هزّت المرأة برأسها وأمرَتنا بالرحيل، كما لو كانت تخاطب كلبًا: «هشّ».

ذهبنا خلف الكشك، وجلسنا بجانب حاوية القمامة التي كانت تفوح برائحة نتنة.

- كفّ عن قول «حسنًا» في كل مناسبة يا بدين، فهذا محض سخافة. سأتصل بجايك، وسأدوّن كلماته بالتفصيل. بعد ذلك، سنجلس، أنا وأنت، ونحاول فهم ما حدث».

- لا، هذه المرة، لن أتدخّل. لا أريد معرفة ما حدث بينه وبين ألاسكا.

ندّت عن الكولونيل تنهيدةٌ، وأخرج من جيب سرواله الجينز علبة سجائر مموّلة بالكامل من صندوق نقد البدين: «لماذا؟».

- لأنني لا أرغب في ذلك وحسب! أينبغي أن أزوّدك بتحليلٍ معمّق لكلّ قرارٍ أتّخذُه؟

أشعل الكولونيل سيجارته بولاعة كنتُ قد دفعتُ ثمنها، وأخذ نفسًا وقال: «هراء. يجب أن نفهم ما حدث، لذلك، أحتاج إلى مساعدتك، فمعًا نعرفها أفضل. نقطة على السطر».

نهضتُ ونظرتُ إليه من علٍ. كان يجلس على الأرض مزهوًا بنفسه. ومن ثمّ نفث في وجهي سحابةً رفيعةً من دخان سيجارته، فكانت تلك الشعرة التي قصمَت ظهر البعير. «لقد ضقتُ ذرعًا بالانصياع لأوامرك، أيها الأحمق! لن أجلس لأناقش معك أدقّ تفاصيل علاقتها بجايك، فاذهب إلى الجحيم. ليس بوسعي أن أكون أكثر وضوحًا: لا أريد معرفة أي شيء عنهما. يكفيني ما قالته لي، وهذا كل ما أحتاج إلى معرفته. لذلك، بوسعك أن تلعب دور المتعالي اللعين إلى ما تشاء، لكنّني لن أجلس لأدردش

معك عن ولعها بجايك، وحبّها اللعين له! والآن، أعد لي سجائري». رمى الكولونيل علبة السجائر على الأرض، وهبّ واقفًا بطرفة عين، ومن ثمّ أطبق قبضته على كنزتي، وشدّني نحو الأسفل محاولًا جلبي إلى مستواه، لكنّه لم ينجح في ذلك.

وصرخ: «في الحقيقة، أنت لا تبالي بها!» «كلّ ما يهمّك، هو نفسك، وأوهامك اللعينة التي صنعتَها عنك وعن ألاسكا، وتحرص عليها مثل كنز. تظنُّ أنّ قصّة غرامكما السرّيّ اللعين هذه، ستجعلها تتخلّى عن جايك من أجلك، لتعيشا معًا، وتنعما بالسعادة إلى الأبد. لكنّها قبّلَت كثيرين قبلك يا بدين. أنا وأنت، نعرف جيدًا، أنها لو كانت اليوم في هذا العالم، لما كانت إلّا حبيبة جايك، ولن يكون بينكما شيء حقيقي، بل مجرّد تمثيليّة. لا حب، لا جنس، فقط أنت، أنت الذي تحترق لأجلها، وهي، اللعوب التي تقول لك، «أنت لطيف يا بدين، لكنني أحب جايك». لو كانت تحبك إلى هذا الحدّ، لماذا تركَتك وذهبَت تلك الليلة؟ ولو كنت تحبها إلى هذا الحدّ، لماذا ساعدتَها على الذهاب؟ أنا، كنتُ سكرانًا، وأنت، ما هو عذرُك؟».

أرخى الكولونيل قبضته عن كنزتي، وانحنيت لألتقط علبة السجائر. لا صراخ، لا صرير أسنان، لا عروق تختلج على جبيني، ولكن بهدوء. وبهدوء، نظرتُ إلى الكولونيل، وقلت: «فلتذهب إلى الجحيم».

جاءت الصرخة التي تجعل عروق الجبين تختلج، ولكن في وقت لاحق. جاءت بعد أن عبَرتُ الطريق السريعة راكضًا بأقصى سرعتي، واجتزتُ دائرة المباني السكنية المعشبة، وملعب كرة القدم، والدرب الترابية التي تؤدّي إلى الجسر، إلى أن وجدت نفسي في ركن التدخين. التقطت كرسيًّا أزرق اللون ورميته على الجدار. كان صدى صوت ارتطام

البلاستيك على الجدار ما يزال يرنّ تحت الجسر، عندما وقع الكرسي ومال برخاوة على جنبه. استلقيتُ على ظهري، وتركت ساقيّ تتدلّيان في الفراغ، وصرختُ. صرختُ لأن الكولونيل كان وغدًا متعاليًا يظنّ نفسه أفضل من الجميع، وصرخت لأنه كان على حق، عندما قال إنني أريد إقناع نفسي بأنني عشتُ قصة غرام سرّي مع ألاسكا. هل كانت تحبني؟ هل كانت ستتخلّى عن جايك من أجلي؟ أم أنها كانت مجرّد نزوة عابرة من نزواتها؟ لم يكن يكفيني أن أكون آخر شاب قبّلَته. كنتُ أريد أن أكون الأخير الذي أحبّته، لكنني لم أكن. كنتُ أعرف، وجعلَني ذلك أشعر بالكراهية نحوها. كرهتُها لأنني لم أكن أعني لها شيئًا. كرهتُها لأنها ذهبَت تلك الليلة، وكرهتُ نفسي أيضًا، ليس لأنني فقط تركتُها تذهب، بل لأنني لو كنتُ أكفيها، لما أرادت الذهاب، ولاستلقَت بجانبي، وباحَت، وبكَت، ولاستمعتُ إليها، وجفّفت دموعها بقُبَلي.

أدرتُ رأسي نحو الكرسي البلاستيكي الأزرق المُستقر على جنبه، ورحتُ أتساءلُ متى سيأتي اليوم الذي سأكفّ فيه عن التفكير بألاسكا، ومتى سيحلُّ زمنٌ تصبح فيه جزءًا بعيدًا من ذاكرتي، لا أستعيده إلّا في ذكرى وفاتها، أو أنساه ربما، ولا أتذكّره إلّا بعد مرور أسابيع عدّة.

كنتُ أدرك أنني سأشهد موت المزيد من الأشخاص، وستتراكم أجسادهم. ولكن هل ستتّسع ذاكرتي لهم جميعًا، أم أنني سأنسى بعضًا من ألاسكا مع كل يومٍ باقٍ في حياتي؟

ذات مرّة، في بداية السنة، كنّا في ركن التدخين، عندما قفزَت في مياه الجدول. كانت ما تزال تنتعل زحّافاتها، فأخذت تتنقّل بحذر على الصخور المغطاة بالطحالب إلى أن بلغَت الضفة الأخرى، حيث التقطت غُصنًا مشبعًا بالماء. جلستُ على الحصيرة الإسمنتية تاركًا قدميّ تتدلّيان

فوق مياه الجدول، بينما راحت تقلبُ الصخور بطرف الغصن لتُريني أسماكَ جراد البحر وهي تنزلق في الماء.

هتفَت بحماسة: «تغليها، وتمصّ رؤوسها، إنّ أفضل ما فيها موجودٌ في الرؤوس».

علّمَتني كلّ ما أعرفه عن جراد البحر، والقُبَل، والنبيذ الوردي، والشِعر. لقد غيّرَتني وجعلَت مني شخصًا آخر.

أشعلتُ سيجارة، وبصَقتُ في مياه الجدول. وقلت لها بصوتٍ مرتفع: «لا يمكنكِ أن تغيّريني وتذهبي هكذا، كنتُ بخيرٍ قبل أن أعرفك يا ألاسكا. كنتُ بخير مع كلماتي الأخيرة، وزملائي في المدرسة. وأنتِ لا يمكنك أن تموتي بعد أن جعلتِ منّي شخصًا آخر». بتجسيدها لا لـ«ربما» العظيمة، أقنعَتني بفائدة التخلّي عن حياتي التافهة سعيًا إلى تحقيق «ربمات» أسمى، والآن، وقد رحلَت، رحلَ معها إيماني «بالربمات». كنت أستطيع الردّ على كل شيء يقوله الكولونيل أو يفعله بقولي: «عظيم، معك حق»، محاولًا الادعاء بأن الأمر لم يعد يهمّني، لكن ذلك لم يعُد صحيحًا قط. لا يمكنكِ أن تموتي بعد أن أصبحت على هذا القدر من الأهمية في حياتي يا ألاسكا، فأنا الآن مختلفٌ، لا رجعة في ذلك، وأشعر بالندم لأنني تركتُك تذهبين، نعم، لكنه كان خيارك أنتِ. لقد تركتِني مجرّدًا من «ربماتي»، عالقًا في متاهتكِ اللعينة. والآن، لستُ أدري حتى، إن كنتِ قد اخترتِ الخروج منها فورًا وسريعًا، وأجهلُ إن كنتِ قد تخلّيتِ عني هكذا، عمدًا. إذًا، فأنا لم أعرفكِ قط، أليس كذلك؟ لا أستطيع أن أتذكّر، إذ كيف أتذكّر ما لم أعرفه قط؟

وعندما نهضتُ لأعود إلى البيت وأتصالح مع الكولونيل، حاولتُ أن أتخيّلها جالسةً على ذلك الكرسي، لكنني لم أستطع أن أتذكّر إن كانت تصالب ساقيها أم لا. كنت أستطيع رؤية نصف الابتسامة الموناليزية التي

اعتادت أن توجهها لي، لكنني كنت أجد صعوبة في رؤية يديها بحيث أتصوّرها ممسكةً بسيجارتها. كنت أحتاج إلى ما هو أكثر، لكي أتذكّر، فقرّرتُ أن أعرفها حقًّا. وقبل أن أبدأ عملية نسيان خصوصيات وعموميات حياتها وموتها، كنت أحتاج إلى تعلّمها: كيف. لماذا. متى. أين. ماذا.

في الغرفة 43، بعد تقديمٍ سريعٍ للاعتذارات وقبولها، قال الكولونيل، «لقد اتخذنا قرارًا تكتيكيًا. سنؤجّل الاتصال بجايك في الوقت الحاضر، وسنسلك طرقًا أخرى أوّلًا».

بعد واحد وعشرين يومًا

لحظة دخل الدكتور هايد قاعة الصف مجرجرًا خُطاه، جلس تاكومي بجانبي، وكتب على طرف دفتره ملاحظةً جاء فيها: الغداء في الماكدو المُقرِف.

كتبتُ على دفتري: موافق، ومن ثمّ قلبتُ على صفحةٍ جديدة ما إن بدأ الدكتور هايد الكلام عن التصوُّف، وهو تيارٌ روحانيٌّ في الدين الإسلامي. كنتُ قد ألقيتُ نظرةً سريعة على المقاطع التي يجب قراءتها، فقط لكي لا أرسب، ولكن على الرغم من قراءتي السريعة، وقعتُ في تلك المقاطع، على كلماتٍ أخيرة عظيمة. على سبيل المثال، تلك التي قالها ذلك الصوفي المسكين الذي يدخل بثيابه الرثة متجرًا لبيع المجوهرات، يملكه تاجرٌ ثري، ويسأله: «أتعرف كيف ستموت؟» فيجيبه التاجر: «لا. لا أحد يعرف كيف سيموت». فيردُّ الصوفي، «أنا أعرف».

يسأله التاجر: «كيف؟».

يتمدّد الصوفي على ظهره، يشبك يديه على صدره، ويقول: «هكذا»، ويموت. إثر ذلك، يتخلّى التاجر عن تجارته، ليعيش حياة تقشّفٍ وفقر، طلبًا للسكينة الروحية التي اكتسبها ذلك الصوفي الميت.

لكن الدكتور هايد كان يروي قصةً أخرى مختلفة، لم تشملها قراءتي السريعة: «تعلمون جميعًا أن كارل ماركس سمّى الأديان «أفيون الشعوب». فالبوذية، كما هي مطبّقة في الأوساط الشعبية خصوصًا، تعِدُ بحياة أفضل عبر الكارما. ويعِدُ الإسلام والمسيحيّة المؤمن بالفردوس الأبديّ. وممّا لا شك فيه، أنّ الأمل في عيش حياةٍ مستقبليةٍ أفضل، أفيونٌ شديد الفعالية. مع ذلك، ثمّة قصةٌ صوفيّة تتحدّى هذا المفهوم القائل بحاجة البشر إلى أفيون لكي يؤمنوا. يُحكى أنّ رابعة العدوية، وهي امرأةٌ قديسة من أولياء الصوفية، شوهدَت وهي تسير في أحد شوارع البصرة، مسقط رأسها، حاملةً في إحدى يديها مشعلًا، وفي اليد الأخرى دلوًا. وعندما سُئلَت ماذا تريد أن تفعل بهما، أجابت: «أريد بالماء أن أطفئ نار جهنّم، وبالمشعل أن أضرم النار في أبواب الجنّة، لئلّا يعبد الناسُ اللّه طمعًا في الجنة، أو خوفًا من نار جهنّم، إنما لوجهه تعالى»».

امرأةٌ على درجة عالية من القوة، بحيث تحرق الجنة وتُغرق الجحيم. كتبتُ على دفتري، لو عرفَت ألاسكا رابعة العدوية لأحبّتها. مع ذلك، كانت الآخرة، والجنّة، والجحيم، والتقمّص، مسائل تحظى باهتمامي. فبقدر ما كنت أريد أن أعرف كيف ماتت ألاسكا، كنت أريد أن أعرف أين كانت الآن، ذلك إن قُدِّر لها أن تكون في مكانٍ ما. كنت أرغب في أن أتخيّلها وهي ما تزال تنظر إلينا من عليائها، واعيةً لأفعالنا، لكنّ ذلك لم يكن إلّا خيالًا لم أشعر بحقيقته قط. وكما قال الكولونيل في أثناء جنازتها: لم تعُد هنا، ولا في أيّ مكان. وللأمانة، لم أكن قادرًا على تخيّلها إلّا ميتةً، جسدًا يتحلّل في ڤاين ستيشن، وما تبقّى منها ليس إلّا شبحًا يعيش في ذاكرتنا. على غرار رابعة، لم أكن أعتقد بحبّ اللّه طمعًا في الجنة أو خوفًا من الجحيم. لكنّني لم أكن أشعر بضرورة السير حاملًا في يدي مشعلًا. إذ كيف للمرء أن يضرم النار في مكان مختلَقٍ من بنات أفكاره؟

بعد انتهاء الدروس الصباحية، وبينما كنت أراقب تاكومي، وهو ينتقي القطع الأكثر قرقشةً من بطاطس الماكدو المقرِف، شعرتُ بفقدان ألاسكا الكليّ، وكانت فكرة رحيلها، ليس فقط من هذا العالم، بل من كل العوالم، لا تزال تهزُّ كياني.

سألتُه: «كيف كانت أحوالك في الآونة الأخيرة؟».

قال: «سيئة، وأنت؟» وفمه ممتلئ بالبطاطس.

«سيئة أيضًا». قضمتُ لقمةً من برغر الجبن، ودوّرتُ عجلات السيارة البلاستيكية الصغيرة التي حصلتُ عليها كهديةٍ مع الوجبة. كانت موضوعة على الطاولة، ظهرها نحو الأسفل.

قال تاكومي: «أفتقدُها كثيرًا»، وهو يدفع صينيّة الطعام جانبًا، تاركًا ما تبقّى من قطع البطاطس الرخوة، والمشبعة بالزيت.

قلتُ: «نعم، أنا أيضًا أفتقدُها. أنا آسف، تاكومي»، وكنتُ أعني الأسف الأشمل والأوسع. كنتُ آسفًا، لأنّنا وجدنا أنفسنا في نهاية المطاف، نجلس في أحد مطاعم ماكدونالدز، وندوّر العجلات. كنتُ آسفًا لأنّ الشخص الذي جمعَنا، يرقد الآن بيننا ميتًا. كنتُ آسفًا لأنني تركتُها تموت. كنت آسفًا لأنّني لم أتكلّم مع تاكومي، ولأنّه لم يكن ينبغي أن يعرف الحقيقة عني وعن الكولونيل. كنت أكره الظهور أمامه بمظهر الحزين، وأدّعي أنّ حزني مسألةٌ عاديةٌ خاليةٌ من التعقيد، وأنها ماتت، وأنّني أفتقدُها، بينما الحقيقة، هي أنها ماتت بسببي.

- أنا أيضًا أشعر بالأسف. ولكن قل لي، ألم تعد تخرج مع لارا؟

- لا أعتقد ذلك.

- سألتُك لأنّها كانت تتساءل بشأن علاقتكما.

كنتُ قد بدأتُ في تجاهلها، فصارت تتجاهلني بدورها، لذلك استنتجتُ أنّ قصتنا انتهت، ولكن ربما كنت مخطئًا. قلتُ لتاكومي: «اسمع كلّ ما في الأمر أنني لا أستطيع... لست أدري يا صاحبي. المسألة معقّدة وليست بهذه السهولة».

- بالتأكيد. ستتفهّم ذلك. بالتأكيد. لا عليك.

- لا بأس.

- اسمع يا بدين. أنا... لستُ أدري. المسألة معقدة، أليس كذلك؟

- أجل.

بعد سبعةٍ وعشرين يومًا

بعد ستة أيام، أي في الأحد الرابع بعد الأحد الأخير، كنت أنا والكولونيل نلعب على البلاي ستيشن، نتزلّج على السكيت بورد ونقوم بقفزات بهلوانية في مضمار على شكل نصف أنبوب، وفي الوقت نفسه، يحاول كلٌّ منّا إصابة الآخر ببندقية تطلق كرات من الطلاء.

قال الكولونيل: «نحتاج إلى مشروب كحولي، وإلى استعارة جهاز فحص التنفّس من منزل النسر».

- استعارته؟ وهل تعرف أين يخبئه؟

- نعم، ألم يطلب منك قط أن تنفخ فيه؟

- لا. يعتقد أنّني تلميذ جدّيٌّ ومعقّد.

- في الواقع أنت فعلًا جدّيٌّ ومعقّد يا بدين. لكنّك لن تسمح لهذا التفصيل التافه بأن يمنعك من الشراب.

في الواقع، لم أكن قد تناولت أيّ مشروب كحولي منذ تلك الليلة، ولم أكن أميل حقًّا إلى فكرة تكرارها.

كدتُ أقتلع عين الكولونيل بمرفقي، عندما رحتُ أحرّك ساعديّ في الهواء، متوهّمًا أنّ التواءات جسدي في اتجاه أو آخر، قد تسعفني أكثر من الضغط على الأزرار المناسبة في اللحظات المناسبة، وهو الوهم نفسه الذي كان يستحوذ على ألاسكا عندما كانت تلعب على البلاي ستيشن. لكنّ الكولونيل كان من التركيز على اللعب بحيث لم يلاحظ خطورة حركاتي. «هل وضعتَ خطةً لسرقة جهاز فحص التنفُّس من منزل النسر؟».

التفت الكولونيل نحوي وقال: «ما بك، هل تجيد هذه اللعبة أم لا؟» ومن دون أن ينظر إلى الشاشة حتى، أطلقَ عليّ كرةً زرقاء أصابتني في الخصيتين. «ولكن يجب أن نحصل على الكحول أوّلًا، فنكتاري قد فسَد، والوسيط الذي كان يزودني بالكحول...»

«مات، فجأةً» أكمَلتُ جُملةَ الكولونيل.

عندما فتحت بابه، وجدتُ تاكومي جالسًا إلى طاولة مكتبه، وسماعات هائلة الحجم تحيط بأكمل رأسه الذي كان يهزّه على إيقاع الموسيقى. بدا وكأنّه لم يلاحظ وجودنا حتى. قلتُ: «مرحبًا»، وكأنّ شيئًا لم يكن. «تاكومي!» لا شيء. صرختُ: «تاكومي!»، فنزع سماعاته والتفت نحونا. أغلقتُ الباب خلفي وسألتُه: «هل لديك كحول؟».

سألني بدوره: «لماذا؟».

أجابه الكولونيل متهكمًا: «لأننا نريد أن نسكَر، على سبيل المثال».

- عظيم. سآتي معكم.

قال الكولونيل: «تاكومي، القصة هي أننا... أننا نريد أن نفعل ذلك بمفردنا».

قال وهو ينهض واقفًا: «لا، لقد ضقتُ ذرعًا بهذا الهراء». ومن ثمّ ذهب إلى غرفة الحمام وعاد بزجاجة مشروب للطاقة ممتلئة بسائل شفاف. وقال: «أحتفظ بها في خزانة الأدوية، باعتبار أنها تصلح كدواء». دسّ الزجاجة في جيبه وخرج تاركًا الباب مفتوحًا خلفه. بعد لحظة، أطلّ برأسه وقال مقلّدًا صوت الكولونيل الرخيم، ونبرته الاستبدادية ببراعة فائقة: «اللعنة، أتأتيان أم ماذا؟».

قال الكولونيل: «تاكومي، حسنًا، اسمع، بصراحة، إنّ ما نفعله يتّسم ببعض الخطورة، ولا أريدك أن تتورّط فيه. ولكن أعِدُك، اعتبارًا من يوم غد، سنروي لك كل شيء».

- لقد ضقتُ ذرعًا بكلّ هذه الأسرار اللعينة. كانت صديقتي أيضًا.

- غدًا. صدقًا.

أخرجَ الزجاجة من جيبه ورماها لي، وقال: «غدًا».

أخفيت الزجاجة في جيب كنزتي، وفي طريق عودتنا إلى الغرفة، قلتُ: «لا أريده أن يعرف. سوف يحقد علينا».

أجاب الكولونيل: «صحيح، لكنه سيحقد علينا أكثر إن استمرّينا في استبعاده وتجاهله، وكأنّه غير موجود».

بعد ربع ساعة، كنت أطرق باب منزل النسر.

فتح وفي يده ملعقة خشبية عريضة، ومن ثمّ ابتسم وقال، «مايلز، أدخلْ. كنت أحضّر سندويتش بالبيض. هل ترغب في أن أحضّر لك واحدة؟».

قلتُ: «لا شكرًا»، وتبعتُه إلى المطبخ.

كانت مهمّتي تتلخّص في إبقائه بعيدًا عن غرفة الجلوس مدّة ثلاثين ثانية، بحيث يتمكّن الكولونيل من سرقة جهاز فحص التنفّس

بنجاح. سعَلتُ بقوّة لأُفهم الكولونيل بأنّ المكان آمن. التقط النسر سندويتش البيض وقضم لقمةً. ومن ثمّ سألني: «ما هو سرُّ تشريفك لي بهذه الزيارة؟».

«أردتُ فقط أن أُخبرك بأن الكولونيل، أقصد، تشيپ مارتن، زميلي في الغرفة كما تعلم، يواجه بعض الصعوبات في مادة اللغة اللاتينية».

أجابني: «ما فهمتُه، هو أنه لا يحضر الدروس، وبالتالي، هذا يجعل تعلُّم اللغة صعبًا». وهو يتقدّم باتجاهي. سعلتُ ثانيةً، ورحتُ أتراجع إلى الخلف والنسر يتقدّم نحو غرفة الجلوس، كما لو كنا نرقص التانغو. فقلت: «المشكلة، هي أنه يبقى ساهرًا طوال الليل يفكّر في ألاسكا»، رافعًا كتفيّ الضئيلتين وناصبًا قامتي بحيث أحجب غرفة الجلوس عن نظر النسر. «لقد كانا صديقين مُقرّبين جدًا كما تعلم».

قال: «أعرف ذلك»، وسُمع في غرفة الجلوس صوتُ صرير حذاء التنس الذي كان ينتعله الكولونيل على الأرضية الخشبية. نظر إليّ النسر نظرةً مستفسرةً وهمّ بتجاوزي، فسارعتُ إلى القول مشيرًا إلى المقلاة: «ما يزال هذا الموقد مشتعلًا؟».

استدار النسر، وألقى نظرةً خاطفةً على الموقد المطفأ، ومن ثمّ أسرع إلى غرفة الجلوس.

كانت فارغة. عاد نحوي وقال: «مايلز، هل تُدبّر أمرًا ما؟».

«أبدًا يا سيدي. أُقسم لك، كنتُ فقط أريد أن أحدثك بخصوص تشيپ».

قوّس حاجبيه مشكّكًا: «حسنًا، أتفهّم أنها خسارة كبرى مدمّرة بالنسبة إلى أصدقاء ألاسكا المقرّبين. إنها مأساة فظيعة. لا شيء يخفّف ألم حزنٍ كهذا، أليس كذلك؟».

- لا يا سيدي، لا شيء.

- أشعر بالتعاطف تجاه معاناة تشيپ. لكن المدرسة مهمّة. لا أشكّ في أن ألاسكا كانت تريد لتشيپ النجاح في متابعة دراسته من دون أي عوائق.

لا شكّ في ذلك، قلتُ في نفسي. شكرتُ النسر، ووعدَني بأن يحضّر لي يومًا ما سندويتش بالبيض، فشعرت بالقلق مخافة أن يأتي شخصيًا إلى غرفتنا ذات يوم حاملًا السندويتش المذكور، ليجدنا، أوّلًا: ندخّن خلسة في خرقٍ واضح للقانون، بينما ثانيًا: يشرب الكولونيل خلسةً نكتار الحليب بالفودكا، في خرق واضح للقانون أيضًا.

كنتُ قد وصلتُ إلى دائرة المباني السكنية عندما لحق بي الكولونيل.

- كان ذلك سهلًا، بفضل «ما يزال هذا الموقد مشتعلًا؟» لو لم تخطر لك هذه الحيلة، لفاجأني النسر متلبسًا بالجرم المشهود. مع ذلك، أعتقد أنني من الآن فصاعدًا سألتزم بحضور دروس اللغة اللاتينية اللعينة.

- هل حصلتَ عليه؟

«نعم، آمل في ألّا يبحث عنه هذه الليلة. مع ذلك، لا يمكنه أن يشكّ بأي شيء، فأي أبله يفكّر في سرقة جهاز لفحص التنفّس؟».

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل، ابتلع الكولونيل كأسه السادسة من الفودكا، ومن ثمّ كشّر، ومدّ يده بعصبيةٍ إلى علبة الصودا التي كنتُ أشربها. ناولته إياها، واحتسى جرعةً كبيرة منها.

قال: «لا أعتقد أنّي سأتمكّن من حضور درس اللغة اللاتينية غدًا»، كانت كلماته مدغمةً، وتختلط بعضها ببعض، كما لو أنّ لسانه قد انتفخ.

طالبتُه بإلحاح: «كأسًا أخرى».

«حسنًا. لكنها الأخيرة». سكبَ جرعةً من الفودكا في كوبٍ من الورق المقوّى، وبلعها، زامًّا شفتيه وشادًّا على قبضتيه الصغيرتين. «اللعنة، هذا مقرف جدًا. إنها أفضل كثيرًا مع الحليب. أتمنى أن تكون نسبة الكحول في الدم قد بلغت 0,24».

فقلت له: «قبل إجراء الفحص، علينا أن ننتظر خمس عشرة دقيقة، اعتبارًا من الكأس الأخيرة»، كنتُ قد حمّلتُ تعليمات استخدام جهاز فحص التنفّس من مواقع الإنترنت.

- هل تشعر بالثمالة؟

- لو قيست الثمالة بالكعك، لكنتُ ماركة فاموس آموس (Famous Amos).

ضحكنا. وقلتُ: «لو كنتَ ماركة تشيپس آهوي (Chips Ahoy)! لكان ذلك أظرف».

- سامحني. لست في أفضل حالاتي.

أخذتُ جهاز فحص التنفّس، وهو أداةٌ ملساء فضيّة اللون بحجم جهاز تحكُّمٍ صغير، تحوي ثقبًا صغيرًا تحت شاشتها البلورية. نفختُ في الثقب، وكانت النتيجة صفر، فاستنتجت أن الجهاز يعمل بشكل جيد.

بعد خمس عشرة دقيقة، ناولته للكولونيل، وقلت: «ضع فمك على الثقب، وانفُخ بقوة لثانيتين على الأقل».

نظر إليّ بمكرٍ وقال: «أهذا ما طلبتَ من لارا أن تفعله لك في قاعة التلفزيون؟ لعلمك يا بدين، لا ينفع النفخ في مثل هذه الحالات».

قلتُ: «أغلِق فمك، وانفخ».

بكل ما أوتي من قوّة، نفخ الكولونيل في الثقب حتى احمرّ وجهه.

0,16. فصاح الكولونيل: «لا. لا أصدّق، اللعنة».

قلتُ مشجّعًا: «لقد قطعتَ ثلثي مسافة الطريق نحو النصر».

- صحيح، لكنني أيضًا، قطعتُ ثلاثة أرباع مسافة الطريق نحو التقيؤ.

- لا أنكرُ ذلك، بالطبع. ولكن، إن كانت ألاسكا قد فعلَتها، فبوسعك أن تتغلّب على فتاة، أم تراني مخطئًا؟

قال بصبر: «هات الصودا».

في اللحظة نفسها، سمعتُ صوت وقع خطوات في الخارج. خطوات! كنّا قد انتظرنا حتى الواحدة بعد منتصف الليل قبل أن نشعل الضوء، ظنّا منّا أنّ الجميع كانوا يغطّون في نوم عميق في مثل تلك الساعة المتأخرة. لم يكن يوم عطلة، مع ذلك، ثمّة خطوات في الخارج. اللعنة، أخذت جهاز فحص التنفّس من يد الكولونيل الذي كان ينظر إليّ مرتبكًا بعينيه الزائغتين، ودسستُه بين الكنبة والوسائد، ومن ثمّ أخفيتُ زجاجة مشروب الطاقة المملوءة بالفودكا، وكوب الورق المقوّى خلف منضدة القهوة، وبحركة سريعة، أخرجت سيجارة وأشعلتها، آملًا في أن تطغى رائحة الدخان على رائحة الكحول. رحتُ أمجُّ السيجارة في أنفاس سريعة متلاحقة، وأنفث دخانها من دون أن أبتلعه، بحيث يعبقُ جوُّ الغرفة برائحة التبغ. كنت أهمُّ بالجلوس على الكنبة عندما سمعنا ثلاث دقّات سريعة على الباب. حملقَ فيّ الكولونيل، وفجأةً، ارتسم أمام عينيه الذاهلتين مستقبلٌ غير واعدٍ البتة، فهمستُ له، «ابكِ»، بينما دوّر النسر قبضة الباب.

احدودب الكولونيل ودفن رأسه بين ركبتيه، وراح ينشج هازًّا كتفيه. كنت أطوّقه بذراعي عندما دخل النسر.

قلتُ: «أنا آسف»، قبل أن ينبس النسر ببنت شفة. «إنه في حالةٍ سيئة هذه الليلة».

فسألني النسر: «أنت تدخّن؟ وفي الغرفة؟ وبعد أربع ساعات من إطفاء الأضواء؟».

رميتُ السيجارة في علبة كوكا نصف فارغة. وقلت: «آسف يا سيدي. أحاول فقط أن أبقى ساهرًا عليه».

تقدّم النسر نحو الكنبة، وشعرت بالكولونيل وقد بدأ يرفع رأسه، لكنني ضغطت على كتفيه بقوة نحو الأسفل، فلو اشتمّ النسر رائحة أنفاسه لكانت نهايتنا.

فقال النسر: «مايلز، يمكنني أن أتفهّم صعوبة هذه الفترة التي تمرُّ بها، ولكن عليك أن تحترم قوانين المدرسة، أو تكمل دراستك في مكان آخر. أراك غدًا أمام هيئة المحلّفين. هل ثمّة ما يمكنني فعله، تشيپ؟».

دون أن يرفع رأسه، أجاب الكولونيل بصوت مرتجف مشبع بالدموع، «لا يا سيدي، أنا سعيد بوجود مايلز إلى جانبي».

قال النسر: «حسنًا، أنا أيضًا، ربما ينبغي لك أن تشجّعه على الالتزام بقواعدنا، لكي لا يفقد مكانه في هذه المدرسة».

أجابه الكولونيل: «نعم سيدي».

- يمكنكما الإبقاء على الضوء ريثما تستعدان للنوم. أراك غدًا، مايلز.

قلتُ: «طابت ليلتك يا سيدي»، ورحتُ أتخيّل الكولونيل وهو يتسلّل خلسةً إلى منزل النسر ليعيد جهاز فحص التنفُّس، بينما أمثُل أنا أمام هيئة المحلّفين وهي تمطرني بوابل من الأسئلة. ما إن أغلق النسر الباب

خلفه، حتى هبّ الكولونيل واقفًا، وهو ينظر إليّ مبتسمًا. وهمس لي: ومخافة أن يسمعه النسر، «كنتَ رائعًا».

فأجبتُ: «لقد تتلمذتُ على يد أفضل الأساتذة، والآن، اشربْ».

بعد مرور ساعة، كانت زجاجة مشروب الطاقة شبه فارغة عندما بلغت نسبة الكحول في دم الكولونيل 0,24.

هتف: «أشكرك يا يسوع!» ومن ثمّ أضاف: «هذه ليست سكرة ممتعة، إنها شيء فظيع».

نهضت لأُبعِد منضدة القهوة جانبًا، بحيث يستطيع الكولونيل السّير في الغرفة من دون أن يصطدم بأي عائق، وقلتُ: «حسنًا، هل تستطيع النهوض على قدميك؟».

غرس الكولونيل يديه عميقًا في إسفنج الكنبة وبدأ عمليّة النهوض، لكنّه سرعان ما خرّ ساقطًا على ظهره. وقال: «الغرفة تدور بي سأتقيّأ».

- لا تتقيّأ. ستُفسد كل شيء.

كنت أهدف إلى أن أُجري له فحصًا ميدانيًا، كما يفعل رجال الشرطة. «تقدّمْ نحوي وحاولْ أن تمشي في خطٍّ مستقيم». لكنّه تدحرج عن الكنبة وسقط على الأرض. أمسكتُه تحت إبطيه ورفعتُه، ومن ثمّ قدتُه حتى نقطةٍ بين مربّعين من الأرضيّة البلاستيكية. وأمرتُه: «اتبع صفّ المربّعات هذا. امشِ مستقيمًا. العقب ومن ثمّ الأصابع». رفع إحدى قدميه، وعلى الفور، جنح نحو اليسار، مُدوّرًا ذراعيه مثل طواحين الهواء. تقدّمَ خطوةً وحيدةً متخلخلةً أشبه بالترنّح، كما لو أن قدميه كانتا عاجزتين عن التراصف الواحدة أمام الأخرى. ومن ثمّ استعاد توازنه للحظة تراجع بعدها إلى الخلف وسقط على الكنبة. وقال كإقرارٍ منه بالأمر الواقع:

- فشلتُ.

- لا بأس، كيف هو إحساسك بالمجسّمات؟

- إحساسي بالمجماذا؟

- أنظُر إليّ. كيف تراني، واحدًا، أم اثنين؟ هل تندفع نحوي بشكل غير مقصود لو كنتُ سيارة شرطة؟

- الأشياء كلّها تدور، لكنّني لا أعتقد ذلك. أنا في حالة سيئة جدًا. هل كانت حقًا في مثل حالتي هذه؟

- ظاهريًا نعم. هل تستطيع القيادة في حالتك هذه؟

- لا بالتأكيد. لا. لا. كانت ثملة جدًا، أليس كذلك؟

- نعم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- كنّا أغبياء حقًا.

- صحيح.

- كل شيء يدور. ولكن لا. لا سيارة شرطة. بوسعي أن أرى.

- ها قد وجدتَ الدليلَ الذي كنت تنتظره.

- ربما نامَت. أكاد أموت من النعاس.

قلتُ: «سنجد الجواب»، محاولًا لعب الدور الذي كان الكولونيل يلعبه معي على الدوام.

- لا، ليس هذه الليلة، هذه الليلة، سنتقيّأ قليلًا، وسنخلد إلى النوم مع صداع رهيب.

- لا تنسَ درس اللغة اللاتينية.

- صحيح، اللاتينية اللعينة.

بعد ثمانية وعشرين يومًا

في صباح اليوم التالي، أخيرًا، ذهب الكولونيل لحضور درس اللغة اللاتينية. «ما زلت ثملًا، وأشعر بصداع رهيب، لكنني آمل في التحسّن في خلال الساعات القادمة»، وقال لي قبل أن يذهب: أمّا أنا، فكنت على موعدٍ مع امتحان في اللغة الفرنسية، لم أحضّر له إلا قليلًا. لم أجد صعوبة كبيرة في الاختبار المتعدد الخيارات (مثال: أيُّ زمنٍ للفعل يناسب الجُمل التالية)، لكن سؤال الإنشاء الذي كان موضوعه، «ما هو المعنى الذي ترمز إليه الوردة في كتاب الأمير الصغير؟» تركني حائرًا.

لو أنني قرأت ذلك الكتاب بالفرنسية أو بالإنكليزية، لكانت الإجابة عن السؤال أسهل من حيث المبدأ، لكنني لسوء الحظ، قضيتُ الليل بطوله في إجبار الكولونيل على الشراب. لذلك اقتصر جوابي على هذه الجملة («إنّها رمز الحبّ»). وكانت مدام أومالي قد خصّصَت صفحةً كاملة للإجابة عن السؤال، لكنّني كنتُ أحسب أنّ كلماتي الثلاث تملأها بشكل رائع.

كنتُ حتى الآونة الأخيرة أتابع دروسي بجدية ضمنَت لي الحصول على مُعدّل B- لكي لا أُشعِر والديّ بالقلق على نتائجي المدرسيّة، لكنّني ما عدتُ أكترث لذلك بعد وفاة ألاسكا. (ما هو المعنى الذي ترمز إليه الوردة؟) قلتُ في نفسي. من يأبه لذلك؟ أمّا (ما هو المعنى الذي ترمز إليه الزنابق البيضاء؟) فذلك سؤال تجدرُ الإجابة عنه.

بعد أن حكمَت عليّ هيئة المحلّفين بعشر ساعات عمل، عدتُ إلى الغرفة رقم 43 لأجد الكولونيل يروي لتاكومي القصة بأكملها، باستثناء القبلة. عندما دفعت الباب ودخلت كان الكولونيل يقول: «باختصار، لقد ساعدناها على الذهاب».

قال: «إذًا، أنت والبدين، أشعلتما المفرقعات».

- كيف علمتَ بقصة المفرقعات؟

أجاب تاكومي: «قمتُ ببعض التحريات»، ومن ثمّ أضاف: «على كل حال، كان ذلك عملًا غبيًا لم يكن ينبغي أن تقوما به. ولكن في الحقيقة، نحن جميعًا تركناها تذهب». بحق الجحيم، ما الذي كان يعنيه بالضبط؟ رحتُ أتساءل، لكنّه لم يتح لي الوقت الكافي لأطرح عليه السؤال، وسألني: «وأنت، أتعتقد أنها انتحرت؟».

قلتُ: «ربما، لست أدري كيف تمكّنَت من الاصطدام بسيارة الشرطة عن غير قصد، إلّا إذا كانت تغفو».

قال تاكومي: «ربما كانت ذاهبةً لزيارة والدها، أُذكّرَك بأنّ ڤاين ستيشن تقع على الطريق نفسها».

فقلتُ: «ربما، ما زلنا نخوّض في مستنقع الربّما، أليس كذلك؟».

دسّ الكولونيل يده في جيبه بحثًا عن علبة السجائر وقال: «حسنًا، إليك بربّما أخرى: ربما نجد الأجوبة لدى جايك لقد استنفدنا الاستراتيجيات الأخرى. سأتصل به غدًا. هل من اعتراض؟».

أنا أيضًا، كنتُ أريد الأجوبة الآن وفورًا، ولكنّ ثمّة أسئلةٌ لم أكن أريد معرفة أجوبةٍ عنها. قلتُ: «موافق، ولكن اسمع. لا تخبرني بأي شيء لا يتعلّق بموضوعنا. لا أريد معرفة أي شيء لا يساعدنا على معرفة وجهتها وسبب ذهابها».

قال تاكومي: «ولا أنا، في هذه الفوضى، يجب أن تبقى بعض الأمور شخصية».

أخذ الكولونيل منشفة وحشرها تحت الباب، ومن ثمّ أشعل سيجارة وقال: «حسنًا يا شباب. سنعمل وفق الحاجة».

بعد تسعة وعشرين يومًا

في اليوم التالي، وبعد انتهاء الدروس، كنت عائدًا إلى الغرفة، فوجدت الكولونيل جالسًا على المقعد، أمام الهاتف العمومي، يحشرُ السماعة بين أذنه وكتفه، ويكتب في دفترٍ ملقىً على ركبتيه.

أسرعتُ في الدخول إلى الغرفة رقم 43، لأجد تاكومي يلعب على البلاي ستيشن بوضعية كم الصوت. سألته: «منذ متى والكولونيل على الهاتف؟

- لا أعرف. كان على الهاتف عندما وصلت، أي منذ عشرين دقيقة. لا بدّ من أنه تغيّب عن درس الرياضيات الخاص بالمتفوّقين. لماذا تسأل؟ هل تخشى أن يأتي جايك ويؤدّبك لأنك تركتَها تذهب؟

أجبته: «هراء»، وكنتُ أقول في نفسي، لهذا السبب بالتحديد، لم يكن ينبغي أن يعلم. ذهبتُ إلى غرفة الحمام، فتحتُ صنبور الماء الساخن، وأشعلتُ سيجارة. بعد برهة قصيرة، لحق بي تاكومي.

- ما بك؟

- لا شيء، أريد فقط أن أعرف ما الذي حدث لها.

- تريد معرفة الحقيقة؟ أم تريد أن تسمع أنها تشاجرت معه، وذهبَت لتنهي علاقتها به، وتعود لتقع في أحضانك، وتمارسا الحب كالمجانين، وتنجبا أطفالًا عباقرة يحفظون الكلمات الأخيرة، والقصائد عن ظهر قلب؟

- إن كنت غاضبًا مني، قل ذلك وحسب.

- لستُ غاضبًا منك لأنك تركتَها تذهب. بل لأنني ضقتُ ذرعًا بلعبك دور الفتى الوحيد الذي أحبّها واشتهاها. وكأنّك الوحيد الذي يملك أحقّيّة الإعجاب بها.

نهضتُ واقفًا، ورفعت غطاء كرسي المرحاض، ومن ثمّ رميتُ سيجارتي التي لم أدخّن إلا نصفها فيه.

حدّقتُ إليه للحظة، ومن ثمّ قلتُ: «لقد قبّلتُها تلك الليلة، وأملُك الأحقيّة في ذلك».

قال متلعثمًا: «ماذا؟».

- لقد قبّلتُها.

فتحَ فمه كما لو كان يريد الكلام، لكنّه لم يقُل شيئًا. حدّق كلانا إلى الآخر، ومن ثمّ شعرتُ بالخجل من نفسي، إثر هذا التصريح المتخم بالتبجّح والصلَف. وأخيرًا قلتُ: «أنا... اسمعْ، أنت تعرفُ كيف كانت. عندما كانت تريد شيئًا، تأخذه. ربما كنتُ فقط، الفتى الذي شاءت الصدفة أن يكون معها تلك الليلة».

قال: «نعم، سوى أن الصدفة لم تشأ قط، أن أكون ذلك الفتى، أنا... حسنًا يا بدين، يعلمُ اللّه أنّي لا ألومك».

- لا تقل للارا شيئًا من ذلك كلّه.

كان تاكومي يهزّ برأسه استجابةً لطلبي عندما سمعنا ثلاث طرقات سريعة على الباب تعني أنّ الطارق لم يكن سوى النسر، فقلت في نفسي، اللعنة، مضبوط مرتين في أسبوع واحد. أشار تاكومي إلى الدُشّ، فقفزنا داخله وأغلقنا الستارة. فتحنا الصنبور، فراحت المرشّةُ المنخفضة ترشّ الماء علينا من القفص الصدريّ نزولًا حتى القدمين. لم يكن التصاق كلينا بالآخر ضروريًا بقدر ما بدا اضطراريًا، نظرًا لضيق المكان. بقينا هكذا، صامتَين، زخّات الدُش تبلّل ملابسنا لبضع دقائق، بانتظار أن يسحب البخارُ الدخانَ إلى فتحة التهوية. لكن النسر لم يطرق على باب غرفة الحمام. أخيرًا، أغلق تاكومي صنبور الماء. فتحتُ الباب مواربًا،

ونظرت خلسةً إلى الخارج، فوجدتُ الكولونيل جالسًا على الكنبة، مادًّا قدميه على منضدة القهوة، ويُكمل لعبة سباق السيارات التي بدأها تاكومي على البلاي ستيشن. فتحتُ الباب وخرجت أنا وتاكومي بملابسنا المبلّلة.

قال الكولونيل بشيء من اللامبالاة: «هذا مشهدٌ لا يُتاح للمرء رؤيته إلّا نادرًا».

سألتُه: «ماذا دهاك؟».

قال مبتسمًا: «طرقتُ كما يطرق النسر لأخيفكما»، ومن ثمّ أضاف: «تبًّا، إن كنتما تحتاجان إلى بعض الحميميّة، يكفي أن تتركا كلمةً على الباب، في المرة القادمة».

غرقنا في الضحك، وقال تاكومي: «نعم، كنت أنا والبدين نتشاجر. ولكن منذ أن أخذت معه دشًّا، يا بدين، أشعر أنّي قريب منك جدًّا يا رجل».

سألتُ: «كيف كان اتصالك بجايك؟» ومن ثمّ جلستُ على منضدة القهوة، بينما تهالك تاكومي على الكنبة جالسًا بجانب الكولونيل. كنّا مبلّلين حتى العظم ومتجمّدين من البرد، لكن اهتمامنا بالحديث الذي دار بين الكولونيل وجايك، كان أكبر من اهتمامنا بضرورة تجفيف نفسَينا.

- كان مثيرًا للاهتمام. إليكما ما يجب أن تعرفاه: هو الذي أهداها تلك الزهور، كما كنّا نظن. لم يتشاجرا. اتصل بها لأنه كان قد وعدها بأن يكلمها في اللحظة نفسها التي التقيا بها قبل ثمانية أشهر، أي حوالى الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل. كان ذلك سخيفًا، لن نختلف على ذلك. وقد صادف أنها بطريقةٍ ما، سمعَت رنين جرس الهاتف. تكلّما بأشياء عادية مدّة خمس دقائق تقريبًا، ومن ثمّ فجأةً، دخلَت في حالة من الذعر المطلق.

سأله تاكومي: «فجأةً؟».

أجابه الكولونيل، وهو يقلّب صفحات دفتره: «دعني أراجع تفاصيل المحادثة، ها هي. قال جايك: «كيف أمضيتِ ذكرى لقائنا؟ هل قضيت وقتًا ممتعًا؟» وأجابت ألاسكا: «قضيتُ وقتًا رائعًا، كانت ذكرى رائعة»». وكنت أستطيع أن أسمع في قراءة الكولونيل نبرة الإثارة في صوتها، وطريقتها في التشديد على كلمات مثل رائع ومدهش ومطلقًا وتابع الكولونيل: «بعد ذلك، فترة صمت، ومن ثمّ سألها جايك: «ماذا تفعلين؟» فأجابته ألاسكا: «لا شيء، أُخربش»، ومن ثمّ قالت: «يا إلهي. تبًّا تبًّا تبًّا»، انفجرَت في البكاء. ومن ثمّ قالت إنها مضطرة إلى الذهاب، وستتصل به في وقتٍ لاحق. لكنّها لم تقل إنها ستأخذ سيارتها وتأتي للقائه، ولا يعتقد جايك أنها كانت تنوي المجيء لرؤيته. لا يعرف إلى أين كانت ذاهبة، لكنهُ قال إنها كانت دائمًا تسأله إن كانت تستطيع المجيء لرؤيته، وهذه المرة لم تسأل. بالتالي، فهي لم تكن ذاهبة للقائه. مهلًا، دعني أجد الاقتباس». قلبَ صفحةً من دفتره وقال: «حسنًا، ها هو: «قالت إنها ستتصل بي في وقت لاحق، لكنها لم تقل إنها ستأتي لرؤيتي»».

فقلتُ: «تقول لي، «التتمة في العدد القادم»، وتقول له إنها ستتصل به في وقتٍ لاحق».

- نعم. لاحظتُ ذلك. إنها مشاريع مستقبلية لا يمكن إنكار تضاربها مع الانتحار. إذًا، تعود إلى الغرفة وتصرخ قائلةً إنها نسيت أمرًا ما. وهنا يبلغ سباقها المحموم نهايته. بالتالي، ما من أجوبة حقيقية.

- لكنّنا على كل حال، نعرف إلى أين لم تكن ذاهبة.

قال تاكومي وهو ينظر إليّ: «إلا إذا كانت تراودها نزوات متهورة على نحوٍ خاص. ومن ثمّ أضاف: «ويبدو أنها كانت متهوّرة جدًا تلك الليلة».

نظر إليّ الكولونيل مستفسرًا، وأجبته بإيماءة من رأسي.

قال تاكومي: «نعم، أعرف كل شيء».

تابع الكولونيل: «إذًا، فقد أغضبك ذلك، ومن ثمّ أخذتَ دُشًّا مع البدين، وأصبحت الأمور بينكما سمنًا على عسل. ممتاز. والآن، دعونا نعود إلى تلك الليلة...».

وحاولنا بذل كل ما في وسعنا لكي نستعيد تفاصيل محادثة تلك الليلة الأخيرة، ونرويها لتاكومي، ولكن لا أنا ولا الكولونيل كنّا نتذكّرها بدقّة، ذلك لأنه كان ثملًا، أمّا أنا، فلم أكن أعير أي اهتمام لما كان يدور من حديث بينه وبين ألاسكا، إلى أن اقترحَت لعبة (حقيقة أم فعل). على كل حال، لم نكن قادرَين على إدراك أهمية تلك التفاصيل وما ترمي إليه من معانٍ. أمّا الكلمات الأخيرة فيصعب تذكُّرها، لاسيّما عندما نجهل أن صاحبها يشرف على الموت.

قال الكولونيل: «يبدو لي أنني كنتُ أحدّثها عن ولعي بركوب الزلاجات ذات العجلات، ولكن فقط على الكمبيوتر، وأنه لم يحدث لي قط أن وضعتُ قدمي على زلاجة حقيقية، فقالت: «فلنلعب لعبة حقيقة أم فعل»، وبعد ذلك ضاجعتَها».

صاح تاكومي: «مهلًا، ضاجعتَها؟ أمام عينيّ الكولونيل؟».

- لم أجامعها.

قال الكولونيل رافعًا يديه في الهواء: «هدوء يا شباب، إنها مجرد طريقة في التعبير».

سأله تاكومي: «التعبير عن ماذا؟».

- عن التقبيل.

سخر منه تاكومي رافعًا عينيه إلى السماء «يا لها من طريقة بديعة في التعبير، هل أنا الشخص الوحيد الذي يعتقد أن لتلك القُبَل معنًى ما، أعمق كثيرًا من طريقتك في التعبير؟».

قلتُ بشيء من اللامبالاة: «صحيح، لم يخطر في بالي ذلك قبل الآن.

- لست أدري. ولكن بما أنها لم تخبر جايك، فذلك يعني أنّ تلك القُبَل لم تكن على قدرٍ كبير من الأهمية.

قال: «ربما كان يضنيها ألم الشعور بالذنب.

قال الكولونيل: «قال جايك إنها بدت طبيعيةً على الهاتف قبل أن يتملّكها الذعر، ولكن لا بدّ من أن شيئًا ما قد حدث في خلال تلك المكالمة الهاتفية، ولا نراه»، أضاف محبطًا وهو يحرث بأصابعه شعره الكثّ: «اللعنة، ثمّة شيء ما. ثمّة شيءٌ ما في داخلها. والآن، لم يتبقّ أمامنا سوى أن نجده».

قال تاكومي: «يكفي أن نقرأ ما يدور من أفكار في ذهن شخصٍ ميّت»، ومن ثمّ أضاف: «منتهى السهولة».

قال الكولونيل: «بالضبط. تعالوا نسكر».

قلتُ: «لا رغبة لي في الشراب».

نقّب الكولونيل في تجاويف إسفنج الكنبة، واستخرج منها زجاجة تاكومي، الذي لم تكن لديه رغبة في الشراب هو الآخر، لكنّ الكولونيل تصنّع ابتسامةً ساخرة وقال: «شرابٌ إضافيّ لي»، ومن ثمّ كرع في الزجاجة.

بعد سبعة وَثلاثين يومًا

في صباح الأربعاء التالي، كنت خارجًا من درس تاريخ الأديان عندما اصطدمت بلارا، حرفيًا. بالطبع، كنتُ تقريبا أراها كل يوم، سواءً في

دروس اللغة الإنكليزية، أو جالسةً في المكتبة تخاطب همسًا زميلتها كاتي، التي تشاركها الغرفة. كنت أراها في الكافتيريا على الغداء والعشاء، ولو كنتُ أستيقظ باكرًا لرأيتها على وجبة الفطور أيضًا. لا شك في أنها كانت تراني هي الأخرى، ولكن في حتى ذلك الصباح، لم يحدث أن التقت نظرتانا.

كنتُ أفترض أنها قد نسيتني؛ فنحن لم نخرج معًا إلّا مرّةً واحدة، على الرغم من أنه كان يومًا لا يُنسى. ولكن هذه المرّة، عندما كنت أسرع إلى درس المثلثات وصدمت كتفها الأيسر، استدارت ونظرت إليّ. كانت غاضبة، ولكن ليس بسبب الصدمة. بادرتُ بالاعتذار: «أنا آسف»، لكنّها حدّقت إليّ كما لو كانت على وشك أن تبدأ شجارًا أو تجهش بالبكاء، ومن ثمّ اختفت داخل إحدى القاعات، ولم تنبس ببنت شفة. كانتا أوّل كلمتين أوجّههما لها منذ شهر كامل.

كنت أودّ أن أكلّمها. أنا أعرف أنّ سلوكي تجاهها كان فظيعًا. كنتُ لا أنفكّ أقول في نفسي، تخيّل، لو كنتَ لارا، وماتت صديقتُك، وأُصيب صديقُك السابق بالبُكم، لكنني لم أكن أملك في نفسي سوى مكان واحد لشخصٍ واحد. ألاسكا ماتت، وكنتُ أريد أن أعرف لماذا وكيف، لكنّ لارا لم تكن قادرةً على الإجابة عن هذه الأسئلة التي لم يكن يهمّني غير تلك الإجابات.

بعد خمسة وأربعين يومًا

لأسابيع عدّة، بقينا أنا والكولونيل نعوّل على كرم الآخرين في سدّ حاجتنا إلى السجائر. كنّا نحصل عليها مجانًا أو بسعر رخيص، من الجميع تقريبًا، من مولي تان، ولونغويل تشيس الذي نبت شعر رأسه مجددًا،

وآخرين. كانوا جميعهم راغبين في مساعدتنا، ولم يجدوا طريقةً أفضل للتعبير عن تعاطفهم معنا. ولكن في أواخر شهر شباط، استنفدنا مصادر البرِّ والإحسان كلها. وبصراحة، لم يكن ذلك سيئًا. لم أكن أشعر أننا نستحق هداياهم، وخصوصًا، لأنهم كانوا يجهلون أننا لقّمنا المسدّس ووضعناه في يد ألاسكا.

لذلك، بعد انتهاء الدروس، قادنا تاكومي بسيارته إلى متجر كوزا ليكورز «نلبّي كل طلباتكم من المشروبات الروحية». بعد ظهر ذلك اليوم، استلمت أنا وتاكومي النتائج الكارثية لامتحاننا الأساسي الأوّل في مادة المثلثات. قد يعود ذلك إلى غياب ألاسكا التي كانت تُعلّمنا المثلثات، وتُقاسِمنا بطاطس الماكدو المقرفة في الوقت نفسه، أو لأننا لم نحضِّر للامتحان بما فيه الكفاية. كان كلانا يواجه خطر اكتشاف أهالينا حجم الكارثة عند استلامهم كشوف العلامات.

قال تاكومي بنبرة محايدة: «المشكلة هي أنني لا أجد مادة المثلثات مثيرة للاهتمام».

أجابه الكولونيل: «سوف يكون من الصعب أن تشرح ذلك لرئيس دائرة طلبات القبول في هارفارد».

قلتُ: «قد لا يكون الأمر بهذه الصعوبة، ما دام لا يقبل الجدل».

ضحكنا. ولكن سرعان ما جرف ضحكاتنا صمتٌ سميك. وعرفتُ أننا كنا نفكر فيها نحن الثلاثة. ألاسكا الميتة، المحرومة من الضحك، الباردة، والتي لم تعد ألاسكا. كنتُ كلما فكرت فيها تصدمني فكرة عدم وجودها. كنت أقول في نفسي، هي الآن في ڤاين ستيشن، ألاباما، جسدٌ يتحلّل تحت التراب، ولكن حتى ذلك لم يكن صحيحًا تمامًا. كان جسدها هناك، ولكن هي، لم تكن في أي مكان، لا شيء، اختفت.

كانت اللحظات الأكثر مرحًا تليها لحظات حزن، إذ ما إن كان الحاضر يبدو شبيهًا بالماضي، حين كانت ألاسكا بيننا، حتى كنّا ندرك حجم الفراغ الذي تركه رحيلها.

اشتريتُ السجائر. لم أكن قد دخلتُ متجر كوزا ليكورز قبل ذلك اليوم. كان كل شيء فيه كئيبًا كما وصفته ألاسكا بالضبط. راحت الأرضية الخشبية المغبَرّة تصرُّ تحت قدميّ عندما اتجهت إلى منضدة البيع، حيث رأيتُ برميلًا كبيرًا ممتلئًا بالماء الآسن، من المفترض أن يحوي طعومًا حيّة للصيد، لكنّ كميّةً كبيرةً من الأسماك الصغيرة النافقة كانت تطفو على السطح. وعندما طلبتُ كرتونة سجائر مارلبورو لايت من المرأة التي كانت خلف المنضدة، ابتسمت لي بكلّ أسنانها الأربعة.

سألَتني: «أنت طالب في كالڤر كريك؟»، ولم أكن أعرف إن كان ينبغي أن أقول الحقيقة، فجميع طلاب كالڤر كريك كانوا من دون التاسعة عشرة من العمر، ولكن عندما رأيتها تأخذ السجائر، وتضعها على المنضدة من دون أن تطلب بطاقة هويتي، أجبت:

- نعم سيدتي.

- كيف هي الأحوال في المدرسة؟

- جيدة جدًا.

- سمعنا أن إحدى الطالبات قد توفّيت.

- صحيح، سيدتي.

- لقد أحزنني ذلك حقًا.

- نعم، سيدتي.

كنتُ أجهل اسم تلك المرأة، فالمتجر لم يكن من النوع الذي يبدّد النقود في شراء شارات الأسماء لموظّفيه، ولكن كان على خدّها الأيسر

حبّة الخال تخرج منها شعرةٌ وحيدة بيضاء. لم يكن ذلك مقزِّزًا حقًا، لكنني كنتُ لا أنفكُّ أنظر إليها لأشيح بوجهي على الفور.

عدتُ إلى السيارة، وأعطيت الكولونيل علبة سجائر.

فتحنا النوافذ على الرغم من برودة شهر شباط، التي عضتّ وجهي، وعويل الريح الذي جعلَ كلّ محادثةٍ مستحيلة. جلستُ على المقعد الخلفي أدخّن وأتساءل، لماذا لا تقتلع تلك المرأة العجوز شعرة حبّة الخال الوحيدة. كنتُ أجلس خلف تاكومي، والريح المتدفّقة من نافذته المفتوحة تلفح وجهي، فانتقلتُ إلى وسط المقعد، ونظرت إلى الكولونيل، فرأيته يبتسم ويدير وجهه للريح.

بعد ستة وأربعين يومًا

لم أكن أرغب في التكلّم مع لارا، ولكن في اليوم التالي، على الغداء، فجّر تاكومي القنبلة الأخيرة لعقدة الشعور بالذنب. سألَني وهو ينظر إلى لارا: «برأيك، لو كانت ألاسكا على قيد الحياة، كيف سيكون موقفها من هذه المهزلة؟». كانت تجلس قريبًا منّا مع زميلتها في الغرفة، كاتي، التي كانت تروي قصةً ما. وكانت لارا تبتسم كلّما ضحكت كاتي لإحدى نكاتها الشخصية. نظرتُ إليها وهي تجمع حبات الذرة في شوكتها، وترفعها فوق طبقها، ومن ثمّ تقرّب شفتيها وتحني رأسها لتضع الطعام في فمها، فقلت في نفسي، هذه فتاة تعرف كيف تأكل بعذوبة.

قلتُ مدافعًا عن نفسي: «كان بوسعها أن تكلّمني».

هزّ تاكومي برأسه، ومن ثمّ فتح فمه الممتلئ بالبطاطس المهروسة وقال: «عليك أنت أن تفعل ذلك، وليس هي». وبعد أن ابتلع لقمته، أضاف: «دعني أطرح عليك سؤالًا يا بدين. عندما تصبح عجوزًا أشيب،

ويجلس أحفادك على ركبتيك، ويسألونك: «جدّي، مع من مارستَ الجنس الفمَويّ للمرة الأولى؟» هل ستجيبهم، مع فتاة تجاهلتُها طوال الوقت الذي قضيتُه في الثانوية؟ طبعًا لا!» ابتسم وتابع: «ستفضّل القول: «مع صديقتي العزيزة لارا باترسكايا. فتاة جميلة، أجمل كثيرًا من جدّتكم»». ضحكتُ. وهكذا، كان عليّ أن أتكلّم مع لارا.

بعد انتهاء الدروس، ذهبتُ إلى غرفة لارا. طرقتُ، ففتحَت، وظلّت واقفة بالباب، وملامح وجهها تقول، ماذا؟ ولِم الآن؟ لقد فعلتَ كل ما في وسعك لإيذائي يا بدين. تجاوزها نظري إلى الغرفة التي لم أدخلها سوى مرة واحدة، حيث تعلّمتُ متى أُقبِّل ومتى لا. لم أجد شيئًا أقوله، وقبل أن يشتدّ الصمتُ ثقلًا، تكلّمتُ. قلتُ: «أنا آسف».

سألَت: «لماذا؟» وهي ما تزال تنظر إليّ بتردّد.

قلتُ: «لأنني تجاهلتُك. لكلّ شيء».

«لم تكُن مُلزمًا بأن تكون حبيبتي». بدت ساحرةً، بعينيها الواسعتين المرفرفتين، ووجنتيها المستديرتين الناعمتين. ولكن، مرّةً أخرى، ذكّرتني استدارتهما بوجه ألاسكا الرقيق، ووجنتيها البارزتين. لكنني كنت أستطيع تحمُّل ذكراها، والعيش معها، وهل ثمّة خيارٌ آخر؟ قالَت: «كنّا نستطيع أن نظلّ أصدقاء».

- أعرف. لقد أخطأتُ. سامحيني.

صرخت كاتي من داخل الغرفة: «لا تسامحي هذا الحقير».

قالت: «أنا أسامحك». ابتسمت وعانقتني. كانت يداها الناعمتان تشدّان بقوةٍ على ظهري النحيل. ضممتُها إلى صدري، وفاح شعرها بشذى الليلك.

قالت كاتي: «أمّا أنا فلا أسامحك»، التي جاءت حتى الباب. وعلى الرغم من عدم وجود أي حميميّةٍ بيني وبينها، لم تشعر بأي حرجٍ في توجيه ضربةٍ من ركبتها إلى خصيتيّ وهي تبتسم قائلةً هذه المرة: «الآن، أستطيع مسامحتك»، بينما رحتُ أتلوّى من الألم. ذهبتُ مع لارا إلى البحيرة، من دون كاتي، وتكلّمنا. تحدّثنا عن ألاسكا، والشهر الماضي، واشتياقها لي ولألاسكا، بينما أنا لم أشتق إلا لألاسكا (تلك هي الحقيقة). أخبرتها بالحقيقة، على الأقلّ، بقدر ما استطعت، بدءًا بالمفرقعات وحتى قسمِ الشرطة في بلهام، مرورًا بأزهار الزنبق البيضاء.

قلتُ: «كنتُ أحبّها»، وقالت لارا إنها كانت تحبّها أيضًا، من ثمّ تابعْتُ: «أعرف، لكنني أقول ذلك لأبرّر سلوكي معكِ. كنتُ أحبّها، وبعد وفاتها، كنتُ عاجزًا عن التفكير في أي شيء آخر. كما لو أنّ التفكير في غير ألاسكا، كان غشًّا وخيانة».

- لكنّه ليس سببًا كافيًا.

- أعرف.

ضحكت بعذوبة.

- جيد إذًا، بما أنك تعرف.

كنتُ أعرف أنني لن أمحو غضبها، لكننا على الأقلّ، كنّا نتكلّم.

ذلك المساء، والظلام يخيّم على الجوّ، علا نقيق الضفادع، وطنين الحشرات التي عادت تدبّ فيها الحياة من جديد. ذهبنا جميعًا، أنا وتاكومي ولارا والكولونيل، إلى ركن التدخين، وكان ضوء البدر البارد يضفي على رداء الليل صبغةً رماديّةً شاحبة.

سألت لارا: «قل لي أيها الكولونيل، لماذا تُسمّيه ركن التدخين؟»، وأضافت: «إنه أشبه بنفق».

أجاب الكولونيل: «لأنه يشبه الركن الذي تكثر فيه الأسماك. فلو أردنا الصيد، لاصطدنا فيه. لكننا ندخّن. يخيّلُ إليّ أن ألاسكا، هي التي أطلقت عليه هذه التسمية».

أخرج الكولونيل علبة سجائره، وأخذ منها سيجارةً رماها في الماء.

سألتُه: «ماذا دهاك؟».

قال: «لروحها».

ابتسمتُ نصف ابتسامة، وحذوتُ حذوه. أخذت إحدى سجائري ورميتها في الماء، ومن ثمّ أعطيت واحدةً لكلٍّ من تاكومي، ولارا، رمياهما في الماء. راحت السجائر تتراقص على هوى التيار الذي حملها حتى غابت عن أنظارنا.

لم أكن متديّنًا، لكنني كنتُ أعشقُ الشعائر الدينيّة، وفكرة التواصل بين الفعل والذاكرة. كان العجوز هايد، قد روى لنا، أنّ ثمّة أيامًا في الصين، كانت مكرّسةً لتنظيف القبور، وتقديم الهدايا للموتى، فخطر لي أن ألاسكا قد تكون الآن راغبةً في التدخين، وبدت لي مبادرة الكولونيل شعيرة ممتازة.

بصق الكولونيل في مياه التيار وكسر الصمت: «الأمر الغريب في التواصل مع الأشباح، هو أننا لا نعلم إن كنّا نخترع إجاباتهم، أم أنهم يتكلّمون معنا حقًا».

قال تاكومي تجنّبًا للمواضيع الاستنباطية: «أقترح أن نضع قائمة. بالأدلّة التي ترجّح فرضيّة الانتحار؟».

فأخرج الكولونيل دفتره.

قلتُ: «لم تضغط على الفرامل إطلاقًا»، وبدأ الكولونيل بتدوين ملاحظاته.

كانت أيضًا غاضبة جدًا بسبب أمرٍ ما. مع العلم أنّه، سبق لها أن غضبَت مرارًا، ولم تنتحر. لقد افترضنا أنّ الزهور كانت نوعًا من التأبين الشخصي، أشبه بتدبير جنائزي أو أي شيء من هذا القبيل. لكنّه بنظرنا، سلوك لا يشبهها. كانت غامضة بالتأكيد، ولكن إذا كانت قد خطّطت للانتحار، ورسمت أدق التفاصيل، بما فيها الزهور، فذلك يعني أنها كانت قد خطّطت لطريقة موتها، غير أنّ ألاسكا لم تكن تعرف بأي شكل من الأشكال، أنّ سيارة شرطة ستحضر إلى الطريق الدولية رقم 65 من أجل المناسبة.

الآن، ما هي الأدلّة التي ترجّح فرضيّة الحادث؟

قال تاكومي: «كانت ثملةً جدًا، ولعلّها لم تُقدّر أنها ستصدم سيارة الشرطة، ولكنني لا أرى كيف كان ذلك ممكنًا».

اقترحت لارا: «ربما نامت خلف المِقوَد».

قلتُ: «نعم، لقد فكّرنا في ذلك، لكنّني لا أعتقد أن النائم يقود في خط مستقيم».

قال الكولونيل بكثير من الجدّيّة: «لمعرفة ما حدث، لا أستطيع التفكير في طريقة لا تعرِّض حياتنا لخطرٍ كبير»، ومن ثمّ أضاف: «على أيّ حال، لم يظهر في سلوكها أيًّا من العلامات التي تسبق فعل الانتحار. ما أريد قوله، هو أنها لم تتكلّم عن رغبتها في الموت، ولم تتخلّ عن أشيائها الشخصيّة، أو أي شيء من هذا القبيل».

قال تاكومي: «لدينا إذًا دليلان يرجّحان فرضيّة الحادث، السُّكر وعدم التخطيط للموت». لم نكن نتقدّم. مجرّد رقصة إضافية حول الأسئلة عينها. لم نكن نحتاج إلى مزيدٍ من التفكير، بل إلى مزيدٍ من الأدلّة.

قال الكولونيل: «يجب أن نكتشف الوجهة التي كانت تقصدها». قلتُ له: «كنتُ أنا وأنت وجايك، آخر الأشخاص الذين تكلّمَت معهم». ونحن الثلاثة، لا نعرف شيئًا. إذًا، قل لي بحق الجحيم، كيف سنكتشف ذلك؟».

التفت تاكومي نحو الكولونيل وتنهّد، ومن ثمّ قال: «لا أعتقد أن معرفة وجهتها ستساعدنا في شيء، بل على العكس، ستزيد الأمر سوءًا. إنه مجرّد حدس، إحساس داخليّ».

قالت لارا: «أمّا أنا فإحساسي الداخليّ يريد أن يعرف»، عندئذٍ، أدركت ما قصده تاكومي بقوله عندما كنّا معًا تحت الدشّ. لقد قبّلتُها، نعم، لكنني لم أكن الوحيد الذي يحقّ له أن يحبّها، ولم تكن حكرًا عليّ وحدي. لم أكن أنا والكولونيل الشخصين الوحيدين اللذين كانا يحبّانها، ولا الوحيدين اللذين كانا يحاولان اكتشاف كيف ماتت ولماذا.

قال الكولونيل: «إذًا، نحن في طريق مسدود. لذلك، فكّروا في ما يمكن فعله، فأنا قد استنفدت كلّ ما أملك من أدوات».

قذف عقب سيجارته في مياه الجدول، ومن ثمّ نهض وذهب. تبعناه. فحتى في الهزيمة، كان ما يزال الكولونيل.

بعد واحد وخمسين يومًا

كانت التحريات تراوح في مكانها، واستعدت قراءاتي للكتب التي تدخل في إطار مادة تاريخ الأديان، ما راق للرجل العجوز الذي تغيّبتُ

عن اختباراته المفاجئة طوال ستة أسابيع كاملة. صباح ذلك الأربعاء، خضعنا لأحد تلك الاختبارات، وكان السؤال: أذكر مثالًا عن الكوان البوذي. والكوان لغزٌ أو أحجيةٌ يفترض بها أن تساعد على بلوغ الاستنارة بحسب تعاليم الزن البوذية. إجابةً عن السؤال، اخترتُ قصّة ذلك الرجل المدعو بانزان. يُحكى أن بانزان كان يتجوّل في السوق عندما سمع رجلًا يطلب من الجزار أن يعطيه أجود قطعة لحمٍ في حانوته. ويجيبه الجزار: «كلّ ما في حانوتي هو الأجود، ولن تجد فيه قطعةً واحدةً ليست الأجود». ما إن سمع بانزان جواب الجزار حتى أدرك أنّ الأفضل والأسوأ لا وجود لهما، وأنهما مجرد حُكمَيّ قيمة فارغَين من أي معنىً حقيقي، ولا وجود إلّا لماهية الموجود بحدّ ذاته. وفجأةً، يبلغ الاستنارة. إذ كنت أقرأ هذه القصة ليلة أمس، تساءلت، ماذا لو حدث لي ذلك فجأة، وبرفة عين، أتوصّل أخيرًا إلى فهم ألاسكا، ومعرفتها، وفهم الدور الذي لعبتُه في موتها. لكنني لم أكن مقتنعًا بأنّ الاستنارة تضرب كالصاعقة.

بعد الاختبار، التقط الرجل العجوز عصاه، ومن كرسيّه، أشار بها إلى اللوح حيث بدأ سؤال ألاسكا يتآكل. وقال لنا: «افتحوا على الصفحة الرابعة والتسعين حيث ترد جملةٌ من مقدّمة الزن الممتِعة التي قرأتُها عليكم هذا الأسبوع. «كلّ شيءٍ يتجمّع، ينهارُ ويتبدّد. كلّ شيء. الكرسيُّ الذي أجلس عليه، جرى تجميعُه وسينهار ويتبدّد. أنا، سأنهار وأتبدّد، وحتمًا، قبل هذا الكرسيّ. أنتم، ستنهارون وتتبدّدون. فالخلايا والأعضاء والأنظمة التي تكوّنكم وتجعل منكم كائنات كاملة، تجمّعَت ونمَت معًا، إذًا، ستنهار وتتبدّد. لقد أدرك بوذا شيئًا عجزَ العلمُ عن إثباته طيلة آلاف السنين التي تلَت وفاته: قوّة الانحلال تصاعديّة. وعلى نحوٍ أوضح، تنهار الأشياء وتتبدّد في نهاية المطاف».

كلّنا راحلون، قلتُ في نفسي، وهذه الحتميّة تنطبق على كلّ شيء، على السلاحف، وقواقع السلاحف، على ألاسكا الفتاة، وألاسكا المكان. لا شيء يدوم، بما في ذلك الأرض نفسها. يقول بوذا، إنّ من رحْم الرغبة يولد الألمُ. بالتالي، نهايةُ الرغبة تعني نهايةَ الألم. عندما نتوقّف عن الرغبة في عدم انهيار الأشياء وتبدّدها، نتوقّف عن الشعور بالألم عندما تنهار وتتبدّد.

سيأتي يومٌ، حيث لن يتذكّر أحدٌ وجودها، كتبتُ هذه الجملة في دفتري، ومن ثمّ أضفتُ، ولا وجودي أنا. فالذكريات أيضًا تنهار وتتبدّد. ومن ثمّ تجد نفسك وحيدًا وقد فقدتَ كل شيء، حتى الأشباح، لا يبقى لك منها إلّا الظلال. في البداية، استحوذَت عليّ، وسكنَت أحلامي، بينما اليوم، وبعد أسابيع فقط من موتها، ها هي تنزلق بعيدًا، لتنهار في ذاكرتي وذاكرة الجميع، ومن ثمّ تموت ثانيةً.

منذ البداية، قاد الكولونيل عمليّة التحقيق والتحريات، ساعيًا إلى اكتشاف ظروف وملابسات موتها، لكنّه استسلم عندما وجد نفسه أمام طريق مسدود، وبلا أجوبة. أمّا أنا، فلم يكن يهمّني سوى أن أكتشف إن كانت تحبُّني، ولم أرضَ بالأجوبة التي حصلتُ عليها: لم ترَ أنّ ما حدث بيننا، هو من الأهمية بحيث ينبغي أن تبوح به لجايك، وبدلًا من ذلك، أشبعَته كلامًا معسولًا. لم تترك له أي فرصةٍ ليفكّر في أنني قبل دقائق فقط، كنت أشمّ رائحة النبيذ في أنفاسها. ومن ثمّ فجأةً، انكسر شيءٌ خفيٌّ في داخلها، وبدأ ما كان قد تجمّع معًا، ينهار ويتبدّد.

ربما كان ذلك الجواب، هو الوحيد الذي حصلنا عليه. لقد انهارت ألاسكا وتبدّدت لأنّ ذلك ما يحدث لنا جميعًا.

بدا الكولونيل متصالحًا مع هذه الفكرة، ولكن على الرغم من أن التحقيق كان بمبادرةٍ منه، فقد أصبح الصّمغ الذي كان يبقي عليّ كُلًّا واحدًا، وكنتُ ما أزال آمل في بلوغ الاستنارة.

بعد اثنين وستين يومًا

نمتُ يوم الأحد التالي حتى تسلّلَت أشعةُ شمسِ الصباح المتأخّر عبر شفرات الستارة المعدنية، ووجدَت طريقها إلى وجهي. رفعتُ الغطاء ودفَنتُ رأسي تحته، ولكن سرعان ما ارتفعت حرارة الهواء، وأصبح الجو خانقًا، فنهضتُ لأتّصل بوالديّ.

قالت والدتي: «مايلز!» قبل أن أفتح فمي. «لقد اشتركنا للتو بميزة كشف الرقم المتصِل».

- وهل يملك الهاتف قدرةً سحرية تجعله يعرف أنني أتصل من هاتف المدرسة العمومي؟

ضحكَت: «لا، إنّه يعطي فقط رمز المنطقة، ويشير إلى أنّ مصدرَ الاتصال «هاتفٌ عمومي»، فاستنتجتُ أنّك المتّصِل. كيف حالك؟» سألَتني وفي صوتها قلقٌ دافئ حنون.

قلت لها: «أنا بخير. لقد تراجعت نتائجي في بعض المواد، لكنني استدركتُ الأمر، وضاعفتُ من جهودي، لذلك، لا تقلقي، سيكون كل شيء على خير ما يرام»، وكان معظمُ ما قلتُه صحيحًا.

فقالت: «أعرف أنك مررتَ بظرفٍ قاسٍ يا بني. اسمعْ! احزرْ بمن التقيت أنا ووالدك مساء أمس على حفلة عشاء؟ السيدة فورستر. معلّمتُك في صف الرابع الابتدائي. تتذكّرها أليس كذلك؟ ما زالت تتذكّرك جيدًا. لقد أثنَت عليك كثيرًا، ودردشنا». بالطبع، كنتُ مسرورًا بالانطباع الذي تركَه تلميذُ الصف الرابع الابتدائي لدى السيدة فورستر، لكنني لم أكن أصغي فعلًا لما تقوله والدتي، فقد كان ذهني مشتّتًا بقراءة الملاحظات التي كانت تغطي الجدار على جانبيّ الهاتف، بحثًا عن ملاحظات جديدة قد أتمكّن من فكّ رموزها (عند لاسي - الجمعة، 10. لا شكّ في أن

هذه الملاحظة كانت مكان وتاريخ حفلة يقيمها أحد الأسبوعيين). «كنّا مدعوّين إلى العشاء في منزل آل جونستون مساء أمس، وأعتقد أن والدك أسرفَ في الشراب، فبعد العشاء، لعبنا لعبة التمثيليّات التحزيرية، وكان مُقلّدًا سيئًا للغاية».

ضحكّت، وكنت منهكًا، لكنّ المقعد كان بعيدًا عن الهاتف، فوضعت مؤخرتي الهزيلة على الأرضية الاسمنتية القاسية، ومن ثمّ سحبتُ شريط الهاتف الفضيّ إلى الحد الأقصى، وحضّرت نفسي لتحمّل مونولوج آخر من مونولوجات والدتي التي لا تنتهي. فجأةً، تحت الملاحظات والخربشات المتنوعة، رأيت رسمًا لزهرة. اثنا عشر بتلةٍ مستطيلة حول دائرة ملوّنة على الطلاء الأبيض الأقحواني. أقحوانات، أقحوانات بيضاء. كنتُ أستطيع سماع صوتها وهي تقول، ماذا ترى يا بدين؟ أُنظر، ورأيتُ. رأيتُها تجلس على الأرض، ثملةً، تثرثر مع جايك، حتى اللحظة التي يقول فيها، ماذا تفعلين؟ وتجيبه، لا شيء، أخربش فقط. ومن ثمّ تصرخ، يا إلهي.

- مايلز؟

- نعم، آسف أمّاه. آسف. لقد وصل تشيپ، وهو ينتظرني لندرس معًا. يجب أن أذهب.

- هل ستتصل لاحقًا؟ سيُسرُّ والدك كثيرًا بالحديث معك.

- نعم أمّاه؛ نعم، بالطبع. أحبّك، حسنًا؟ حسنًا، يجب أن أذهب.

صرختُ على الكولونيل الذي كان يختفي تحت غطائه: «أعتقد أنّي وجدتُ شيئًا!» لكنّ نبرة صوتي المستعجلة، والواعدة باكتشافٍ ما، مهما كانت طبيعته، أيقظَته من نومه على الفور. قفز من سريره على الأرضية البلاستيكية، وقبل أن أتفوّه بكلمة واحدة، التقط سرواله الجينز وكنزته

اللذين كانا مرميّين على الأرض منذ الأمس، ومن ثمّ ارتداهما وتبعَني إلى الخارج.

قلتُ: «أُنظر». مشيرًا إلى الزهرة. فجلس الكولونيل القرفصاء بجانب الهاتف، وقال: «نعم. هي التي رسمتها. كانت دائمًا تخربش هذا النوع من الزهور».

- والخربشة، ألا تذكّرك بشيء؟ يسألها جايك، «ماذا تفعلين الآن؟» فتجيب، «أخربش فقط»، ومن ثمّ تصرخ، «يا إلهي»، وتصابُ بحالة من الذعر. عندما رأت رسم الزهرة ثانيةً، تذكّرَت شيئًا ما.

اعترفَ: «ذاكرتك جيدة يا بدين»، وتساءلتُ لماذا لم يكن الكولونيل بمثل حماستي.

كرّرتُ: «ومن ثمّ تصابُ بحالة من الذعر، وتأخذ الزنابق بينما نقوم نحن بإشعال المفرقعات. عندما رأت الخربشة، تذكّرَت أنها نسيَت شيئًا ما، فأُصيبت بحالة من الذعر».

قال الكولونيل: «ممكن»، ومن دون أن يحوّل نظره عن الزهرة، محاولًا بلا شك أن يراها بعينيّ ألاسكا. أخيرًا، نهض وقال وهو يربّت ظهري مثلما يفعل مدرّبٌ عندما يهنّئ أحد لاعبيه: «إنها نظرية متماسكة، يا بدين، لكننا لا نزال نجهل ذلك الشيء الذي نسيَته».

بعد تسعة وستين يومًا

بعد أسبوع من اكتشاف رسم الأقحوانة، سلّمتُ بعدم أهمّيتها، فبالنهاية، لم أكن بانزان في سوق اللحم. وعندما بدأت الحياة تنبعث من جديد في أشجار الدلب التي تحيط بالحرَم المدرسي، وبدأ طاقم الصيانة بقصّ عشب دائرة المباني السكنية، بدا لي أننا أخيرًا فقدناها إلى الأبد.

بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت أنا والكولونيل إلى الغابة القريبة من البحيرة، ودخنّا سيجارةً في المكان الذي فاجأنا فيه النسر قبل أشهر عدّة. في ذلك اليوم نفسه، عُقدت جمعيّةٌ عموميّةٌ أعلن خلالها النسر عن نيّة المدرسة في بناء ملعبٍ بجانب البحيرة، تخليدًا لذكرى ألاسكا. لا شك في أنها كانت تحب الأراجيح، ولكن ملعب؟ في تلك الجمعيّة، وقفت لارا، وقالت إن ألاسكا كانت تستحق شيئًا آخر أكثر إمتاعًا، شيئًا يشبهها.

- قال الكولونيل وهو يجلس على قرمةٍ شبه فاسدةٍ تغطيها الطحالب: «لارا على حق. كان يجب أن نفعل شيئًا من أجلها، شيئًا تحبُّه، كأن ندبّر مقلبًا على سبيل المثال.

- مقلبٌ تذكاريّ؟

- بالضبط، مقلبُ ألاسكا يونغ التذكاريّ. يمكننا أن نجعل منه حدثًا سنويًا. على أي حال، عندما كانت في السنة الأولى، خطرَت لها فكرة، سوى أنها أرادت الاحتفاظ بها للسنة الدراسية الأخيرة كتتويج لمقالبها. لكنها فكرة هائلة. هائلة حقًا. تحفةٌ تاريخية.

سألته: «هل ستُطلعني عليها؟» وكنتُ أفكّر في تلك المرة، عندما استبعدني هو وألاسكا عن التخطيط لليلة الإسطبل.

قال: «بالتأكيد، عنوان المقلب، «إسقاط النموذج الذكوري»». ومن ثمّ رواه لي، والحقُّ يقال، لقد تركت لنا ألاسكا دُرّةَ المقالب التي شهدتها ثانوية كالڤر كريك على امتداد عشرات السنين. وإذا استطاع الكولونيل تنفيذه، سيبقى، إلى الأبد، محفورًا في ذاكرة الجميع بكالڤر كريك. كان ذلك أقلّ ما تستحقُّه ألاسكا. أمّا الأجمل، فهو أنّ سيناريو المقلب لم يكن يحوي أيّ مخالفةٍ تستدعي الطرد من المدرسة.

نهض الكولونيل، ومن ثمّ نفض الغبار والطحالب عن سرواله وقال: «أعتقد أننا مدينون لها بذلك».

كنتُ أوافقه الرأي، مع أنها أيضًا، كانت مدينةً لنا بالتفسير. وإذا كانت في مكانٍ ما، فوق، أو تحت، أو هناك، أو أيّ مكان آخر، فلا بدّ من أنها تضحك الآن. وربما، ربما فقط، تمدّنا بالدليل الذي نحتاجه.

بعد ثلاثة وثمانين يومًا

بعد مرور أسبوعين، عاد الكولونيل من عطلة الربيع بدفترين ممتلئين بأدق تفاصيل خطّة المقلب، رسوم توضيحية للأمكنة، وقائمة من أربعين صفحة تتضمّن المشكلات التي قد تطرأ وحلولها. كان قد حسب التوقيتات بعشر الثانية، والمسافات بالسنتيمتر، وأعاد حساباته، كما لو أنه لم يكن يطيق فكرة تخييب آمال ألاسكا ثانيةً. صباح ذلك الأحد، استيقظ الكولونيل واستدار في فراشه. كنت أقرأ الضجيج والغضب لوليم فوكنر التي كان ينبغي أن أقرأها في خلال منتصف شهر شباط، لكنني عندما سمعته يتحرك في سريره، رفعتُ رأسي ونظرت نحو الأعلى. فقال لي: «اجمع بقية الفريق».

غامرتُ وخرجتُ في صباحٍ ربيعيٍّ غائم لأوقظ لارا وتاكومي وأعود بهما إلى الغرفة رقم 43. كان فريق ليلة الإسطبل قد اكتمل، أو بالأحرى كاد يقترب من الاكتمال، لبدء تنفيذ مقلب ألاسكا يونغ التذكاريّ.

جلسنا على الكنبة نحن الثلاثة، بينما ظلّ الكولونيل واقفًا قبالتنا يشرح تفاصيل الخطة، ويوزّع الأدوار بحماسةٍ لم أعهدها لديه إلّا قبل وفاة ألاسكا. عندما انتهى، سأل: «هل ثمّة أسئلة؟».

قال تاكومي: «نعم. بجدّ، هل تعتقد أن هذه الخطة ستنجح؟».

- حسنًا، أوّلًا، يجب أن نجد راقص تعرٍّ. وثانيًا، يجب أن يمارس البدين قدراته السحرية على إقناع والده».

قال تاكومي: «حسنًا إذًا، هيّا إلى العمل».

بعد أربعة وثمانين يومًا

إبّان فصل الربيع، جرَت العادةُ بأن تقتطعَ المدرسةُ بعد ظهر أحد أيام الجمعة من الدوام الرسمي، حيث يدعى الطلاب والأساتذة وجميع العاملين إلى النادي الرياضي للمشاركة في يوم المحاضرات. ذلك اليوم، كان البرنامج يتضمّن محاضرتين. عمومًا، كان المحاضرون شخصيات من الدرجة الثانية، أو سياسيين مغمورين، أو جامعيين من النوع الذي يحاضر في مدرسةٍ تخصّص من ميزانيتها مبلغ ثلاثمئة دولار تعيسة لتغطية نفقات الحدث. كان طلاب الحادي عشر قد اختاروا مُحاضِرهم، وطلاب البكالوريا اختاروا الآخر. كلّ الذين شاركوا في يوم المحاضرات، كانوا يقرّون بأنه حدثٌ مملٌّ للغاية. ونحن، أردنا كسر تلك القاعدة.

كل ما كنّا نحتاج إليه، هو إقناع النسر بالموافقة على اختيار «صديق والدي»، «الباحث البارز في أشكال الشذوذ الجنسي المختلفة لدى المراهقين»، «الدكتور وليم مورس»، كمُحاضرٍ لطلاب الصفّ الحادي عشر.

إذًا، فقد اتصلتُ بوالدي في مكان عمله، وسألني سكرتيره پول إن كنتُ بخير. لم أكن أفهم لماذا كان الجميع، وأقول الجميع، يشعرون بالقلق عليّ، ويسألونني إن كنتُ بخير كلّما اتصلتُ في وقت غير صباح الأحد.

- نعم، أنا بخير.

قال والدي على سماعة الهاتف: «أهلًا مايلز، هل أنت بخير؟».

ضحكتُ، وكان حولي طلّاب كثُر، فرحتُ أتكلّم بصوتٍ خفيض: «نعم بابا، كل شيء على أحسن ما يرام. بالمناسبة، هل تذكُر عندما سرقتَ جرس المدرسة ودفنتَه في المقبرة؟».

أجاب متفاخرًا: «أعظم مقلبٍ في تاريخ كالڤر كريك».

- كان، يا بابا. كان أعظم مقلب. لذلك اسمعني، كنتُ أتساءل إن كنت توافق على مساعدتنا في تنظيم المقلب الجديد الأعظم في تاريخ كالڤر كريك».

- لستُ أدري بم أجيبك، مايلز. لا أريد لك التورُّط في أي متاعب.

- لن أتورّط. فجميع طلاب صف الحادي عشر يشاركون فيه. لن يتعرّض أحد للأذى أو أي شيء من هذا القبيل. أتذكُر يوم المحاضرات؟

- رباه، كم كان مملاّ. كان أسوأ من الدروس.

- نعم، لذلك، أنا بحاجة إليك، أريدك أن تنتحل شخصية المُحاضِر، الدكتور وليم مورس، أستاذ علم النفس في جامعة فلوريدا، والخبير في أشكال الحياة الجنسية لدى المراهقين.

ظلّ صامتًا لبرهة من الزمن، كنتُ خلالها أتأمل آخر أقحوانةٍ رسمَتها ألاسكا تحت الهاتف، وأنتظر أن يستفسر عن طبيعة المقلب. كنتُ أنوي أن أرويه له، لكنّني سمعته يتنفّس ببطء على الهاتف، قبل أن يقول: «لن أسألك حتى». ومن ثمّ تنهّد وقال: «هل تُقسم بأنك لن تخبر والدتك؟».

«أُقسِم». لم أكن أتذكّر اسم النسر الحقيقيّ، واحتجت إلى ثانية كاملة حتى وجدتُه، فقلتُ: «بعد حوالى عشر دقائق، سيتصل بك السيد ستارنز».

- حسنًا. أنا الدكتور وليم مورس، أستاذ في علم النفس، وخبير في حياة المراهقين الجنسية. أليس كذلك؟

- تمامًا، بابا، أنت الأفضل.

قال ضاحكًا: «فقط أريد أن أرى إن كنت ستتفوّق عليّ».

على الرغم من أن الكولونيل كان يفضّل الموت على التعاون مع الأسبوعيين، لكنّ نجاح المقلب كان يتوقّف على مساعدتهم، وبالأخص،

ممثل طلاب صف الحادي عشر، لونغويل تشيس، الذي استعاد قصّة شعره السخيفة على طريقة راكبي الأمواج. لكنّ الأسبوعيين انبهروا بالفكرة وعشقوها، لذلك قابلْتُ لونغويل في غرفته، وقلتُ له، «هيا بنا».

لم يكن ثمّة ما يجمعني بلونغويل تشيس، ولم يكن كلانا يرغب في ادعاء عكس ذلك، لذا، مشينا حتى منزل النسر من دون أن نتفوّه بكلمةٍ واحدة. فتح النسر قبل أن نطرق على الباب. عندما رآنا، ميّلَ رأسه قليلًا، وبدَت عليه علامات الدهشة. كنّا في الواقع ثنائيًا غريبًا، هو في سرواله الكاكي المكوي، وأنا بسروالي الجينز الذي لم يدخل الغسّالة منذ زمن بعيد.

قال لونغويل: «إنّ المُحاضِر الذي اخترناه صديقٌ لوالد مايلز». «الدكتور ولِيم مورس. أستاذٌ في جامعة فلوريدا، وباحث في دراسات الحياة الجنسية لدى المراهقين».

- تهدفون إلى إثارة الجدل، أليس كذلك؟

قلتُ: «كلا يا سيدي، لقد التقيت بالدكتور مورس. إنه شخصيةٌ مثيرة للاهتمام، لكنّه بالتأكيد ليس جدليًا. تتركّز أبحاثة في التحوُّل المستمر والتطور اللذين يرافقان فهمَ الحياة الجنسية لدى المراهقين. ما أريد قوله، هو أنه يُعارض ممارسة الجنس قبل الزواج».

- حسنًا، معك رقم هاتفه؟».

أعطيت النسر ورقةً تحمل الرقم. سار حتى الهاتف المعلّق على الجدار وطلبَ الرقم: «نعم، مرحبًا. أودّ التحدث إلى الدكتور مورس... حسنًا، شكرًا... دكتور مورس؟ طاب يومك. معي مايلز هالتر هنا في المنزل، وقد أخبرني... عظيم، رائع... حسنًا، كنتُ أتساءل» ومن ثمّ صمت النسر وراح يلفّ حبل الهاتف حول إصبعه. ومن ثمّ تابع: «إذًا كنتُ أتساءل

إن كنتَ... ما دمتَ تتفهّم أنهم شباب صغار يمكن أن يتأثروا بسهولة. لا نريد مناقشات صريحة غير متحفظة... ممتاز. ممتاز. يسعدُني أنك تتفهم الأمر... طاب يومك أيضًا سيدي، إلى اللقاء!» أغلق النسر سماعة الهاتف، وقال مبتسمًا: «اختيار جيد! يبدو الرجل مثيرًا للاهتمام».

قال لونغويل بجدّيّة كبيرة: «نعم سيدي». «أعتقد أنه سيكون مثيرًا للاهتمام على نحوٍ استثنائي».

بعد مئة يومٍ ويومين

لعب والدي دور الدكتور وليم مورس على الهاتف، لكن الرجل الذي يُفترض به أن يلعب الدور الحقيقي كان يُدعى ماكس، وهو اسم مستعار، أمّا اسمه الحقيقي فكان ستان، وبالطبع، الدكتور وليم مورس في أثناء المحاضرة. كان راقص التعرّي ستان مثالًا صارخًا لأزمةٍ هويّة وجوديّةٍ، يحمل من الأسماء المستعارة ما لا يحمله عميلٌ سريٌّ في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية.

كانت «الوكالات» الأربع التي اتصل بها الكولونيل قد رفضت طلبنا. عندما وصلنا إلى حرف الحاء في باب «اللهو» من دليل الهاتف المهني، وقعنا على وكالة تنظِّمُ «حفلات نسائية لتوديع حياة العزوبية». أحَبّ مالكُ الوكالة المذكورة الفكرة، وقال: «سيُطرَب ماكس لذلك. ولكن لا عُري. ليس أمام الأولاد». ووافقنا على مضض.

لكي نضمن عدم تعرّض أيّ منّا لعقوبة الطرد، قمتُ أنا وتاكومي بحملةٍ لجمع التبرعات من جميع طلاب صف الحادي عشر في كالڤر كريك؛ يتوجّب على كلّ طالب دفع خمسة دولارات لتغطية أتعاب الدكتور وليم مورس، فالنسر لم يكن ليدفع له سنتيمًا واحدًا بعد «المحاضرة».

دفعتُ عن الكولونيل خمسة دولارات. قال: «يخيّلُ إليّ أنني أستحقُّ إحسانك»، قال وهو يشير إلى دفتره الحافل بالخطط.

في أثناء الدروس الصباحيّة، كنتُ عاجزًا عن التفكير في أيّ شيء آخر. كان جميع طلاب الصف الحادي عشر على علم بخطّة المقلب منذ أسبوعين، وحتى ذلك اليوم، لم تتسرّب إشاعةٌ واحدة، مهما كانت صغيرة. لكن الهمس وقصص القيل والقال كانت قد بلغت أوجها، خصوصًا في صفوف الأسبوعيين، ولو أنّ شخصًا واحدًا أخبر صديقًا واحدًا والذي بدوره أخبر صديقًا آخر، لتناهى الخبر إلى النسر وانهار كلّ شيء.

نجحت روح الولاء في الامتحان نجاحًا باهرًا، ولكن عندما لم يظهر ماكس/ستان/الدكتور وليم مورس في الساعة 11:50، من صباح ذلك اليوم، جُنّ جنون الكولونيل. فجلس على مخمّد الصدمة الأماميّ لسيارةٍ مركونة في مرأب الطلاب، وراح يحرث بأصابعه شعره الداكن السميك ذهابًا وإيابًا، كما لو كان يحاول العثور على شيء ما في فروة رأسه. كان ماكس قد وعدنا بالحضور في تمام الساعة 11:40، أي قبل عشرين دقيقة من توقيت افتتاح يوم المحاضرات الرسمي، بحيث يتسنّى له الوقت الكافي لمراجعة خطابه وسائر التفاصيل. جلستُ بجانب الكولونيل، قلقًا ولكن هادئًا، ورحت أنتظر. أرسلْنا تاكومي للاتصال بالوكالة وتحديد مكان «الفنان» بالضبط.

قال الكولونيل: «من بين كل المشكلات التي يمكن أن تطرأ، لم أفكّر في هذه، لأننا بكل بساطة لا نملك حلًّا بديلًا».

جاء تاكومي راكضًا، ولم يتكلّم حتى صار بالقرب منّا مخافة أن يسمعه أحد. كان الطلاب قد بدأوا يصطفّون في الدور لدخول النادي

الرياضي. سيتأخر، سيتأخر. بصراحة، لم نكن نطلب من فنّاننا الشيء الكثير. لقد كتبنا خطابه. رتّبنا له كل شيء. لم يكن عليه سوى القدوم ببذلة رسمية. ومع ذلك...

قال تاكومي: «بحسب الوكالة»، «الفنان في طريقه إلينا».

قال الكولونيل: «في طريقه إلينا؟» وهو يخمش رأسه بحماسةٍ متجدّدة. «في طريقه إلينا؟ لقد تأخّر أصلًا».

«قالوا إنه قد...» ومن ثمّ فجأةً تبخّر قلقُنا عندما انعطفت حافلة صغيرة زرقاء ودخلت المرأب. كان في داخلها رجلٌ يرتدي بذلة رسمية.

قال الكولونيل: «آمل في أن يكون ماكس»، عندما ركنَت السيارة، ومن ثمّ ركض نحو باب السائق.

قال الرجل: «أنا ماكس»، وهو يفتح الباب ليترجّل من الحافلة.

«أنا ممثّل صف الحادي عشر مجهول الهوية والوجه»، أجابه الكولونيل وهو يشدُّ على يده. كان في الثلاثينات، أسمر، عريض المنكبين، رجوليّ السحنة، ويطلق لحيةً صغيرةً مقصوصةً بعناية كبيرة.

أعطينا ماكس نسخة خطابه الذي قرأه بسرعة.

سألتُه: «ثمّة أسئلة؟».

- نعم، نظرًا لطبيعة الحدث، أعتقد أنه من الأفضل أن تدفعوا أتعابي مُقدّمًا.

أدهشتني فصاحته، وأوحى لي بثقة كبيرة، كما لو أنّ ألاسكا وجدَت أفضل راقص تعرٍّ في ألاباما الوسطى، وقادتنا إليه مباشرةً.

فتح تاكومي صندوق سيارته ذات الدفع الرباعي، والتقط كيس بقالة يحوي 320 دولار. وقال: «هذا مالك يا ماكس، حسنًا، سيجلس البدين

بجانبك، بما أنك صديق والده. هذا وارد في الخطاب. ولكن إذا حدث وسُئلتَ بعد انتهاء المَهمّة: ومن وَكّلك؟ نتمنّى أن تُجيب بأن الصف الحادي عشر برمته طلب منك تأدية هذا الدور عبر اتصال هاتفي جماعي، لكي لا يتعرّض البدين للمتاعب».

قال ضاحكًا: «هذا يناسبني تمامًا. لقد قبلتُ المَهمّة لأنني وجدتها طريفة. ليتَ هذه الفكرة خطرَت لي عندما كنتُ طالبًا في الثانوية».

دخلتُ إلى النادي الرياضي مع ماكس/الدكتور وليم مورس جنبًا إلى جنب، وكان الكولونيل وتاكومي يتبعانني على بعد بضع خطوات. كنتُ أعرفُ أنني سأتحمّل أكبر قدرٍ من المسؤولية، أكثر من أي أحدٍ آخر، وبالتالي سأتعرض لعقوبات أشدّ. لكنّني كنت قد قرأت في خلال الأسبوعين الماضيين نظام كالڤر كريك الداخلي عن كثب. وفي حال تعرّضي للمتاعب، ركّزتُ دفاعي على نقطتين أساسيّتين: أوّلًا، تقنيًا، لم يكن في النظام الداخلي أي مادة تمنع من استئجار مواهب راقص تعرٍّ بهدف تقديم عرضٍ فنيٍّ أمام الطلاب. ثانيًا، لم يكن هناك أي دليل يثبت مسؤوليتي عن الحادث. الشيء الوحيد الذي كانوا يستطيعون إثباته، هو أنني دعوتُ إلى الحرم المدرسي شخصًا كنت أفترض أنه خبير في قضايا الشذوذ الجنسي لدى المراهقين، وتبيّن أنه هو نفسه، شاذ جنسيًا.

جلست في وسط الصف الأول المواجه للمدرّج بجانب الدكتور وليم مورس. وجلس خلفي بعض تلاميذ الصف التاسع، ولكن بعد برهة قصيرة، عندما وصل الكولونيل بصحبة لارا، طردهم بلباقة قائلًا: «شكرًا لاحتفاظكم بمقاعدنا». وفقًا لبنود الخطة، كان من المفترض أن يكون تاكومي في حجرة التسجيل في الطابق الثاني، يربط جهاز الستيريو الخاص به بمكبرات الصوت الموزّعة على الصالة. التفتُّ نحو الدكتور مورس وقلتُ:

«يجب أن ينظر كلٌّ منّا إلى الآخر ببالغ الاهتمام وأن ندردش معًا بما أنك صديق والدي».

وافق بإيماءة من رأسه: وقال مبتسمًا. «والدك رجل رائع. ووالدتك - والدتك آية في الجمال». حملَقتُ فيه مستنكرًا. مع ذلك، كان ذلك الراقص يعجبني. وصل النسر في تمام الساعة الثانية عشرة ظهرًا. رحّبَ بمُحاضِر صف البكالوريا - هو نائب عام سابق بولاية ألاباما - ومن ثمّ تقدّم نحو الدكتور مورس، الذي وقف بوقار، وانحنى انحناءةً خفيفةً ليشُدّ على يد النسر (برأيي، كان يبالغ). قال النسر: «يُسرّنا كثيرًا وجودُك معنا»، وأجابه ماكس: «شكرًا. آمل في ألّا أخيّب ظنّكم».

لم أكن قلقًا مخافة أن أُطرَد أو يُطرَد الكولونيل، وكان ينبغي أن أقلق. كنتُ قلقًا لأن الخطة لم تكن من صنع ألاسكا. وربما يستحيل نجاح مقلبٍ يليق بها من دونها.

وقف النسر خلف المنصّة:

«هذا يومٌ يحمل معنىً تاريخيًا في مسيرة كالقر كريك الطويلة. كان مشروع مؤسّس مدرستنا فيليپ غاردن، يهدف إلى تخصيص بعد ظهر يومٍ من أيام السنة الدراسية للشخصيات الخارجية من ذوي المعارف والخبرات، بحيث تستفيدون أنتم، الطلاب، ونحن الأساتذة من حكمتهم وتجاربهم. في إطار هذا الهدف، نجتمع في هذه الصالة مرّةً في السنة، لنتعلّم منهم، ونرى العالم بأعينهم. اليوم، أقدّم إليكم الدكتور وليم مورس، أستاذ مادة علم النفس في جامعة فلوريدا، وباحث محترم على نطاق واسع. لقد جاء اليوم ليحدثنا عن حياة المراهقين الجنسية، وهو موضوع لا أشك لحظةً واحدةً في أنه سيحظى باهتمامكم. لذلك أرجو أن ترحّبوا معي بالدكتور مورس».

صفّقنا جميعًا. وفي صدري راح قلبي يدقّ كما لو كان يريد التصفيق هو الآخر. عندما تقدّم ماكس نحو المنصّة، مالت عليّ لارا وهمسَت: «إنه مثير حقًا».

قال ماكس: «شكرًا سيد ستارنز». وهو يبتسم للنسر مع إيماءة من رأسه، ومن ثمّ جمَع أوراقه، ورتّبها، ووضعها على المنبر. حتى أنا كدتُ أصدّق أنه أستاذ في علم النفس، وتساءلت إن لم يكن يمارس مهنة التمثيل لزيادة دخله.

راح يقرأ نسخة خطابه من دون أن يرفع عينيه عنها، لكنه قرأ بنبرة الأكاديمي الواثقة التي لا تخلو من عجرفةٍ خفيفة: «جئت اليوم لأتحدث معكم في موضوع مشوّق، ألا وهو الحياة الجنسية في سنّ المراهقة. تدخل أبحاثي في حقل اللسانيات الجنسية، وتحديدًا المصطلحات التي يستعملها الشباب في التعبير عن الجنس والأسئلة الأخرى ذات الصلة. على سبيل المثال، أتساءل لماذا لا تثير لديكم كلمة «ذراع» موجةً من الضحك، بينما تنجح كلمة «مهبل» في ذلك». وفي الواقع، سُمعَت في الصالة بعض الضحكات الصغيرة العصبية. «والمفردات التي يستخدمها الشباب في وصف أجساد بعضهم بعضًا تقول الكثير عن طبيعة مجتمعنا. في عالم اليوم، يميل الصبية إلى تشييء أجساد الفتيات، ولكن ليس العكس. في ما بينهم، يقول الصبية من دون أي حرج، إن نهدي هذه الفتاة أو تلك جميلين، بينما تقول الفتيات عن هذا الصبي أو ذاك إنه لطيف، وهي مفردة تعبر في الوقت نفسه عن الخصائص الجسدية الشخصيّة. هذا السلوك الذكوري يحوّل الفتيات إلى مجرد أشياء، في حين تنظر الفتيات إلى الصبية ككائنات مستقلة في حد ذاتها –»

نهضت لارا، وبلهجتها الساحرة البريئة قاطعت الدكتور وليم مورس قائلةً: «أنت مثير جدًا! ليتك فقط تصمت وتخلع ملابسك».

غرق الطلاب في الضحك، لكن الأساتذة استداروا وراحوا يحملقون فيها صامتين من هول الصدمة. عادت لارا إلى الجلوس.

- ما اسمك، يا عزيزتي؟

- لارا.

قال ماكس: «والآن، يا لارا»، وهو ينظر إلى أوراقه لكي يجد السطر المناسب في خطابه، «ها نحن أمام حالة دراسية مثيرة للاهتمام - أنثى تشيّئُني، أنا الذكر. هذه حالة نادرة جدًا إلى الحد الذي يجعلني أفترض أنك تمزحين».

نهضت لارا ثانيةً وصرخَت: «أنا لا أمزح! اخلع ملابسك».

نظر إلى أوراقه بعصبية، ومن ثمّ رفع رأسه ونظر إلى الحضور وهو يبتسم، قائلًا: «حسنًا، لا شك أن إسقاط النموذج الذكوري أمر في غاية الأهمية، وأقرُّ بأنها طريقةٌ مثل أخرى. إذًا فليكن كما تريدين»، وبدأ يبتعد عن المنبر نحو اليسار. ومن ثمّ بصوت مرتفع بحيث يسمعه تاكومي في الطابق الثاني صاح: «أهدي هذه الفقرة إلى ألاسكا يونغ».

على أنغام موسيقى أغنية برينس «Get Off» وإيقاعاتها السريعة التي انطلقت من مكبّرات الصوت، أمسك الدكتور وليم مورس ساق سرواله بإحدى يديه وبيده الأخرى حاشية سترته، وبلمح البصر، فكّ شريط الڤلكرو اللاصق الذي حرّره من بذلته التي انخلعَت كاشفةً عن ماكس، رجل مفتول العضلات بشكل مذهل، وبطنه منحوت على شكل مربعات، وعضلات صدره بارزة ومنتفخة. وقف ماكس أمامنا مبتسمًا، ولم يكن يرتدي سوى سروال داخلي قصير من الجلد الأسود، يشدّ على جسده ويُبرز تضاريسه كلها.

ثبّت ماكس قدميه، وراح يحرّك ذراعيه مع الموسيقى، فانفجر الجمهور في الضحك، ودوّت عاصفة من التصفيق كانت الأطول في تاريخ

يوم المحاضرات. انتفض النسر وهبّ واقفًا، فتوقّف ماكس عن الرقص. لكنّه بدلًا من ذلك، قلّص عضلات صدره وراح يرقّصها على وقع الموسيقى، إلى أن أشار له النسر بإبهامه طالبًا منه الخروج من النادي الرياضي. كان النسر يمصّ شفتيه ليمنع نفسه من الابتسام. ومن ثمّ خرج ماكس.

تبعتُه بعينيّ حتى خرج، ورأيت تاكومي يقف في المدخل، ويرفع قبضتيه في الهواء تعبيرًا عن النصر قبل أن يسرع إلى الطابق الثاني ليوقف الموسيقى. كنتُ مسرورًا لأنه تمكّن على الأقل، من رؤية جزء من العرض.

كان أمام تاكومي المتسع من الوقت لكي يفكك تجهيزاته، إذ استمر الضحك والمحادثات لدقائق عدّة، كان النسر خلالها لا ينفك يكرّر: «حسنًا، حسنًا. اهدأوا الآن. اهدأوا جميعًا. اهدأوا».

بعد ذلك، جاء دور المُحاضِر الثاني الذي اختاره صف البكالوريا. كان مخيّبًا للآمال. وبينما كنّا نغادر الصالة، تجمّع حولنا حشدٌ كبير من طلاب الصفوف الأخرى، وراحوا يسألوننا، «أنتم الذين دبرتم المقلب؟» اكتفيتُ بالابتسام، وقلتُ لا، لأن الفضل لم يكن يعود لي، ولا لأيٍّ من الكولونيل، أو تاكومي، أو لارا، أو لونغويل، أو أيّ حدٍ آخر في هذا النادي الرياضي. من البداية إلى النهاية، كان المقلب من تحضير ألاسكا وحدها. لقد قالت لي ذات مرّة، إن الجزء الأصعب في تدبير المقالب، هو عدم القدرة على الاعتراف بها. أما اليوم فكنتُ قادرًا على الاعتراف نيابةً عنها. وبينما كنت أشقُّ طريقي ببطء خارج النادي الرياضي، كنت أقول لكلّ من يسأل، «لا لم يكن مقلبنا، كان مقلب ألاسكا، والفضل كلّه يعود لها وحدها».

عدنا نحن الأربعة إلى الغرفة رقم 43، مكلّلين بالنجاح، وواثقين من أن كالڤر كريك لن تشهد قط مقلبًا كهذا. لم يخطر لي حتى، أنني قد

أتعرّض للمتاعب، إلى أن فتح النسر باب غرفتنا، ومن ثمّ انحنى فوقنا، وراح يهزُّ رأسه بازدراء.

قال النسر لنا: «أعرف أنكم جميعًا خلف ذلك».

نظرنا إليه وبقينا صامتين. لقد عُرِفَ عنه بأنه يُغَلِّبُ الخداع. ربما كان يخدعنا.

قال: «لا تفعلوا شيئًا كهذا ثانيةً، ولكن يا إلهي، «إسقاط النموذج الذكوريّ» - كما لو أنها هي التي كتبت الخطاب». ابتسم وأغلق الباب خلفه.

بعد مئة وأربعة عشر يومًا

بعد مرور أسبوع ونصف، كنت عائدًا من دروس بعد الظهر، والشمس ترميني بوابل لا ينقطع من أشعتها، لتذكّرني بأنّ الربيع قد جاء لبضع ساعات فقط إلى ألاباما ورحل، وأن اليوم، أوائل شهر أيار، قد عاد الصيف في زيارةٍ تدوم ستة أشهر. شعرتُ بالعرق يتصبّب من ظهري وتحسّرتُ على رياح كانون الثاني الباردة. عندما وصلت إلى غرفتي، وجدت تاكومي جالسًا على الكنبة يقرأ سيرة تولستوي الذاتية.

قلت: «مرحبًا».

أغلق الكتاب ووضعه جانبًا، ومن ثمّ قال: «العاشر من كانون الثاني».

سألتُه: «ماذا؟».

- العاشر من كانون الثاني/ يناير. ألا يذكّرك هذا التاريخ بشيء؟

«نعم، هو يوم وفاة ألاسكا. تقنيًا، ماتت بعد ثلاث ساعات من بدء الحادي عشر من كانون الثاني، مع ذلك، بالنسبة إلينا، تبقى ليلة الاثنين، أي العاشر من كانون الثاني، تاريخ وفاتها».

- صحيح، ولكن ثمّة شيء آخر يا بدين. في التاسع من كانون الثاني، ذهبَت ألاسكا مع والدتها إلى حديقة الحيوانات.

- مهلًا. كيف عرفت ذلك؟

- هي التي قالت لنا ذلك عندما قضينا الليل في الإسطبل. ألا تذكُر؟

بالطبع لا، لم أكن أذكُر. لو أنني كنت أستطيع حفظ الأرقام، لما كانت علامتي C- في مادة المثلثات.

قلتُ: «اللعنة»، لحظة دخل الكولونيل إلى الغرفة.

سأل الكولونيل: «ماذا؟».

قلتُ: «التاسع من كانون الثاني 1997، أحبّت ألاسكا الدببة، وأحبّت والدتها القرود». نظر الكولونيل إليّ مشدوهًا، وبحركةٍ واحدة نزع حقيبة ظهره ورماها عبر الغرفة.

قال: «اللعنة. لماذا لم أفكّر في ذلك بحق الجحيم!

بدقيقةٍ واحدة، توصّل الكولونيل إلى أفضل نتيجة، لم يكن ليتوصّل إليها أيًّا منّا. وقال: «حسنًا، بينما تنام، يتصل جايك، فتتكلّم معه وتُخربش، ومن ثمّ تنظر إلى زهرتها البيضاء، فتقول في نفسها، «يا إلهي، كانت والدتي تحب الزهور البيضاء وتزيّن شعري بها عندما كنتُ طفلةً صغيرة»، عندئذٍ تشعر بالذعر. تعود إلى غرفتها وتبدأ بالصراخ قائلةً إنها نسيَت شيئًا ما، بالطبع، نسيَت والدتها، فتأخذ الزهور، وتغادر الحرَم، ولكن إلى أين؟» سأل الكولونيل وهو ينظر إليّ. «إلى أين؟ إلى قبر والدتها؟».

قلتُ، «نعم، هذا ممكن. لذلك تركبُ سيارتها، وكلُّ ما تريده، هو أن تزور قبر والدتها، ولكن هنالك تلك الشاحنة التي تعترض الطريق، وسيارة الشرطة. وبما أنها ثملة وغاضبة ومستعجلة، تظنُّ أنها تستطيع المرور بين الشاحنة وسيارة الشرطة. أفكارها مشوّشة، وهي لا تفكر إلا

في الذهاب لرؤية والدتها، وتعتقد أنها تستطيع المرور بطريقة أو بأخرى. لكنها لم تستطع».

هزّ تاكومي رأسه ببطء، وأخذ يفكّر، ومن ثمّ قال: «أم أنها تأخذ الزهور وتركب سيارتها. لكنّها فوّتَت ذكرى وفاة والدتها. تعتقدُ أنها أخطأت ثانيةً بحق والدتها. فأوّلًا، لم تتصل بالإسعاف، وثانيًا لا تستطيع حتى أن تتذكّر يوم وفاتها. تشعر بالغضب وتحقد على نفسها، فتقرّر، «سأفعلها»، وترى في سيارة الشرطة فرصتها، فتقول في نفسها، الآن أو أبدًا، وتضغط بكل قوتها على دواسة الوقود».

أدخل الكولونيل يده في جيبه وأخرج علبة سجائر، ومن ثمّ قلَبها رأسًا على عقب، وراح يدقّها على منضدة القهوة. وقال: «حسنًا، الآن، اتّضحَت الأمور بشكل جيد».

بعد مئة وثمانية عشر يومًا

إذًا، فقد استسلمنا. كنتُ قد ضقت ذرعًا بملاحقة شبحٍ يرفض أن يُكتشَف. لقد فشلنا، ربما، فبعض الألغاز لم تُخلق لتُحَلّ. لم أتعرّف إليها الذي كنتُ أرغب فيه، لكنني لم أستطع. لقد تدبّرَت أمرها بحيث يستحيل عليّ ذلك. و«الحانتحار»، و«الانتحادث»، لن يكونا أيّ شيء آخر غير الذي كانا. ولكن بقي سؤال واحد، هل ساعدتُكِ على تحقيق قدَرٍ لم تريديه يا ألاسكا، أم أنني فقط ساعدتُكِ على تحقيق رغبتك في تدمير نفسك؟ إنهما جريمتان مختلفتان، ولم أكن أعرف إن كان ينبغي لي أن أغضب منها لأنها جعلت مني شريكًا في انتحارها، أم ينبغي لي أن أغضب من نفسي لأنني تركتها تذهب.

لكننا عرفنا ما كان قابلًا للاكتشاف، وبذلك، قرّبَتنا من بعضنا البعض، أنا والكولونيل وتاكومي. نقطة على السطر. لم تترك لي ما يكفي لكي أكتشفها، لكنها تركت ما يكفي لكي أُعيد اكتشاف الـ«ربما» العظيمة.

قال الكولونيل: «ثمّة شيء آخر ينبغي أن نفعله»، وكنا وحدنا نلعب على البلاي ستيشن، كما في أيام التحرّيات الأولى.

- لا شيء آخر يمكننا فعله.

- أريد أن أقود وأمُرّ من المكان نفسه كما فعلَت.

لم نكن نستطيع أن نخاطر بالخروج من الحرَم في عزِّ الليل كما فعلَت، فذهبنا بسيارة تاكومي ذات الدفع الرباعي قبل اثنتي عشرة ساعة، أي في الساعة الثالثة بعد الظهر. كان الكولونيل خلف المقوَد. طلبنا من لارا وتاكومي مرافقتنا، لكنهما كانا قد تعبا من مطاردة الأشباح. إضافة إلى أنّ الامتحانات النهائية اقتربت.

كان يومًا مشرقًا، والشمس تحرق أسفلت الطريق التي راحت تتماوج أمامنا من شدة الحرارة. قطعنا مسافة كيلومتر ونصف على الطريق 119 السريعة، ومن ثمّ انحرفنا شمالًا على الطريق 65 الدولية، باتجاه مكان الحادث وبلدة ڤاين ستيشن.

كان الكولونيل يقود بسرعة وكنّا صامتَين ننظر أمامنا، ومن ثمّ رحتُ أتخيّل بمَ كانت تفكّر محاولًا مرّةً أخرى اختراق الزمان والمكان، والدخول إلى رأسها ولو للحظةٍ واحدة. التقينا سيارة إسعاف كانت تطلق العنان لصفّاراتها وتضيء منارتها، ومن ثمّ تجاوزَتنا مسرعةً نحو كالڤر كريك في الاتجاه المعاكس. للحظة، انتابني شعور محموم بالقلق، وقلتُ في نفسي،

قد يكون شخصًا أعرفه. كنت أتمنّى لو كان شخصًا أعرفه، بحيث أعطي للحزن الذي ما زال يجتاحني شكلًا وعمقًا آخرين.

كسرتُ الصمت قائلًا:

- في بعض الأحيان يعجبني ذلك، يعجبني أنها ماتت.

- تشعر أنك بخير؟ أهذا ما تقصده؟

- لا. لستُ أدري. أشعر بالنقاء.

قال: «نعم» مستغنيًا عن فصاحته المعتادة. «نعم، أعرف. أنا أيضًا. هذا طبيعي. أقصد، ينبغي أن يكون طبيعيًا».

كنتُ دومًا أشعر بالصدمة عندما أدرك أنني لست الشخص الوحيد الذي يفكّر ويشعر بأشياء فظيعة كهذه.

على مسافة ثمانية كيلومترات من الحرَم المدرسيّ، انحرف الكولونيل ومن ثمّ أخذ خط اليسار وبدأ يُسرع. كززت على أسناني، وكانت تلمع أمامنا قطع زجاج محطّم، فبدَت الطريق كأنها تتقلّد الحلي والجواهر. لا بدّ من أن هذا المكان هو المكان، وكان الكولونيل ما يزال يُسرع أكثر فأكثر.

قلتُ في نفسي: قد لا تكون طريقة سيئة في الرحيل.

قلتُ في نفسي: فوراً وسريعًا. ربما لم تقرّر حتى اللحظة الأخيرة.

ومن ثمّ تجاوزْنا لحظة موتها. تجاوزنا المكان الذي لم تستطع المرور من خلاله، وعلى الأسفلت الذي لم تره قط، وكنّا أحياء. لم نمت! كنا نتنفّس، وكنّا نبكي، والآن كنّا نبطئ ونعود إلى خطّ اليمين.

تركنا الطريق الدولية وأخذنا المخرج التالي، من دون أن يتفوّه أحدنا

بكلمة واحدة، ومن ثمّ ترجّلنا لنتناوب على القيادة، فالتقينا أمام السيارة، وعانقتُه. تكوّرَت قبضتاي ومن ثمّ تقلّصتا والتفّتا حول كتفيه، في حين لفّ خصري بذراعيه القصيرتين بكل ما أوتي من قوّة. شعرتُ بصدره يعلو يهبط، ونحن نتحقّق مرارًا من أننا ما نزال على قيد الحياة. بقي كلانا في حضن الآخر وكنّا نبكي، ومن ثمّ قلت في نفسي، يا إلهي كم نحن ضعفاء، لكنّ ذلك يفقد أهميّته عندما تدرك للتوّ أنك ما زلت حيًّا.

بعد مئة وتسعة عشر يومًا

بعد أن استسلمنا، تفرّغنا للدراسة. كنّا نعلم جيدًا أنّ تحقيق الأهداف التي وضعناها نصب أعيننا مرهونٌ بنجاحنا في الامتحانات النهائية. (كان الهدف الذي وضعته لنفسي، الحصول على معدل عام 3,0، بينما لم يرضَ الكولونيل لنفسه بهدف أقلّ من 3,98 من 5. كانت غرفتنا قد تحوّلَت إلى مقر دراسيٍّ لنا نحن الأربعة، وكان تاكومي ولارا يناقشان حتى ساعة متأخرة من الليل، مواضيع مختلفة مثل، الضجيج والغضب، والانقسام الاختزالي في علم الأحياء، ومعركة الأردين. درّسَنا الكولونيل ما يعادل فصلًا كاملًا من مادة المثلثات، لكنّه كان قويًّا جدًا في الرياضيات، ربما أكثر مما يلزم ليكون أستاذًا جيدًا. كأن يقول مثلًا: «بالطبع، هذا منطقي. صدّقني. اللعنة، ليست مسألةً صعبةً إلى هذا الحد». ربّاه، كم كنتُ أفتقد ألاسكا ودروسها.

عندما لم أكن أملك الوقت الكافي للمطالعة، كنتُ أغشّ، وأتقاسم مع تاكومي نسخًا مكثّفة ومشروحة لروايتيّ الأشياء تتداعى ووداعًا أيها السلاح (صاح تاكومي في لحظةٍ ما: «هذه الأشياء اللعينة طويلة جدًا!»).

لم نكن نتكلّم كثيرًا. لكننا لم نكن نحتاج إلى ذلك.

بعد مئة واثنين وعشرين يومًا

كان النسيم البارد قد صدّ هجمة الصيف الشرسة، وفي صباح اليوم الذي وزّع فيه الرجل العجوز موضوع الامتحان النهائي، اقترح إعطاء الدرس في الخارج. تساءلت لماذا ينتقل الصف بأكمله إلى الخارج من دون أن يتسبّب ذلك بأي مشكلة، وأُطرَدُ أنا من الصف، الفصل الفائت، فقط لأنني بالكاد ألقيت نظرةً على الخارج. لكنّ العجوز أراد إعطاء درسه في الخارج، وهكذا كان. جلس الدكتور هايد، على الكرسي الذي جلبَه له كيڤن ريتشمان، وجلسنا على العشب. في البداية، كنت أضع دفتري على ركبتي محاولًا الحفاظ على توازنه، فوضعتُه على العشب الأخضر السميك، لكنّ الأرض الملتوية لم تكن تهَب نفسها للكتابة، وكانت أسراب البعوض تحوِّم. كنّا قريبين جدًا من البحيرة، أكثر مما ينبغي لكي تكون جلستنا مريحة، لكن العجوز بدا سعيدًا.

قال: «بين يديّ موضوع امتحانكم النهائي. أعطيتكم الفصل الماضي، مهلة شهرين لكتابته وإعادته لي. هذه المرة، معكم أسبوعان فقط»، وتوقّفت قليلًا ومن ثمّ تابع: «أخشى عدم وجود شيء يمكن فعله حيال ذلك». ومن ثمّ قال ضاحكًا. «للأمانة، لم أقرّر موضوعه نهائيًا حتى ليلة أمس. هذا يتناقض مع طبيعتي. على كل حال، وزِّعوا النسخ». عندما وصلَت الرزمة إليّ، قرأتُ السؤال:

> كيف ستخرجون - أنتم شخصيًا - من متاهة العذاب هذه؟ الآن وقد تصارعتم مع ثلاثة من التقاليد الدينية الرئيسية، ضعوا عقلكم المستنير حديثًا في خدمة سؤال ألاسكا.

بعد أن وُزّع موضوع الامتحان على الجميع، قال الرجل العجوز، «لا حاجة إلى مناقشة الرؤى المختلفة التي تتبنّاها الأديان الثلاثة في مقالتكم، لذلك لا ضرورة للقيام بأي بحث. لقد قيّمتُ ما تعرفون وما تجهلون، بفضل الاختبارات التي خضعتم لها إبّان هذا الفصل. إنّ ما يهمّني معرفته، هو كيف ستتمكّنون من خلق الانسجام بين حقيقة العذاب التي لا تقبل الجدل، وفهمكم للعالم، وكيف تأملون في خوض غمار الحياة على الرغم من ذلك.

وأكمل كلامه: «في خلال العام المقبل، إن سمحت لي رئتاي، سندرس الطاويّة والهندوسية واليهودية». قاطعَته نوبةُ سعالٍ راح يضحك بعدها، فاشتدّت. «ربّاه، قد لا أصمد طويلًا. ولكن بخصوص الأديان الثلاثة التي درسناها هذا العام، أريد أن أُضيف شيئًا. الإسلام والمسيحية والبوذية، لكلٍّ من هذه الأديان شخصية مؤسِّسة؛ محمد، يسوع، وبوذا. يقودني التفكير في هؤلاء المؤسّسين إلى الاعتقاد بأنّ كلًّا منهم جاء برسالة أملٍ جذرية. إلى الجزيرة العربية في القرن السابع، جاء محمد برسالة تعِدُ كل مخلوق بتحقيق الذات والحياة الأبدية في عبادة إله واحد أحد. وبوذا عقد الأمل على قابلية تجاوز العذاب. ويسوع جاء برسالة تقول إنّ الآخِرين هم الأوّلون، وأنّ جامعي الضرائب والمجذومين والمنبوذين لديهم أسباب للأمل. إذًا، فالسؤال الذي أترك لكم الإجابة عنه في هذا الامتحان النهائي: ما هي أسبابكم للأمل؟».

عدتُ إلى الغرفة رقم 43، فوجدت الكولونيل يدخّن. على الرغم من أنه لم يتبقّ من عقوبتي إلّا أمسية واحدة في غسل صحون الكافتيريا، لم نكن نخشى النسر كثيرًا. لم يكن قد تبقّى من السنة الدراسية سوى

خمسة عشر يومًا، وحتى لو ضُبطنا بتهمة التدخين، لم يكن علينا سوى أن نبدأ السنة الأخيرة مع بعض ساعات في العمل. فسألته:

- إذًا، كيف سنخرج من هذه المتاهة، كولونيل؟

- ليتني كنتُ أعلم.

- قد لا يضمن لك هذا الجواب العلامة الكاملة.

- كما أنه لا يفعل الكثير من أجل سلام روحي.

- أو روحها.

- صحيح. لقد نسيتُها.

قال ذلك وهو يهزُّ برأسه.

لا أنفكُّ أنساها.

- على كل حال، يجب أن تكتب شيئًا ما.

- بعد مرور كل هذا الوقت، ما زلتُ أرى أنّ فورًا وسريعًا، هو المخرج الوحيد، لكنني أختار البقاء في المتاهة. المتاهة تعني العذاب، لكنّه خياري أنا.

بعد مئة وستة وثلاثين يومًا

مرّ أسبوعان ولم يبق على نهاية الفصل سوى أربع وعشرين ساعة، لكنّني لم أكن بعد قد أنهيتُ كتابة مقالة الامتحان النهائي التي طلبها العجوز. كنت عائدًا من امتحاني الأخير الذي خضتُ فيه معركةً حاميةً ضدّ مادة المثلثات، لكنني انتصرت في نهاية المطاف، مع أمل الحصول على علامة جيّدة، التي كنت أهدف إليها. عاد الحرّ وأصبح الطقس دافئًا مثلما كانت هي. وشعرت بالراحة. غدًا، كانت حفلة التخرج، وسيأتي والداي

لحضورها. بعد ذلك سنجمع حقائبي وأشيائي، ونعود إلى فلوريدا. كان الكولونيل يتحضّر لقضاء الصيف مع والدته في مراقبة نباتات الفاصولياء وهي تنمو، لكنّني كنتُ أستطيع الاتصال به والتحدث معه. أما تاكومي فقد كان على عادته، يقضي عطلة الصيف في اليابان، ولارا تتهيّأ للعودة إلى البيت في سيارة ليموزين خضراء. كنتُ أفكّر في ألاسكا، وأقول في نفسي، لعلّه من الأفضل ألّا أعرف أين كانت الآن، وإلى أين كانت ذاهبة تلك الليلة، عندما فتحتُ الباب، ووجدتُ ورقةً مطويّةً على الأرضية البلاستيكية. كانت ورقةً خضراء كتلك التي تُستعمل لكتابة الرسائل، كُتب في أعلاها بخط اليد:

من مكتب... تاكومي هيكوهيتو

إلى البدين والكولونيل:

آسف لعدم التحدث معكما قبل الآن. لن أبقى لحضور حفل التخرج. سأرجع غدًا صباحًا إلى اليابان. لقد حقدتُ عليكما لفترة طويلة، وجرحني كثيرًا استبعادكما لي عن كل شيء، لذلك احتفظت بما كنت أعرفه لنفسي. ولكن، حتى بعد أن هدأ غضبي منكما، لم أقل شيئًا، ولا أعرف حقًّا لماذا لم أفعل. أظنّ أن البدين حصل على تلك القبلة. وحصلتُ أنا على هذا السر.

لقد اكتشفتما تقريبًا كلّ شيء، لكن الحقيقة، هي أنني رأيتُها في تلك الليلة. كنتُ أسهر مع لارا وآخرين حتى ساعة متأخرة من الليل، بعد ذلك، بدأت أغفو عندما سمعتُها تبكي في الخارج، بالقرب من نافذتي الخلفية. كان ذلك حوالى الساعة 3:15 صباحًا. خرجتُ فرأيتها تعبر ملعب كرة القدم. حاولت التحدث

معها، لكنها كانت مستعجلة. قالت لي إن والدتها توفيت قبل ثماني سنوات، في مثل ذلك اليوم، وفي هذه المناسبة من كلّ سنة، تزور قبرها وتضع عليه الزهور، لكنها نسيت هذه المرة. كانت تبحث عن زهور، لكنّ الفصل كان شتاء. هكذا عرفتُ ما كان يعنيه العاشر من كانون الثاني، بالنسبة إليها. لكنني ما زلتُ أجهل إن كان موتها انتحارًا.

كانت حزينة جدًا، ولم أكن أدري ماذا يمكنني أن أقول أو أفعل. أعتقد أنها كانت ترى فيّ الشخص الذي يقول أو يفعل ما يجب لمساعدتها، لكنني لم أستطع. كنت أظنّ أنها تبحث عن زهور وحسب. لم أكن أعرف أنها تنوي الذهاب. كانت ثملة جدًا، ولم أكن أعتقد حقًا أنها ستركب سيارتها أو أي شيء من هذا القبيل. كنت أعتقد أنها ستبكي حتى يغلبها النعاس، وفي اليوم التالي ستذهب لزيارة قبر والدتها. ومن ثمّ ابتعدَت، وبعد قليل، سمعتُ صوت محرك سيارة. لا أعرف في ماذا كنتُ أفكر تلك اللحظة.

أنا أيضًا، تركتُها تذهب. وأشعر بالندم. أعرف أنكما كنتما تحبّانها. كان من الصعب ألّا تفعلا.

تاكومي

خرجت من الغرفة ورحتُ أركض عبر دائرة المباني السكنية كما لو أنني لم أدخّن سيجارة واحدة في حياتي، وكما ركضتُ مع تاكومي ليلة الإسطبل، لكنّني عندما وصلتُ إلى غرفته، كان تاكومي قد رحل. لم يكن على سريره سوى الڤينيل العاري، وكان مكتبه فارغًا إلّا من الأثر الذي تركه

جهاز الستيريو على الغبار. كان قد رحل، ولم يتسنّ لي الوقت لكي أخبره بما أدركت للتو. كنت أريد أن أقول له إنني سامحته، وأن ألاسكا سامحتنا، وأنه ينبغي أن نسامح بعضنا لكي ننجو بأنفسنا في هذه المتاهة. كثُر هم أولئك الذين ينبغي لهم أن يعيشوا مع أشياء فعلوها أو لم يفعلوها ذلك اليوم، ونحن منهم. أفعال لم تكن صائبة، لكنّها بدت مقبولة في حينها لأننا كنا نجهل ما يخبّئه المستقبل لنا. ليتنا فقط كنا نستطيع رؤية السلسلة اللانهائية من العواقب التي تنتج عن أفعالنا، مهما كانت صغيرة. لكننا لا نستطيع أن نعرف ما هو الأفضل حتى يصبح هذا الأفضل لا فائدة من معرفته.

عدتُ لأعطي الكولونيل رسالة تاكومي، وفي طريقي إلى الغرفة، أدركتُ أنني لم أعرفها بما يكفي لكي أعرف الأفكار التي كانت تدور في رأسها في خلال تلك الدقائق الأخيرة. ولن أعرف أبدًا إن كانت قد تركتنا عمدًا. لكنّ عدم المعرفة لن يمنعني عن حبّها. سأحبّها إلى الأبد. ألاسكا يونغ، جارتي العوجاء، من كلّ قلبي الأعوج.

عدتُ إلى الغرفة رقم 43، لكنني لم أجد الكولونيل، فتركت الرسالة على السرير العُلوي، ومن ثمّ جلستُ أمام جهاز الكمبيوتر، وكتبتُ ما كنتُ أعتقد أنه أفضل طريقة للخروج من المتاهة:

> قبل أن آتي إلى كالفر كريك، كنتُ لفترة طويلة، أعتقد أن أفضل طريقة للخروج من المتاهة، هي إنكار وجودها، وبناء عالم صغير مستقل في أحد أركانها القصية، ومن ثمّ الادعاء بأنني لست تائهًا، بل في البيت. لكن ذلك أدّى إلى حياةٍ من العزلة، لا صحبة فيها، سوى الكلمات الأخيرة لأشخاص ما عادوا على قيد الحياة. إذًا، فقد جئت ساعيًا خلف ربما عظيمة، وإيجاد

أصدقاء حقيقيين وحياة أكثر قليلًا من مصغّرة. لكنني بعد ذلك، فشلت، وفشل الكولونيل، وفشل تاكومي، وانزلقت هي من بين أصابعنا، وتلاشت. لا حاجة إلى تجميل الأشياء: كانت تستحقّ أصدقاء أفضل منّا.

عندما أخطأَت، منذ عدّة سنين، لم تكن سوى طفلة صغيرة شلّها الخوف، فانهارت وغرقت في لغزها الذاتي. كان بوسعي أن أحذو حذوها، لكنني رأيت المآل الذي آلت إليه. لذلك، ما زلت أؤمن بالـ«ربما» العظيمة، بل وأؤمن بها على الرغم من خسارة ألاسكا.

لأنني سأنساها، نعم. فكلّ ما تجمّع معًا سينهار ويتبدّد ببطء من غير أن نلحظ انهياره وتبدُّده، وسأنسى، لكنها ستسامح هذا النسيان، كما سامحتُها عندما نسيتني، ونسيت الكولونيل، ونسيت الجميع إلّا نفسها ووالدتها في تلك الدقائق الأخيرة التي عاشتها كشخص. أعرف الآن أنها ستسامحني لأني كنتُ غبيًا وخائفًا، وتصرّفتُ على هذا الأساس. أعرف أنها ستسامحني، كما سامحَتها والدتُها. وفيما يلي أشرح كيف توصلتُ إلى هذا اليقين:

في البداية، اعتقدتُ أنّها، وبكلّ بساطة، ماتت. مجرّد ظلام. مجرّد جسد تأكله الديدان. لطالما فكّرت فيها على هذا النحو، كما لو كانت غذاءً لشيءٍ ما. إنّ ما كان ألاسكا، عيناها الخضراوان، ابتسامتها الصغيرة، انحناءات ساقيها الرقيقة، سيتلاشى قريبًا، ولن يبقى غير عظامٍ لم أرها قط. فكّرتُ في عمليّة تحوّلها البطيئة إلى عظام، ومن ثمّ إلى مستحاثة، ومن ثمّ إلى فحم،

وبعد ملايين السنين، سيستخرجها البشر، ويدفِّئون منازلهم بها، وستتصاعد دخانًا يملأ الجو. ما زلتُ أعتقدُ ذلك في بعض الأحيان، فأقول في نفسي، قد لا تكون «الآخرة» غير شيءٍ اخترعناه لنخفّف ألم الخسارة، ولنجعل حياتنا في المتاهة قابلةً للتحمُّل. ربما كانت مجرّد مادّة، والمادّة يُعاد تدويرها.

ولكن في نهاية المطاف، لا أصدّق أنها كانت مجرّد مادّة. يجب أن يُعاد تدوير ما بقي منها أيضًا. أعتقد الآن أننا أعظم من مجموع أجزائنا. فإذا أخذتم شيفرة ألاسكا الوراثية، وأضفتم إليها تجاربها الحياتية وعلاقاتها الشخصية، وطولها وشكل جسدها، فإنكم لن تحصلوا على ألاسكا. بل على شيء آخر مختلف كلّيًّا. ثمّة جزءٌ فيها أعظم من مجموع أجزائها القابلة للمعرفة. ويجب أن يذهب هذا الجزء إلى مكانٍ ما، وهذا الجزء لا يمكن تدميره.

على الرغم من أن أحدًا لا يستطيع اتهامي بأنني طالب مولع بالعلوم، فقد علّمَتني الدروس العلميّة أن الطاقة لا تُخلَق ولا تُدمّر أبدًا. وإذا كانت ألاسكا قد وضعَت حدًّا لحياتها، فهذا هو الأمل الذي أودّ أن أعطيها إياه. إن نسيان ذكرى وفاة والدتها، وتخييب آمالها، وآمال أصدقائها، وآمالها الشخصية، أشياءٌ فظيعة، لكنها لم تكن مضطرة إلى الانطواء على نفسها واللجوء إلى تدمير ذاتها. تلك أشياء فظيعة لكننا نستطيع العيش معها، لأننا جبابرة بقدر ما نرى أنفسنا كذلك. عندما يقول الكبار، وعلى سحناتهم تلك الابتسامة السخيفة، «يعتقد المراهقون أنهم لا يقهرون»، فإنهم يجهلون كم هم على حق. لا طائل من فقدان الأمل، ما دام من المستحيل أن نُكسَر على نحوٍ لا رجعة

فيه. نعتقد أننا لا نُقهر لأننا كذلك فعلًا. لا يُمكننا أن نولد، ولا يمكننا أن نموت. ومثل كل طاقة، يمكننا فقط أن نغير أشكالنا وأحجامنا ومظهرنا. عندما يتقدّم الكبار في السنّ ينسون ذلك. يستحوذ عليهم الخوف من الفشل والخيبة. لكنّ هذا الجزء فينا، الذي هو أعظم من مجموع أجزائنا، ليس له بداية ولا نهاية، وبالتالي لا يمكنه أن يخيب.

لذلك أعرف أنها تسامحني، كما أسامحها. كانت كلمات توماس إديسون الأخيرة: «المكان هناك جميل جدًا». لا أعرف أين يقع ذلك المكان، لكنني أعتقد أنه موجود، وآمل في أن يكون جميلًا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بعض الكلمات الأخيرة حول الكلمات الأخيرة

في السنوات التي تلت نشر رواية «بحثاً عن ألاسكا» تعلّمت الكثير من الكلمات الأخيرة. القراء في بعض الأحيان، يشاركني القراء آخر كلمات أفراد أسرهم أو أصدقائهم. قال جدٌّ لحفيده: «هنالك إبريق من القهوة»، بينما كان يموت من نوبة قلبية رهيبة. وغالبا ما أسمع كلمات أخيرة جديدة قالتها شخصيات بارزة - ستيف جوبز، على سبيل المثال، قال: «أوه واو، أوه واو، أوه واو».

بدأ اهتمامي بالكلمات الأخيرة مذ كنتُ طفلًا، عندما حفظت عن ظهر قلب كلمات جون أدامز، وتوماس جفرسون الأخيرة، الرئيسين الثاني والثالث للولايات المتحدة على التوالي. عندما اقتربت نهايته، ذهب ذهن أدامز إلى خصمه السياسي القديم. قال «ما يزال جفرسون على قيد الحياة». ولكن في الحقيقة، مات جفرسون قبل ساعات قليلة من اليوم نفسه، الرابع من تموز 1826، وهو تاريخ الذكرى السنوية الخمسين لتوقيع إعلان الاستقلال الأميركي. كانت كلمات جفرسون الأخيرة، «أهو الرابع من هذا الشهر؟».

لا تظهر العديد من كلماتي الأخيرة المفضلة في الرواية. قالت إميلي ديكنسون: «يجب أن أدخل؛ الضباب آخذ في الارتفاع». قال الكاتب أو. هنري: «أشعلوا الأضواء. لا أريد العودة إلى المنزل في الظلام» وقال الاقتصادي جون ماينارد كينيز: «أتمنى لو أنني شربت مزيدًا من الشمبانيا». أما كافكا، فقد قال متوسّلًا جرعة زائدة من المورفين: «اقتلني، وإلّا فأنت قاتل». وأوسكار وايلد، الذي كان على فراش الموت في غرفة

فندق بديكور مبتذل، فقال جملته الشهيرة، «إما ورق الجدران هذا، أو أنا، أحدنا يجب أن يرحل». ولكن الآن، كان لا بدّ لي من أن أرويها لكم. وإن كنتم تشعرون بالفضول لمعرفة المزيد من الكلمات الأخيرة، فأوصي بكتاب وليم برامز، الكلمات الأخيرة للمشاهير من الأشخاص.

لا يمكن الوثوق بصحّة الكلمات الأخيرة. فالشهود عاطفيون؛ وتختلط الأمور مع الوقت؛ والقائل لم يعد موجودًا ليزيح الغموض. (في بعض الحالات، نعرف أن القصص ليست صحيحة: فعلى سبيل المثال، قيلت كلمات أوسكار وايلد «الأخيرة» على الأرجح، قبل وفاته بأشهر عدّة).

ليست «كيف أخرج من هذه المتاهة» كلمات غابرييل غارسيا ماركيز الأخيرة (على الرغم من أنه قالها). فكلماته الأخيرة التي سُجّلَت: «خوسيه، أحضِرْ الأمتعة. إنهم لا يريدوننا هنا». ويُنسب لفرانسوا رابليه، ما لا يقلُّ عن أربعة تصريحات سبقَت وفاته. بالإضافة إلى السعي خلف ربما عظيمة، من المحتمل أنّ رابليه قال أيضًا:

1) «ألمع حذائي للرحلة الأخيرة»، بعد أن تلقّى الطقوس الدينية الأخيرة.

2) «أسدلوا الستار، لقد انتهت المهزلة».

3) «طوبى للأموات الذين يموتون في الربّ». Beati qui in Domino moiuntur (من المفترض أنه قال هذه الكلمات وهو يسحب عباءة على نفسه، وهي مزحة، ولكن لأنها مزحة لاتينية، نادرًا ما يجري اقتباسها خارج النصوص اللاتينية).

لطالما سُئلت ما هي الكلمات الأخيرة التي أرغب في قولها. كنتُ لسنوات عدّة أعتقد أن أسوأ كلمات أخيرة ممكنة، هي «أحبُّك». إنها

كلمات مبتذلة، لا تستحق الذِّكر، وغير ممتعة. إذا كان لا بدّ من التعبير عن العاطفة، كنتُ أجد أنّ أفضل ما قيل في ذلك، هو كلمات وليم كلود فيلدز الأخيرة: «لعنة اللَّه على العالم كلِّه، وعلى كلِّ شيء فيه، إلّا أنتِ، كارلوتا». (هذه كلمات أخيرة مثيرة للاهتمام، خصوصًا عندما نعلم أن زوجة فيلدز كانت تدعى هاتي. وكارلوتا هو اسم عشيقته). لكن في الحقيقة، لا آمل في أن تكون كلماتي الأخيرة ذكيةً أو لا تنسى، على الرغم من أنني آمل في تلافي مصير الكاتب پول كلودل، كلماته الأخيرة: «دكتور، هل تعتقد أنه بسبب النقانق؟» قد تكون كليشيه، ولا يمكن تذكرها، لكنني في الحقيقة، سأكون ممتنًّا للغاية، إذا كانت كلماتي الأخيرة تعبيرًا عن مدى حبّي لأولئك الذين شاركتهم هذا الوميض الوجيز والرائع، الذي يُدعى الحياة.

شكر وتقدير

باستخدامي لأحرف الطباعة الصغيرة هذه، التي لا تعكس حجم دَيْني، ينبغي لي تقديم شكري وتقديري تجاه بعض الأمور: وهي:

أوّلًا، لما أبصر هذا الكتاب النور، لولا فضل صديقتي، وناشرتي، وشبه وكيلتي، ومرشدتي، آيلين كوپر. التي تخالها ساحرة طيبة، لكنّها حقيقية، وأكثر أناقة.

ثانيًا، أنني محظوظ جدًا لأنني حظيت بشرف التعرّف إلى جولي شتراوس غابيل، رئيسة التحرير في دار دوتون للنشر، ومحظوظ أكثر لأنني أصبحت صديقها. جولي، هي الناشرة التي يحلم بها كلّ كاتب: عطوف، شغوف، ورائعة بلا منازع. ها هنا، شكري لها، الشيء الوحيد الذي لم تدقّقه أو تعدّله في هذا الكتاب بأكمله، وأعتقد أن بإمكاننا أن نتّفق على أن النتيجة قد عانت بسبب ذلك.

ثالثًا، أنّ دونا بروكس آمنت بهذه القصة منذ البداية، وفعلت الكثير لإخراجها بالشكل الذي هي عليه. وأنني أيضًا مدين لمارغريت ووليت من دار دوتون للنشر - التي يحتوي اسمها على عدد كبير جدًا من حروف العلّة - لكنها شخص نُخبوي، ولسارة شومواي الموهوبة التي كانت قراءتها المتأنية، وتعليقاتها الذكية نعمةً لي وبرَكة.

رابعًا، أنّني ممتن جدًا لوكيلتي، روزماري ساندبرغ، التي لا تعرف الكلل في الدفاع عن مؤلفيها. ولأنها بريطانية أيضًا. فهي تقول «بصحتك» عندما تريد القول «إلى اللقاء». ما أعظم ذلك؟

خامسًا، أنّ تعليقات صديقيّ المفضّلين في العالم بأسره، دين سيماكيس، وويل هيكمان، كانت جوهرية لكتابة ومراجعة هذه القصة، وأنا، كما تعلمون، أحبهما.

سادسًا، أنّني مدين، من بين آخرين كثُر، لشانون جيمس (زميلتي في الغرفة) وكاتي إلس (وعدت)، وحسن الروّاس (صديق)، وبراكستون غودريتش (قريب)، ومايك غودريتش (محام، وقريب أيضًا)، ودانيال بيس (عالم رياضيات محترف)، وجوردانا سيغنيري (صديقة)، وجيني لاوتون (قصة طويلة)، وديفيد روخاس، ومولي هاموند (صديقان)، وبيل أوت (القدوة)، وآمي كروس روزنتال (استقبلتني في الإذاعة)، وستيفاني زفيرين (أعطتني أوّل وظيفة حقيقية)، وب. ف. كلوج (مدرّس)، وديان مارتن (مدرّسة)، وبيري لينتز (مدرّس)، ودون روغان(مدرّس)، وپول ماك آدم (مدرّس - أنا من كبار المعجبين بالمدرّسين)، وبن سيجيدين (رئيس وصديق)، والجميلة سارة أوريست.

سابعًا، أنني التحقت بالمدرسة الثانوية مع مجموعة رائعة من الأشخاص. أود أن أشكر بشكل خاص تود كارتي، الذي لا يُقهر، وكذلك أولغا تشارني، وشون تيتوني، وإيميت كلاود، ودانيال ألاركون، وجينيفر جينكينز، وتشيپ دانكن، و إم إس إل.

ألاسكا، بعد مرور عشر سنوات: دراسة أدبية بأثر رجعي

بقلم مايكل كارت

مع نشر رائعته الأولى «بحثًا عن ألاسكا»، سرعان ما أصبح الروائي جون غرين، بين ليلة وضحاها، ظاهرة أدبية يُحسب لها ألف حساب. لم تتوقّف رواية ألاسكا عند الثناء الذي استقبلها به النقّاد العالميون، بل واصلت رحلتها حتى الفوز بجائزة مايكل ل. برينتز، التي تمنحها سنويًا جمعية خدمات مكتبة البالغين الشباب ALA إلى مؤلِّف أفضل كتابٍ يتوجّه إلى جمهور البالغين الشباب، وقد اتُّفق على أنّ تعريف كلمة «أفضل» هذه، لا يستند إلّا إلى الجدارة الأدبية. ولكي نضع ألاسكا في هذا السياق، فإنه لمن المهم أن ننوّه بأنّ برينتز، هي الجائزة الأوسع شهرة في حقل أدب البالغين الشباب، ولا تُمنح لمؤلِّفٍ عن روايته الأولى إلّا نادرًا. في حين تبقى مداولات لجنة الجائزة سرّية، فإن أعضاء اللجنة، عند إعلانهم عن اختيارهم الذي لاقى استحسانًا شعبيًا هائلًا، قالوا إن ألاسكا، «رواية أولى استثنائية» مكتوبة «بحميمية، وروح الدعابة، والبصيرة».

في السنوات التي تلَت منحَ الجائزة، أصبح جون غرين اسمًا مألوفًا، ورواية «بحثًا عن ألاسكا» عملًا كلاسيكيًا معاصرًا يجذب جمهور القراء من البالغين، والبالغين الشباب على حدٍّ سواء. وقد بات من البديهي، أن ينضمّ إلى أيّ قائمة مختصرة لأفضل أفضل روايات الشباب البالغين التي نُشرت منذ عام 1967، الذي شهد انطلاقة هذا النوع الأدبيّ. بالتالي، فإنه يحتل مكانًا مرموقًا في مجموعة من الكتب مثل «الدخلاء» للروائية إس

إي هنتون، و«المنافس» لروبرت ليبسايت، و«حرب الشوكولاتة» لروبرت كورمييه، و«ويتزي بات» لفرانشسكا ليا بلوك، و«الوحش» لوالتر دين مايرز، وأعمال نموذجية أخرى تنتمي إلى هذا النوع الأدبي.

ما الذي يجعل من هذه الرواية عملًا لا يُنسى، وكيف صمدَت هذه السنوات العشر منذ نشرها الأول؟ الجواب على السؤال الثاني هو الأبسط، لذلك دعونا نُسلِّم بأنّ هذا الكتاب الذي يروي قصة صبي غادر منزله في فلوريدا، للانضمام إلى مدرسة كالڤر كريك الثانوية في ألاباما، قد صمد بشكل رائع، شكرًا جزيلًا. فهو ما يزال نضرًا، وآسرًا، ومبتكَرًا بشكل رائع مثلما كان عام 2005.

أمّا الآن، بخصوص السؤال الأول: ليس من قبيل المبالغة أن نقول إن «بحثًا عن ألاسكا» عملٌ دالّ على البراعة والقوة، وأعجوبة في سهولة القراءة، ولكن أيضًا في التوصيف، والحبكة، والبناء، والصوت، والنبرة، والأسلوب، والتأليف. أي كلّ الأشياء التي تشكّل الجدارة الأدبية التي كرّمَتها جائزة برينتز. ومن دون أي مبالغة أدبية، دعونا نستعرض بإيجاز، بعض هذه الجوانب من الرواية، بدءًا بالتوصيف، وهو أحد أعظم عناصر القوة في ألاسكا.

تخيّل، لفتح الشهيّة، فتاةً فاتنة «كانت لها عينان تهيّئانك سلفًا لدعمها في كل مسعى»، وإذا بها ألاسكا الجميلة، التي تجسّدها تمامًا هذه الكلمات القليلة. ومن ثمّ تخيّل، صبيًا نحيلًا يستنكر ذاته، ويحفظ عن ظهر قلب الكلمات الأخيرة لكثُر من المشاهير، وإذا به مايلز، بطل الرواية، الذي يقع في حب ألاسكا، وكيف لا؛ فهي، في نهاية المطاف، «الفتاة الأكثر إثارة في تاريخ البشرية كلّه». وعندما يذهب تفكيره أبعد في هذه الفتاة المتهورة والساحرة، يقول مايلز، «إذا كان الناس من مطر، كنتُ الرذاذ، وكانت هي الإعصار».

إنه مايلز الفطن على الدوام، الفتى الخجول الذي يروي القصة بصوته الذي يزداد شغفًا بتقدّم السرد، صوتٌ مفعمٌ بصور باهرة من التشبيه والاستعارة. حاوِلْ فقط أن تتأمّل في عدد قليل من أشكال البلاغة التي لا تنسى في كلام مايلز: «جعلَت الكلمات الأشياء كلها مربكةً على نحو رهيب، كما لو أنك كنت تباغت جدّك وهو يقبّل جدّتك». أو: «كانت أشعة الشمس دافئة وخشنة على جلدك مثل قبلة من والدك على الخد». أو: قميص «كان مجعّدًا مثل امرأة عجوز قضت شبابها في أخذ حمّامات شمسيّة». من الواضح أن صوت مايلز الأنيق عفويٌّ لا ينطوي على وعيٍ ذاتيٍّ بالبعد «الفنّي»، فهو يتميّز بنبرة وأجواء تتراوح بين الجد واللامبالاة.

بعيدًا عن ألاسكا، سرعان ما يلتقي مايلز بشخصيات أخرى مثيرة، بدءًا من زميله في الغرفة، تشيپ، وهو فتى قصير القامة، مفتول العضلات، يكره «أن يكون حذرًا» ويطلق عليه الجميع اسم «الكولونيل». ومن ثمّ تاكومي، مغني الراب الياباني - الأميركي، والفتى الظريف الماكر، وأخيرًا لارا المولودة في رومانيا، والتي تواجه صعوبة في نطق حرف «I». نعم، كل واحد فيهم، هو بحدّ ذاته كيان متعدّد الأبعاد، محقّقٌ بالكامل وجذاب، فمعًا، يدركُ الأصدقاء الجدد أنّ لديهم، كما تقول ألاسكا، «مصلحة مشتركة في الكحول و«الأذى»». ومن ثمّ، أوه، نعم، السجائر. الكثير من السجائر. باختصار، جميع الأشياء المغرية، التي تتعارض مع قواعد المدرسة، لكنّها تساعد على صناعة حبكة الرواية.

والحق يقال، أثار موضوع الكحول والسجائر بعض الجدل عندما نشر الكتاب لأول مرة، كذلك مشهد العلاقة الجنسية الحميمة بين مايلز ولارا، ولكن مثل هذا الضجيج هو بالتأكيد غير مستحسن. هؤلاء، مراهقون محقّقون بشكل واقعي. يتصرّفون ويتحدّثون مثل المراهقين الحقيقيين. إن التظاهر بخلاف ذلك، من شأنه أن يسيء إلى أصالة القصة. علاوة على

ذلك، هناك براءة جوهرية متأصّلة في تصرفات هؤلاء الملاعين الظرفاء، لاسيّما المشهد الموصوف بأسلوب لطيف ومضحك صراحةً، بين مايلز ولارا.

بالنسبة للحبكة: إنها قصة كلاسيكية، تدور أحداثها في مدرسة داخلية، يعيش أبطالها مرحلة العبور من المراهقة إلى سن الرشد. فكِّرْ في رواية «سلام منفصل» لجون نولز، الحافلة بحس الدعابة والأصالة. بناؤها، هو الآخر، واحدة من ميزاتها العديدة، مقسّمة كما هي، إلى نصفين: الأول يسرد مئة وستة وثلاثين يومًا «قبل»، والثاني، مئة وستة وثلاثين يومًا «بعد». قبل وبعد ماذا، سؤال يطرحه القارئ على نفسه عند أول قراءة؟ بالتالي، تبني هذه الاستراتيجية الهيكلية التشويق، وما يعزّز هذه الحقيقة، هو أنَّ المدرسة نفسها «مكان حيث لا تعرف قط ما سيحدث، أو متى».

إنّ ما يحدث، بالطبع، هو وفاة ألاسكا في حادث سيارة، قد يكون حادثًا، أو قد يكون ما لا يمكن تصوُّره، انتحارًا. يكافح الأصدقاء الباقون على قيد الحياة من أجل تحديد ما حدث، ولكن القرائن قليلة وهاربة، ووفقًا لذلك، فإن البحث العنيد، والمحبط أحيانًا يساعد على جعل النصف الثاني من الكتاب مشوّقًا كما الأول - لا يستهان به. يُضاف إلى ثراء هذا الجزء من الحبكة، نضالُ الأصدقاء للتصالح مع فقدٍ بهذا الحجم، من خلال إيجاد وسيلة لتخليد ذكرى ألاسكا بشكل لائق، وذلك عبر تدبير «درّة تاج المقالب»، وهو مقلب آسر بعنوان «إسقاط النموذج الذكوري».

على الرغم من الارتياح الذي تخلّفه روح الدعابة المستوطنة في المقلب، فوفاة ألاسكا تدعو إلى التفكير الرصين والبحث عن النفس عند كلٍّ من مايلز وأصدقائه. يتمحور هذا التفكير في جزء كبير منه، حول مثالين من الكلمات الأخيرة المبهمة. الأول، فرنسي للكاتب رابليه،

«أذهب سعيًا خلف ربما عظيمة». والثاني، للثائر الأميركي الجنوبي، سيمون بوليڤار، «كيف أخرج من هذه المتاهة؟».

ماذا تعني هذه الكلمات، وكيف تنطبق على حياة مايلز وتجربته؟ تبدو غامضة ومحيِّرة مثل ألاسكا نفسها، لكنها تُذكِّر بالتأكيد بما يشير إليه أستاذ مايلز الموقّر، الدكتور هايد، في درسه عن تاريخ الأديان، وهو أنّ «الغاية الأهم من دراسة التاريخ، هي البحث عن المعنى. ما هي قواعد هذه اللعبة (الحياة) وكيف نلعبها على أفضل نحوٍ ممكن؟» حسنًا، كيف يلعبها مايلز وأصدقاؤه؟ بإثارة، وحيوية، وعاطفة، وشجاعة، ونشاط، نعم، وحتى بالألم والحسرة.

هل وجدوا الـ«ربما: العظيمة؟ هل اكتشفوا الطريق للخروج من المتاهة؟ بغياب إجابات سهلة، ستدعو هذه الأسئلة إلى تفكير ونقاش جادّين، كما ينبغي أن يكون الأدب الجيد. ولكن حتى ذلك الحين، كان من الإنصاف هنا، أن تأتي الكلمات الأخيرة على لسان المؤلف: «أنا أؤمن بالأمل»، وقال: «في ما يسمى أحيانًا «الأمل الجذري». أعتقد أن ثمّة أملًا لنا جميعًا، في خضمّ العذاب، وربما داخل العذاب نفسه حتى. هذا هو السبب الذي يدفعني إلى كتابة الرواية، على الأرجح. إنها محاولتي في الحفاظ على هذا الشريط الواهي من الأمل الجذري، لإشعال نار وسط حلكة الظلام».

مكتبة
t.me/soramnqraa

مايكل كارت، كاتب وناقد أدبي في مجلة Booklist، هو رئيس سابق لجمعية خدمات مكتبة الشباب، ترأّس لجنة تحكيم جائزة پرينتز لعام 2006.

مايلز، طالب يحفظ الجمل الأخيرة التي قالها العظماء قبل موتهم مباشرة، يختار الانضمام إلى مدرسة كولڤر كريك الداخلية بحثًا عن «ربّما عظيمة» تغيّر حياته المملّة وتساعده على تحقيق ذاته.

في تلك المدرسة يتعرّف بزميله في السكن، «الكولونيل» عبقري الرياضيّات، وبتاكومي مهووس التكنولوجيا والراپ، وبالفاتنة الرومانية لارا، وبألاسكا الّتي لا توصف إلّا بكلمات مايلز نفسها: «لو كان الناس من مطر، لكنتُ أنا الرذاذ ولكانَتْ هي الإعصار» والتي هزّت كيانه بتمرّدها وشهوانيّتها وبسعيها للإجابة عن سؤال الجنرال «بوليڤار» الأخير قبل موته: «كيف نخرج من هذه المتاهة؟»

«بحثًا عن ألاسكا» رواية جون غرين الأولى التي تجسّد حياة الطلاب بكلّ ما فيها من معاني الصداقة والحبّ والانكسار والحزن والموت، بأسلوب بسيط يعتمد على الوصف الحيّ والسرد المشوّق والحوار الرشيق، في قالب من الفكاهة والتجارب الأولى والمقالب الهزلية، لينتقل بسلاسة إلى الجدّ والمأساة والتأمّل الفلسفي الوجودي العميق.

telegram @soramnqraa

جون مايكل غرين، روائي ومدوّن وكاتب محتوى أميركي. هو الكاتب الأكثر مبيعًا بحسب صحيفة نيويورك تايمز وهو من ضمن الشخصيات المئة الأكثر تأثيرًا في العالم على قائمة التايمز لسنة 2014. اكتسب شهرة واسعة بعدما حازت روايته هذه «بحثًا عن ألاسكا» جائزة «پرينتز» كأفضل رواية شبابيّة لسنة 2006 ودخلت القائمة السنوية لجمعية المكتبات الأميركية لأفضل عشرة كتب لأدب اليافعين، ووصلت في سنة 2012 إلى قائمة النيويورك تايمز لأفضل الكتب مبيعًا للشباب.

صدر له عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر: «ما تخبّئه لنا النجوم» و«سلاحف إلى ما لا نهاية».

ISBN 978-6144-58-568-9

9 786144 585689

www.all-prints.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر